45 سلسلة الدروس الثقافيّة

أسوار الأمان

صيانة المجتمع من الإنحراف على ضوء سورة الحجرات



شبكة المعارف الإسلامية

مركز نون للتأليف والترجمة



أسوار الأمان

صيانة المجتمع من الانحراف على ضوء سورة الحجرات

جمعيّة المعارف الإسلاميّة الثقافيّة

بيروت . لبنان . المعمورة . الشارع العام

هاتف: ٠١/٤٧١٠٧٠

ص.ب. ٢٤/٥٣ . ٢٥/٣٢٧

الكتاب:	**أسوار الأمان**
إعداد:	**مركز نون للتأليف والترجمة**
نشر:	**جمعيّة المعارف الإسلاميّة الثقافيّة**
	الطبعة الأولى 2014 م - 1435 هـ

أسوار الأمان

صيانة المجتمع من الانحراف على ضوء سورة الحجرات



مركز نون للتأليف والترجمة


بسم الله الرحمن الرحيم

الفهرس

المقدّمة

الحمد للّه ربّ العالمين، وصلّى اللّه على سيّدنا محمد وآله الطاهرين وبعد.

تُمثّل سورة الحجرات نموذجاً من النماذج الإعجازية في القرآن الكريم، حيث تضمّنت كمّاً هائلاً من القوانين والسنن في مجالات مختلفة، وتحتوي بهذا الكم القليل من الآيات الشريفة على كثير من المبادىء الحقوقية، والاجتماعية، والتربوية، والأخلاقية،... فقد أوضحت السورة حقيقة الإيمان، وبيّنت تفاوته عن الإسلام ومراتب كل واحد منهما.

وهي على قِصَرِها؛ إذ لم تتجاوز الثماني عشرة آية، تتضمّن العديد من الحقائق الكونية والتشريعية والكثير من الأسس والمبادىء والقوانين الثابتة لبناء الحياة الاجتماعية في مجالاتها الخُلقية والاجتماعية.ولهذا تمّ اختيار هذه السورة لتكون المضمون الثقافي والتبليغي لهذا الكتاب، الذي يمتاز بمجموعة من الأمور على مستوى المنهج والمضمون والشكل، نشير إليها باختصار:

فعلى مستوى اسم الكتاب: أطلقنا عليه اسم «**أسوار الأمان**» نظراً إلى الأهداف التي نتوقّع تحقيقها من الكتاب، وهي صون المجتمع من الانحراف من خلال مراعاة الضوابط والقواعد التي تحدّثنا عنها. ولأنّ حفظ الأمن والأمان المجتمعي أعلى قيمة ينبغي المحافظة عليها.

وعلى مستوى المضمون: يتضمّن الكتاب تفسيراً كاملاً لسورة الحجرات، اعتمدنا فيه على التحقيقات والجهود العلمية القيّمة لعلمائنا الأبرار في مجالات متعدّدة لغوية، تفسيرية، عقدية، أخلاقية، تربوية...، ومن المصادر التفسيرية التي اعتمدنا عليها: التبيان للطوسي، مجمع البيان للطبرسي، الميزان للطباطبائي،

الفرقان للطهراني: وذلك ليتسنّى للإخوة الأعزّاء الاطلاع العلمي الرصين على هذه النتاجات العلمية بُغية توظيفها في المجالات العملية والحياتية، لأنّ المعرفة العلمية الدقيقة والصحيحة هي مقدمة ضرورية للنجاح في مجال التطبيق للفرد والمجتمع.

أما على مستوى المنهج: فقد قسّمنا الكتاب إلى إطلالة(13) درساً بشكل استثنائي عن بقية كتب هذه السلسلة؛ ليضم كل الدروس المستفادة من السورة. وقد اعتمدنا فيها المنهج الآتي:

- اعتمدنا على نظرية الوحدة الموضوعية للسور القرآنية واخترنا محوراً محدّداً للسورة.
- اعتمدنا تقسيم السورة المباركة إلى مقاطع، وكل مقطع إلى عدد من الدروس، وفي بعض الأحيان قد يستوفي الدرسُ تمام المقطع. كل ذلك مع ملاحظة وحدة المحور في تمام الدروس.
- عند نهاية كل مقطع حاولنا ربطه بالمحور وختمنا المقطع بالرسالة التي تريد الآيات أو الآية في بعض الأحيان إيصالها إلينا.
- لدواع منهجية مرتبطة بطبيعة سلسلة المتون الثقافية إن من جهة تنوّع مستويات الشريحة المستهدفة، وغزارة المادّة التفسيرية من جهة أخرى، تعمّدنا اختصار حجم الدروس قدر الإمكان ليتمكّن الإخوة من ضبط المادّة بشكل مناسب ويستطيع الأساتذة الكرام إعطاءها ضمن الوقت المحدّد.
- اعتمدنا منهجية محدّدة في كل الدروس كانت على الشكل الآتي:

– تصدير الدرس بالآية أو الآيات مورد الشرح.

– تمهيد يتناسب مع الدرس، هو اختصار للمدلول التفسيري العام للآية أو الآيات، وذلك بهدف تهيئة ذهن الطالب للدخول إلى الدرس وتركيز المعنى التفسيري بعبارات يمكن حفظها ويسهل على الطالب فهمها.

- اعتمدنا في فقرة **شرح مفردات الآية** بشكل رئيس على التحقيقات القيمة للعلامة الشيخ حسن المصطفوي في كتابه «**التحقيق في كلمات القرآن الكريم**» بالإضافة إلى كتب لغوية أخرى كمعجم مقاييس اللغة لابن فارس، ومفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني، وغير ذلك من الكتب اللغوية ذات الصلة.
- المعنى التفصيلي هو توسعة في المدلول التفسيري للآية أو الآيات من خلال التركيز على أهم الآراء التفسيرية، والتربوية، والأخلاقية، وغير ذلك. وقد نذكر المعنى التفصيلي بشكل فقرة واحدة أشبه بالمعنى الإجمالي ولكن بشكل أوسع وقد نذكرها على شكل نقاط وذلك حسب حجم المعلومات المرتبطة بالآية.
- فقرة تأمُّلات حول الآية ليست مطّردة في كل الدروس وقد نذكرها لدواع إثرائية مرتبطة بمضمون الآية ولكنّها لا ترتقي إلى مستوى بحث حول الآية.
- فقرة بحث حول الآية هي عبارة عن أبحاث مستلّة من الآيات الكريمة ولا يستوعبها المعنى التفصيلي.
- الدروس المستفادة من الآيات هي الدروس والعبر والنتائج العلمية التي نستنتجها من الآية ومن الأبحاث حولها.
- وضعنا ختام كل درس صفحة مطالعة تنسجم في أغلب مضامينها مع مضمون الكتاب.

والحمد لله رب العالمين

مركز نون للتأليف والترجمة

إطلالة عامة على سورة الحجرات

مفاهيم محورية:

- تعريف بالسورة.
- فضيلة تلاوتها.
- هدف السورة.
- محور السورة.
- موضوعات ومقاطع السورة.
- أسوار الأمان في السورة.
- معالم المجتمع الإسلامي من خلال السورة.
- منهج السورة.

تمهيد

قبل البدء بتفسير السورة نُلفت إلى الموضوعات الإجمالية التي تناولتها الآيات إضافة إلى التعرّف على منهج السورة ومحاورها وهدفها الرئيس، لأنّ ذلك يعيننا على فهم وتدبُّر السورة بشكل أفضل.

تعريف بالسورة

نزلت سورة الحجرات بعد سورة المجادلة، آياتها ثمانية عشرة آية بلا خلاف، 343 كلمة و 1496 حرف[1]. وهي مدنية إلا الآية 13 وهي قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ وقال آخرون: كلها مدنية[2].

وقد سُمّيت بالحُجرات بسبب ورود لفظ الحُجرات في الآية الرابعة من قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي ينادون النبي ﷺ من وراء الحجرات أي بيته.

---

(1) روض الجنان وروح الجنان في تفسير القرآن (فارسي)، أبو الفتوح الرازي، ج18، ص 1.

(2) التبيان في تفسير القرآن، محمد بن الحسن الطوسي، ج9، ص 339.

وتضمّنــت السورة موضوعات متعــدّدة [1]، ومباحث متنوّعة ومن المباحث التي يمكن استخراجها من السورة ما يلي:

1. الصفات الإلهية وأثرها على التربية الأخلاقية للفرد والمجتمع.
2. منهج التعامل مع القيادة الربّانية.
3. الإيمان والإسلام حقيقتهما ومراتبهما.
4. أسس بناء المجتمع (الأخوة والتقوى).

---

(1) مــن هــذه الموضوعات: أوصاف الذات الإلهية: توصيف الله تعالى: بالسميــع والعليم (الآية 1). بالغفور الرحيم (الآية 5 و 14). توصيف الله تعالى بالعليم الحكيم (الآية 8).أنه بكل شيء عليم (الآية 16). تواب رحيم (الآية 12). يحــب المقسطيــن (الآيــة 9). يعلم غيب السموات والأرضــ (الآية 18). بصير بسلوكيــات وأعمال العباد (الآيــة 18). حول الحضــرة الإلهية:إن الله تعالى أخبر بأنه يحب الإيمان ويبغض الكفر، وقد حبّب وزيّن الإيمان فــي قلــوب النــاســ (الآية 7). لا ينبغي على المسلميــن أن يعلّموا الله دينه (الآيــة 16).إن الله تعالى قد منّ على المسلميــن وهداهــم إلــى نعمة الإيمان (الآية 17). حــول رسول الله: التقدّم على الله ورسولــه في القول والعمل أمر غير جائز على الاطلاق (الآية 1). رفع الصوت في محضر النبي غير جائز ويؤدّي إلى إحباط العمل (الآية 2).مــدح الله تعالى الأشخاص الذين يحترمون الرسول ويغضّون الصوت في محضره ووعدهم بالمغفرة والأجر العظيــم (الآية 3).كيفية وآداب معاشرة النبي ﷺ (الآيــة 5).رسول الله عنده أوقات وبرامج خاصة لخلوته مع نفســه وأسرتــه (الآية 5).لا ينبغي على المسلمين انتظار طاعة النبي لهم لأن مقامه أعلى منهم أي فوقهم ؛ فهم يطيعونــه لا العكســ (الآيــة 7).لا ينبغي على المسلمين أن يمنــوا على رسول الله إسلامهــم (الآية 17). بطلان أصالة عدالة كل الصحابة (الآية 1 و 2 و 6 و 11). حول الإسلام والإيمان: تفاوت الإيمان والإسلام (الآية 14). بيــان حقيقة الإيمان (الآية 15). الإيمان في القلــب (الآية 7 و 14). الإيمان وعلاقته بالعمل (الآية 15). كيفية ادخال الناس في الإيمان (الآية 15). قوانين الحياة الاجتماعية: لا ينبغي على المؤمنين الأخذ بقول الفاسق من دون تحقّــق من قولــه (الآية 6). إذا وقع صراع بين المؤمنين فإن الاصلاح بين المتصارعين واجب على الجميع (الآية 9). لا ينبغي على المسلمين أن يسخر بعضهم من بعض (الآية 11). لا ينبغي أن يقولوا لبعضهم قولاً سيئاً وقبيحــاً «اللمز» (الآية 11). لا ينبغي استعمال الألقاب القبيحــة في حق بعضهم «التنابز بالألقاب»(الآية 11). لا ينبغــي علــى المسلمين سوء الظنّ ببعضهــم (الآية 12).لا ينبغي أن يتجسّس بعضهــم على بعض (الآية 12). لا ينبغــي أن يغتاب بعضهم بعضاً (الآيــة 12). ينبغي أن يكون دافع العمل عند المسلمين هو التقوى (الآية 12). ينبغــي علــى المؤمنين أن تحكمهم علاقات الأخوة الإيمانية (الآية 10). مباحث حقوقية: قاعدة القضاء هي من أجل إحقاق الحق لا لفصل الخصومة (الآية 9). لا فرق بين أفراد البشر وهم متساوون أمام الله وأمام أنفسهم (الآية 13). إن الاختلافات العرقية وغيرها بين أبناء البشر وجدت بغية التعارف بينهم (الآية 13). ينبغي إلغاء الطبقيــة بين أبناء البشر فلا فرق بين أبيض وأسود ولا عربي وعجمي (الآية 13). الأفراد متساوون في الحقوق وأمام القانون (الآية 13). إن تساوي المسلمين بين بعضهم هو في الأخوة (الآية 10). المساواة درجتان الأخوة والإنسانيــة (آيــات 10 و 13). ينبغي أن لا نتوقّع أي شيء أو نفسّر أي أمر متعلّق بالنبوة قبل أن يقوم النبي بذلك وينبغــي علينــا الانتظار حتى يُحدّد ويبين ويوضّح هو ذلك (الآية 5). مباحث عقائدية: علم الله تعالى بالكائنات علم حضوري (الآية 16 و 18). بطلان الجبر في الأفعال (الآية 7 و 18). إنّ قبول الإسلام هو أمر اختياري وليس جبري (الآية 17). إحباط العمل (الآية 2).

5. قواعد وآدب السلوك الاجتماعي.
6. منهج تلقّي الأخبار.
7. إحباط العمل في القرآن.
8. الإصلاح الاجتماعي بين المؤمنين.

ثواب قراءة سورة الحجرات

عن الحسين بن أبي العلاء عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**من قرأ سورة الحجرات في كلّ ليلة أو في كل يوم كان من زوّار محمد صلى الله عليه وآله وسلم**»[1].

ومن الواضح أنّ كلّ هذه الحسنات التي هي بعدد المطيعين والعاصين إنّما تكون في صورة ما لو أخذنا بنظر الاعتبار كلّاً من الفريقين وأن نفكّر جيداً فنجعل مسيرنا وفقاً لمنهج المطيعين ونبتعد عن منهج العاصين.

وروي في كتاب (خواص القرآن)[2]: عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال:«**من قرأ هذه السورة أعطي من الأجر بعدد من أطاع الله تعالى وعدد من عصاه عشر مرّات، ومن كتبها وعلّقها عليه في قتال أو خصومة أمن خوف ذلك، وفتح الله تعالى على يديه باب كلّ خير**»[3].

---

(1) ثواب الأعمال، الصدوق، ثواب قراءة سورة الحجرات، ص 115.

(2) خواص القرآن تعني باختصار تأثير القرآن أو بعض سوره وآياته على الموجودات ومنها الإنسان سواء على جسده أو روحه. وهناك تعبير أكثر شيوعاً في كتب التفسير وهو فضائل السور أو ثواب قراءتها وهو ما نراه من أحاديث مروية عن النبي صلى الله عليه وآله وعن أهل البيت عليهم السلام في كتب التفسير كالتبيان للطوسي، ومجمع البيان للطبرسي، والكتب التفسيرية الروائية:كالقمي، والعياشي، وفرات الكوفي، الثقلين، البرهان، وغيرها من الكتب. ومن الواضح أن هناك ارتباطاً بين خواص القرآن وفضائله وقد يظهر هذا الارتباط الوثيق بينهما فقد يقال إن خواص القرآن جزء من فضائله لأنها توضح وتبين بركة القرآن وفضله ومزاياه ؛ في جلب النعم، ورفع النقم. ولكن جملة من العلماء أفردوا (الخواص القرآنية) عن الفضائل القرآنية، فأصبح لخواص القرآن تعريفاً مستقلاً، ومؤلّفات خاصة وصار عندنا علم باسم «علم خواص القرآن» أو«أسرار القرآن» أو« أسرار ومنافع القرآن» وهذه كلّها تسميات متعدّدة لمعنى واحد. ومن جملة المؤلفات هو كتاب «خواص القرآن العظيم» الذي نقل عنه المحدّث السيد هاشم البحراني وهو كتاب منسوب إلى الإمام الصادق عليه السلام. هذا الكتاب كتبه الشيخ عفيف الدين أو أبوعبد الله أسعد اليافعي اليمني بعنوان «الدر النظيم في خواص القرآن العظيم» ذكر خواص كل سورة وخواص كل آية منها بالخصوص من خلال ما ورد عن الإمام أبو عبد الله الصادق عليه السلام وغيره من المعصومين. وهناك كتب أخرى حول خواص القرآن للسيوطي، والشافعي، والغزالي، والجيلاني وغيرهم.

(3) البرهان في تفسير القرآن، هاشم البحراني، ج5، ح2، ص 99.

وعن رسول الله ﷺ: «**من كتبها وعلّقها عليه في قتال أو خصومة، نصره الله تعالى وفتح له باب كل خير**»[1].

هدف السورة

تهدف سورة الحجرات إلى بناء منظومة مفاهيم عقائدية وشبكة علاقات إنسانية تحكمها الآداب العامة والخاصة وتسودها أصول أخلاقية اجتماعية من أجل بناء المجتمع الإسلامي الخالص وصيانته من الانحراف وذلك من خلال تطبيق التوجيهات والقوانين الواردة في السورة والمجتمع الذي ينبغي جعله نموذجاً يُحتذى به وهو المجتمع النبوي المتمثّل بالنبي ﷺ وأهل بيته عليهم السلام. وبعبارة أوضح: بناء المجتمع الإسلامي على ضوء التربية الأخلاقية التي تضمّنتها سورة الحجرات والاقتداء بالقرآن الناطق وهم محمد وآل محمد ﷺ.

محور السورة

هناك ثلاثة سور في القرآن وهي: «**محمد والفتح والحجرات**» ترتبط بمحور واحد هو النبي محمد ﷺ ففي سورة محمد كان الهدف اتّباع الرسول ﷺ، وفي سورة الفتح مواصفات أتباعه، وفي سورة الحجرات أدب التعامل معه ﷺ الذي هو أساس في التعامل مع أفراد المجتمع الإسلامي؛ لأنّ من تسقط عنده شخصية كرسول الله ﷺ فلن يحترم أيّ قانون أو أيّ فرد في المجتمع وسيكون مثالاً في الانحطاط الأخلاقي، ومن تسمو عنده شخصية كرسول الله ﷺ فإنّه سيحاول بكلّ ما أوتي من قوّة أن يتماهي مع هذه الشخصية في المجتمع وتكون هي العنوان الأساس في كلّ علاقاته الدينية والإنسانية مع الآخرين.

ومن خلال الاستعراض الدقيق والتحليل المنهجي لمضمون السورة وملاحظة القضايا والقوانين المختلفة التي تعرّضت لها، سندرك أنّها تدور حول محور رئيس

(1) البرهان في تفسير القرآن، هاشم البحراني، ج5، ح3، ص 99.

وهـو «**التربية الأخلاقيـة للمجتمع الإسلامي**» وهو بالتالـي ما تدور حوله كل آيات ومقاطع السورة المباركة.

وهـذا ما نلحظه من خـلال الحديث عن القيـادة الإلهيـة وآداب التعامل مع اللّه تعالى ورسوله ﷺ والطاعة المطلقة للقيادة، وآداب وضوابط وقواعد تلقّي الأخبار، حقيقـة وقيمـة الإيمـان، حرمة المؤمـن عند اللّه تعالـى، وذلك من خـلال عدّة من النواهي التي ذكرتها السورة من حرمة الغيبة، التجسُّس، الاستهزاء، وغير ذلك من الآداب الأخلاقيـة، وبيان خطورة التنازع بين أفـراد المجتمع الإسلامي ورفض هذا الخلاف وكيفية الإصلاح بين المؤمنين إلى آخر ما تضمّنته السورة.

موضوعات ومقاطع السورة

إنّ الأمـن والأمان والسلام من التطلّعـات الكبرى للإنسانية جمعاء، فكلّ شخص يولـد ويولـد معه الأمل والتطلّع إلى الحيـاة الآمنة والسالمة، فهـو يريد أن يعيش في سلام وأمان مع نفسه، ومع الآخرين، ومع مجتمعه وهذا بالتحديد ما ترسمه وتحدّده «**سـورة الحُجـرات**» من أسوار أمان نفسي وديني واجتماعـي لتحقيق السلام في دار الدنيا قبل الآخرة.

فترسم السورة أسواراً في التعامل مع القيادة الإلهية لأنّها هي المرجع الأساس في حـال تعرّضت وحدة المجتمع وأمنـه وسلامه للخطر؛ وبعد أن ترسي احترام القيادة وآداب التعامـل معهـا، وطبيعة العلاقـة معهـا، تأمـر السورة المؤمنيـن بالتثبُّت في أمورهـم، وعدم الاسترسال مع أنباء الفاسقيـن، فهي تؤسّس منهجاً في التعاطي مع الأخبار وترسم سُـور أمانٍ جديد يمنع من إثارة الفتنة وشيوع الفوضى في المجتمع، لأنّهم من دون تثبُّت قد يصيبون بذلك قوماً بجهالة ثم يندمون على ذلك.

فـي سيـاق حديثها عن علاقة المسلمين بعضهم بالبعض تأمرنا في حال نشوب اقتتـال بيـن فئتين منهـم إرجاعهما إلـى سور الأمـان وهو الإصـلاح بينهما مقدّمة

لإرساء العدالة، وفي حال بغت إحداهما على الأخرى ولم تقبل بالرجوع إلى سور الأمان، فوظيفتنا إرجاعها إليه ولو بالقوة، لأنّ حفظ الأمن والأمان المجتمعي أعلى قيمة ينبغي المحافظة عليها لأنّه من دونها لا يمكن تحقيق العدالة في الأرض، فيجب محاربة الفئة الباغية، حتى تفيء إلى أمر الله وتقبل الصلح والتحاكم الى الشريعة المقدّسة، فإنْ فاءت تقوم الأمة بنشر العدالة في أوساطها والقسط.

ثم تُرسي سوراً مهمّاً في العلاقة بين المؤمنين وهو سور الأخوة ليكون محوراً أساسياً للعلاقة بينهم.

ثم ترسي لنا مجموعة أسوار لا بد من الرجوع إليها، من خلال جمعها بعنوان: «**سور حرمة المؤمن**»، فينبغي أن لا يحكم علاقتنا سوء الظنّ، ولا الغيبة، ولا السخرية والاستهزاء، فهذا هو سور «**حرمة المؤمن**».

ثم ترسي لنا سور الإنسانية والذي يؤكّد الأصل الواحد للبشرية فالأب آدم عليه السلام والأم حواء (عليها السلام)، ترفض أي نوع من التمييز المادّي والعنصري بين البشر، وتُبيّن أنّ الحكمة من جعلنا شعوباً وقبائل هو التعارف والانفتاح والتلاقي وليس التدابر والانغلاق والتحارب، لأنّه اذا عرف بعضهم بعضاً ضبطت المسؤوليات والحقوق وتهيّأت أرضية إقامة العدالة.

نعم إنّ هناك تمايزاً واحداً هو سور التقوى. فإنّ أكرم الخلق عند الله أتقاهم. ومن معاني التقوى سلامة الفكر واستقامة السلوك، وبذلك يكون التنافس على إيصال المجتمع إلى أمنه وسلامه، فالتقوى هي المحقّقة لأهداف الله تعالى على الأرض.

وتختم السورة الكريمة بمظلّة الأسوار إن صحّ التعبير أي الضابط لتطبيق كلّ الأسوار السابقة والموجد للدافع الذاتي لتطبيق آداب السورة وتحقيق أسوارها وهو «**علم الله بغيب السموات والأرض**» وأنّ الله «**بصير**» بأعمال عباده.

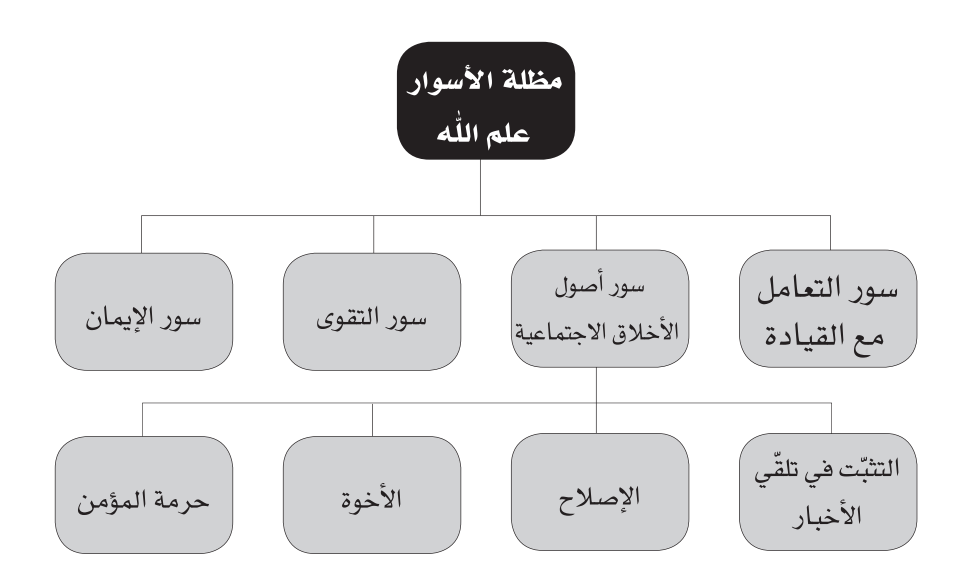
وما ينتج من خلال تطبيق هذه الأسوار التي دعت لها السورة هو السلام، فالله

تعالـى يدعو إلـى دار السلام فـي الدنيا، وإلـى دار السلام في الآخـرة؛ السلام مع النفس، مع الآخرين، مع المجتمع.

فالســلام أشبه بشجرة مثمرة، جذورها وأصولها في القلب وثمارها وفروعها في المجتمـع؛ فعندما يتحقّق الســلام والاطمئنان في النفس، فستخـرج من النفس كلّ الأضـداد والأغيار فلا حسد، ولا حقد، ولا ضغينة، ولا عصبية وحمية جاهلية، فعند ذلك ستبدأ أسوار سورة الحجرات بالتحقُّق في المجتمع.

فإذا كان القلـب يغمره السلام والأمن، كانت تصرّفات الإنسان وسكناته معبّرة عن الارتياح والاطمئنان الذاتي فنجد بأنّه:

- يبحث لنفسه عما يصلحها وينفعها ويدفعها إلى التطوّر.
- وسيعاشـر مَـن حولـه بسلامٍ خـالٍ من البغـي والظلـم والتكبُّر وسـوء الظنّ والتجسُّس والغيبة...
- وستراه ينشر بأقوالـه وأفعاله تفاصيل الأمن والسلام ويُحقّق كما قلنا أسوار الأمان في المجتمع بل قد يُقاتل من أجل تحقيقها.



أسوار الأمان في السورة

لقد توزّعت هذه الأسوار على آيات السورة ضمن مقاطع على الشكل التالي:

- **المقطع الأول:** من الآية (1-5): سور التعامل مع القيادة:

تُبيّـن هذه الآيات طريقة التعامل مـع النّبيﷺ وآدابها وما ينبغي على المسلمين مراعاتـه من أصول في حضـرة النبيﷺ وهي تعلّمنا على كلّ حال آداب التعامل مع القيـادة وتقنّن طريقـة التعامل مع القيادة الصالحة المتوازنـة عندما يتعايش معها الفرد المسلم. ويتحرّك في إطارها وفي ظلّ أوامرها ونواهيها، لتخلق الرابط الوثيق مع تلك القيادة الربّانية فتُحدّد آداب التعامل معها. بالشكل الذي يحفظ لها قداستها ومقامهـا العظيـم لأنّ السر في الاستجابة للقائد الإلهي هـو مدى احترامه وتقديسه وتوقيـره لـدى الرعية. وعندمـا يحصل هذا الترابـط ستكتسب القيادة قـوة التأثير والفاعلية في الأمة.

- **المقطع الثّاني:** الآيات (6-12): سور أصول الأخلاق الاجتماعية:

بيّنـت السورة في هذا المقطـع سلسلة من أُصول «**الأخـلاق الاجتماعية**» الهامة التي إن عُمل بها وعلى هداها حُفظت المحبّة والصفاء والأمن والاتحاد في المجتمع الإسلامي، وعلى العكس من ذلك لو أُهملت تكون سبباً للشقاء والنفاق والتفرّق وعدم الأمن. وقد حدّدت السورة هذه الأصول على الشكل التالي:

- الأصـل الأول: منهج تلقّـي الأخبار: بيّنت السورة في الآيـة السادسة المنهج القرآني في كيفية التعاطي مع الأخبار وكيفية تلقّيها وأهمّية الدقّة في أخذها ونقلها.
- الأصـل الثانـي: الإصلاح بين المؤمنيـن: عرضت السورة جملـة من الأوامر الإرشاديـة المتعلّقـة بكيفية مواجهة الاختلافات والتنـازع أو القتال الذي قد يقع بين المسلمين أحياناً.

- الأصل الثالث: الأخوّة بين المؤمنين: لفتت السورة إلى أصل أساس لا بد من توافره في بناء العلاقات الإنسانية بين أفراد المجتمع وهو أنّ: ﴿...ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ..﴾.
- الأصل الرابع: رعاية حرمة المؤمنين: اشتملت السورة الكريمة على جملة من الأوامر والنواهي الإلهية التي اذا لم تتم مراعاتها في المجتمع فهذا سيؤدّي إلى تحطيم وانهيار العلاقات الاجتماعية وهي ستّ عناوين: ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ ، وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ، وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ ، ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ ، وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾.

- **المقطع الثالث:** الآية 13: سور التقوى.

تتحدّث عن معيار قيمة الإنسان عند الله وهو التقوى.

- **المقطع الرابع:** الآيتان (14-15): سور الإيمان.

تعالج هذه الآيات قضية مركزية في طبيعة العلاقة بين الإيمان والعمل وهو أنّ الإيمان ليس بالقول فحسب بل لا بدّ من ظهور آثاره في أعمال الإنسان والجهاد بالمال والنفس، إضافةً إلى الاعتقاد في القلب. كما تُبيّن أنّ الإيمان والإسلام هما هدية إلهية للمؤمنين وبدلاً من أن يمنّوا بالإسلام أو الإيمان ينبغي أن يشكروا الله على هذه الهدية إذ شملهم بها. تتحدّث بشكل عام عن الصفات الإلهية التي يجب أن يتحلّى بها الفرد المسلم والذي يتكوّن المجتمع الإسلامي منه.

- **المقطع السادس:** الآية 18: علم الله تعالى:

في هذا المقطع تتحدّث عن علم الله واطلاعه على جميع أسرار الوجود الخفية وأعمال الإنسان، وهذا القسم بمثابة الضامن لتنفيذ جميع هذه الأقسام الواردة في هذه السورة!

معالم المجتمع الإسلامي من خلال السورة

تتضمّــن السورة مسائل من شرائع الدين بها تتم الحياة السعيدة للفرد ويستقر النظــام الصالــح الطيب في المجتمع، منها ما هــو أدب جميل للعبد مع الله سبحانه ومــع رسوله كما في الآيات الخمســ في مفتتح السورة، ومنها مــا يتعلّق بالانسان مع أمثالــه من حيث وقوعهم في المجتمع الحيوي، ومنها مــا يتعلّق بتفاضل الأفراد وهو مــن أهم ما ينتظم به الاجتماع المدني ويهدي الانســان إلى الحياة السعيدة والعيش الطيب الهنيء ويتميّز به دين الحق من غيره من السنن الاجتماعية القانونية وغيرها، وتختتــم السورة بالإشارة إلى حقيقة الإيمان والإسلام وامتنانه تعالى بما يفيضه من نور الإيمان[1]. إنّ صورة المجتمع الإسلامي الذي تريد بناءه سورة الحجرات هو على الشكل التالي:

- مجتمع رفيع كريم نظيف سليم متضمّنة القواعد والأصول والمبادئ والمناهج التي يقوم عليها هذا العالم والتي تكفل قيامه أولاً، وصيانته أخيراً.
- مجتمع يصدر عن الله، ويتّجه إلى الله، ويليق أن ينتسب إلى الله.
- مجتمع نقي القلب، نظيف المشاعر، عفّ اللسان، وقبل ذلك عفّ السريرة.
- مجتمــع لــه أدب مع الله، وأدب مــع رسوله، وأدب مع نفســه، وأدب مع غيره. أدب فــي هواجس ضميره، وفي حركات جوارحه. وفي الوقت ذاته له شرائعه المنظّمة لأوضاعه، وله نظمه التي تكفل صيانته. يتمثّل هذا الأدب في إدراك حــدود العبد أمام الربّ، وأمام الرسول الذي يُبلِّغ عن الربّ. فلا يسبق العبد المؤمــن إلهه في أمــر أو نهي، ولا يقترح عليه في قضاء أو حكم ولا يتجاوز ما يأمــر بــه وما ينهى عنه ولا يجعــل لنفسه إرادة أو رأياً مــع خالقه.. تقوى منه وخشية، وحياءً منه وأدباً.

(1) محمد حسين الطباطبائي، تفسير الميزان، ج18، ص 305.

- مجتمع له منهجه في التثبُّت من الأقوال والأفعال، والاستيثاق من مصدرها، قبل الحكم عليها. يستند هذا المنهج إلى تقوى الله تعالى.
- مجتمع لـه نظمه وإجراءاته العملية في مواجهة مـا يقع فيه من خلاف وفتن وقلاقل واندفاعات، تخلخل كيانه لو تُركت بغير علاج. وهو يواجهها بإجراءات عملية منبثقة من قاعدة الأخوّة بين المؤمنين، ومن حقيقة العدل والإصلاح، ومن تقوى الله والرجاء في رحمته ورضاه.
- مجتمع لـه آدابه النفسية في مشاعـره تجاه بعضه البعض ولـه آدابه السلوكية في معاملاته بعضـه مع بعض: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَـٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَـٰنِ ۚ ﴾. ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾.
- مجتمع نظيف المشاعر، مكفول الحرمات، مصون الغيبة والحضرة، لا يؤخذ فيه أحد بظنة، ولا تتبع فيه العورات، ولا يتعرّض أمن الناس وكرامتهم وحريتهم فيه لأدنى مساس.
- مجتمع له فكرته الكاملة عن وحدة الإنسانية المختلفة الأجناس المتعدّدة الشعوب وله ميزانه الواحد الذي يقوم به الجميع. إنّه ميزان الله المبرّأ من شوائب الهوى والاضطراب: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾.

والسورة بعد عرض تلك الحقائق التي تكاد تستقلّ برسم معالم ذلك المجتمع الرفيع الكريم النظيف السليم، تُحدّد معالم الإيمان، الذي باسمه دعي المؤمنون إلى إقامة ذلك المجتمع. وباسمه هتف لهم ليلبّوا دعوة الله الذي يدعوهم إلى تكاليفه بهذا الوصف الجميل، الحافز إلى التلبية والتسليم: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾. ذلك النداء الحبيب الذي يخجل من يُدعى به من الله أن لا يجيب والذي ييسّر كل تكليف ويهوّن كلّ

مشقة، ويشوّق كلّ قلب فيسمع ويستجيب: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَـٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾.

أمّا في ختامها فتكشف السورة عن ضخامة الهبة الإلهية للبشر. هبة الإيمان التي يمـنّ بها على من يشاء، وفق ما يعلمه فيــه من استحقاق: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَـٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَـٰنِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[1].

منهج السورة

اشتملـت السورة على القواعد والآداب الأخلاقية لتربية المجتمع الإسلامي ولكي تصـل إلى هــذه الأهداف التي رسمتها فقــد انتهجت منهجاً خاصاً فــي تقرير آداب وضوابط المجتمع الإسلامي:

ولقــد تعــدّدت وسائل التوجيــه التربوي في هــذه السورة الكريمة، ولــم يكن هذا التعدّد مجرّد تنويع لغرضـ التنويع، وإنّما غاية التوافق بين الغاية التربوية والطبيعة البشرية وفيما يلي إشارات لجملة من تلك الوسائل:

أ. **الترغيــب والترهيــب**: إذا تأمّلنــا مجموع الآيــات التي ضمّــت الآداب والضوابط المتقدّمــة ظهرت لنــا مجموعة من إشــارات الترهيب والترغيب التــي تذيّل تلك الآيــات بحيث تعمل مجتمعةً على تحقيق منظومة متّزنة من الدوافع والموانع التي تدفــع الفرد المسلــم والمجتمع نحو السلوك المرغوب فيــه وتحجزه عن السلوك المرغوب عنه.

---

(1) راجع: سيد قطب إبراهيم حسين الشاربي، في ظلال القرآن، ج6، ص 3335 – 3337. (بتصرّف وتلخيص).

فعلى صعيد الترهيب تجد قوله تعالى: ﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾؛ تحذير وترهيب من عواقب الافتئات[1] على الله ورسوله ﷺ، وفي مقابل ذلك قوله تعالى ترغيباً في حال الملتزمين بأدب التوقّف بين يدي الرسول ﷺ: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

ب. **التذكير بنعمة الله وفضله:** وهذا التذكير بالفضل مدعاة الالتزام بالهدي الإلهي والوقوف عند توجيهاته، تأمّل على سبيل المثال، قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ فجعل العصيان والفسوق والكفر في مقابل نعمة الإيمان بحيث يُرغّب من استقر الإيمان في قلبه عن أن يجمع إليه من النقائض ما يكون كفراً بنعمة الله عزّ وجلّ.

ج. **عواقب عدم التزام هذه الآداب:** لقد جاءت الآيات في هذه السورة بجملة من التنبيهات على خطورة العواقب المترتّبة على ترك التزام منظومة الأخلاق القرآنية المعروضة، ففي سياق الأمر بالتثبُّت في الأخبار جاء التحذير من عاقبة الندم المترتّبة على التصرّف بغير علم وتثبُّت وتبيُّن، فقال تعالى: ﴿فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ﴾، وفي سياق النهي عن القبائح الاجتماعية - كالسخرية والتنابز واللمز- جاء التحذير من وقوع الظلم بين أفراد المجتمع نتيجة الاستهزاء بالغير والافتراء عليه ومبالغة الغير في الرد على تلك السخرية والافتراءات، فقال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ وهكذا...

د. **تنمية الوازع النفسي للالتزام بهذه الأخلاق:** إنّ أحداً لا يستطيع أن يفرض التزام مبدأ من المبادئ أو خلقاً من الأخلاق بقوةٍ خارجية أو سلطة قانون، فها

(1) افتأت عليه القولَ افتات، اختلقه، افتراه، رماه به كذبًا افتأت عليه الباطل ومن الكلمات القريبة إفتأت عليه الباطل: اختلقه. - إفتأت برأيه: انفرد واستبد به. إفْتِرَاء، تضْلِيل، تَزْيِيف، تَلْفِيق، كَذِب.

هــي الدول اليوم تعيش تحت سلطة قوانيــن وضعية ونظم قضائية وشرطة وقوات عسكريــة لكنّها لم تستطع أبداً أن تُحقّق أيّ التزام حقيقي بالأخلاق – إن صحّ أن يُسمّــى ما عندهــم أخلاقاً – ولهذا كان لا بدّ من حلّ هــذه الإشكالية في منظومة الأخــلاق الإسلامية، وليس أقدر علــى ذلك من قوله تعالى في ختام هذه السورة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾، إذ أنّ استشعــار هذه الرقابــة الدائمــة من الله عزّ وجــلّ كفيلٌ بتنمية الــوازع النفسي في كــلّ فردٍ بما يُحقّــق التزامــه بهذه الأخــلاق والآداب ولو كان في خلوة مــن الناس أو معزل عن بطش السلطان وقهر السلطة والقانون، وبهذا فقط تنضبط منظومة الأخلاق في المجتمع.

هـ . **تكرار النداء بقوله:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾: إنّ خطاب ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ قــد تكرّر في سورة الحُجرات خمس مرات وقد يكون هذا مؤشّر على أنّ كلّ قسم سبقه هذا الخطاب فهو دستور إلهي مستقلّ ينبغي مراعاته لضمان أمان المجتمع وصيانته من التحريف. وإنّ عدم الالتزام بهذه الدساتير الإلهية سيؤدّي إلى هدم أسوار الأمان وهذه النداءات هي التالية:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾. الآية الأولى.
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ﴾. من الآية الثانية إلى الآية الخامسة.
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾. من الآية السادسة إلى الآية العاشرة.

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾. الآية الحادية عشر.
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾. من الآية الثانية عشر إلى آخر السورة.

للمطالعة:

إذا تأمّلنا في القوانين الإلهية الواردة في سورة الحجرات سنجد أنّ عدم مراعاتها سيُحطّم سُور الأمان للمجتمع ويقضي على وحدته وتماسكه كما سنبيّن في طيات مباحث التفسير. ونشير إليها إجمالاً في الرسم التالي:

القوانين الإلهية	عدم مراعاتها يؤدي إلى:
التقدّم على الله وعلى رسوله، وعدم توقير واحترام القيادة.	تحطيم سُور القيادة وهي أداة نظم المجتمع ومرجعيته.
عدم الدقة في نقل الأخبار.	تحطيم بنية المجتمع وتفكيكه من خلال نشر الفوضى وبثّ الفتنة.
السخرية، واللمز، والتنابز.	تحطيم حرمة المؤمن.
سوء الظنّ، التجسُّس، الغيبة.	تحطيم العلاقات الاجتماعية والإنسانية.

1

الانقياد أساس العلاقة بالله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم

مفاهيم محورية:

- معنى التقدُّم على الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم.
- آراء المفسّرين في معنى التقدّم على الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم.
- صور وأشكال التقدّم على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.
- مصاديق من التقدّم على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في المجال التشريعي.
- الانضباط في رعاية الأدب مع القيادة.
- الدروس المستفادة من الآية.

النص القرآني

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾.

تمهيد

الآية الكريمة باختصار هي خطاب من الله تعالى للمؤمنين الذين اعترفوا بتوحيده وإخلاص عبادته وأقرّوا بنبوة نبيه محمد ﷺ ينهاهم أن يتقدّموا بين يدي النبيّ ﷺ بأن يفعلوا خلاف ما أمر به، أو يقولوا في الأحكام قبل أن يقول، أو يخالفوا أوقات العبادة، فإنّ جميع ذلك تقدُّم بين يديه، وأمرهم أن يتّقوا الله بأن يجتنبوا معاصيه ويفعلوا طاعاته ثم بيّن لهم الرقابة الإلهية التي تدعو إلى الرقابة الذاتية وهي قوله تعالى «**إن الله سميع**» لما يقولونه «**عليم**» بما ينطوون عليه ويضمرونه.

فالآية الكريمة تدريب للمؤمنين على أخلاقية الملائكة لأنّ هؤلاء لا يسبقون الله تعالى بقول ولا بأمر وهم بأمر الله تعالى يعملون، كما قال تعالى: ﴿لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ﴾. وهكذا ينبغي على المؤمنين أن يكونوا مجتمعاً منقاداً ومطيعاً للّه ورسوله. ولذا صدّرت السورة الكريمة بخطاب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ

ءَامَنُواْ ﴾ لبيان أنّ هذه السورة الكريمة جاءت لبيان معالم وأسس المجتمع الإيماني، أي تحقيق الأمن الذي أشرنا إليه.

شرح مفردات الآية

- **قدم**: بمعنى تقدّم مِنْ قَدَمَهُ إذا تقدّمه، كقوله تعالى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ﴾. ﴿لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي تتقدّموا، وقيل: «**لا تعجلوا بأمر ونهي قبله**»[1].

المعنى التفصيلي للآية

إنّ تصدير خطاب بعض الآيات بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ سواء في سورة الحجرات أم في غيرها من السور[2] يختزن دلالات عديدة أهمها:

1 - **أنّ النداء**: فيه تنبيه المخاطبين على أنّ ما في حيّزه أمر خطير يستدعي اعتناءهم بشأنه، وفرط اهتمامهم بتلقّيه ومراعاته.

2 - أنّ وصفهم بالإيمان لتنشيطهم، والإيذان بأنّه داع إلى المحافظة عليه ووازع عن الإخلال به. ثم بعد ذلك يأتي توصيفهم بأي وصف يتناسب مع مضمون الآية.

3 - بعد النداء والوصف بالإيمان جاء قوله تعالى: ﴿لَا تُقَدِّمُواْ﴾ أي: لا تفعلوا التقديم، على ترك المفعول للقصد إلى نفس الفعل من غير اعتبار تعلّقه بأمر من الأمور، على طريقة قولهم: فلان يُعطي ويمنع، أو: لا تقدّموا أموراً من الأمور، على حذف المفعول، للعموم. أو: يكون التقديم بمعنى التقدّم، من «**قدّم**» اللازم، ومنه: مقدّمة الجيش، للجماعة المتقدّمة.

---

(1) تفسير غريب القرآن، فخر الدين الطريحي، ص 516.

(2) هناك ثلاث سور قرآنية افتتحت بقوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ وتضمّنت الحديث عن المسائل والقضايا الحكومتية والاجتماعية والأخلاقية والتربوية وهي: المائدة، الحُجرات، الممتحنه.
ففي بداية سورة المائدة قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ﴾، وفي سورة الممتحنة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾. وفي هذه السورة« يا يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾.

آراء المفسّرين في معنى التقدُّم على الله ورسوله ﷺ:

هناك أقوال وآراء متعدّدة لتفسير التقدُّم:

منها: لا تعجلوا بالأمر والنهي دون الله ورسوله، ولا تقطعوا بالأمر والنهي دون الله ورسوله.

ومنها: أنّ المراد النهي عن التكلّم قبل رسول الله ﷺ أي إذا كنتم في مجلسه وسُئل عن شيء فلا تسبقوه بالجواب حتى يُجيب هو أولاً.

منها: لا تقدّموا أقوالكم وأفعالكم على قول النبي ﷺ وفعله ولا تمكّنوا أحداً يمشي أمامه.

والرأي الأرجح في تفسير التقدُّم على الله ورسوله هو النهي عن التقديم بين يدي رسول الله ﷺ فقط في هذه الوجوه الثلاثة الأخيرة مبني على حملهم ذكر الله تعالى مع رسوله في الآية على نوع من التشريف كقوله: أعجبني زيد وكرمه فيكون ذكره تعالى للإشارة إلى أنّ السبقة على النبي ﷺ على أي حال في معنى السبقة على الله سبحانه.

الظاهر في أنّ المراد بما بين يدي الله ورسوله هو المقام الذي يربط المؤمنين المتقين بالله ورسوله وهو مقام الحكم الذي يأخذون منه أحكامهم الاعتقادية والعملية.

وبذلك يظهر أنّ المراد بقوله: ﴿لَا تُقَدِّمُوا﴾ تقديم شيء ما من الحكم قِبال حكم الله ورسوله، إمّا بالاستباق إلى قول قبل أن يأخذوا القول فيه من الله ورسوله، أو إلى فعل قبل أن يتلقّوا الأمر به من الله ورسوله، لكن تذييله تعالى النهي بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يناسب تقديم القول دون تقديم الفعل ودون الأعم الشامل للقول والفعل وإلا لقيل: إنّ الله سميع بصير ليحاذي بالسميع القول وبالبصير الفعل، كما يأتي تعالى في كثير من موارد الفعل بمثل قوله: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، فمحصّل

المعنـى: أن لا تحكمـوا فيمـا لله ولرسوله فيه حكـم إلا بعد حكـم الله ورسوله أي لا تحكموا إلا بحكم الله ورسوله ولتكن عليكم سمة الاتباع والاقتفاء.

عموم دائرة الحكم:

لكـن بالنظر إلـى أنّ كلّ فعل وترك مـن الإنسان لا يخلو من حكـم له فيه وكذلك العـزم والإرادة إلى فعل أو تـرك يُدخل الأفعال والتروك وكـذا إرادتها والعزم عليها فـي حكم الاتبـاع، ويفيد النهي عن التقديم بين يدي الله ورسوله النهي عن المبادرة والإقدام إلى قول لم يسمع من الله ورسوله، وإلى فعل أو ترك أو عزم وإرادة بالنسبة إلى شيء منهما قبل تلقّي الحكم من الله ورسوله. فتكون الآية قريبة المعنى من قوله تعالى في صفـة الملائكة: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾.

وهذا الاتباع المندوب إليه بقوله: ﴿لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ هو الدخول في ولايـة الله والوقوف في موقـف العبودية والسير في مسيرها بجعل العبد مشيته تابعة لمشية الله في مرحلة التشريع كما أنها تابعة لها في مرحلة التكوين قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾، وقال: ﴿وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وقال: ﴿وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

فـاللّه تَعَالى يُـؤَدِّبُ في هـذِهِ الآيَةِ عِبَـادَهُ المُؤْمنيـنَ، وَيُعَلِّمُهُـمْ أُصُـولَ مُخَاطَبَةِ الرَّسُولِ ﷺ والتَّعَامُلِ مَعَهُ، وَتَوْفِيَته حَقَّهُ مِنَ التَّوقِيرِ والاحْتِرَام. فَيَقُولُ لِلْمُؤْمنين: «لا تُسْرِعُوا في القَضَاءِ في أمْرٍ قَبْلَ أن يَقْضِيَ لَكُم فِيهِ اللّه وَرَسُولُهُ، وَكُونُوا تَبَعاً لِقَضَائِهِما وَأمْرِهمـا، وَلاَ تَتَكَلَّمُـوا في أمْرٍ قَبْلَ أنْ يَأتِيَ الرَّسولُ عَلَى الكَـلام فِيهِ، وَلا تَفْعَلُوا فِعْلاً قَبْـلَ أنْ يَفْعَلَهُ الرَّسُولُ، واتَّقُوا اللّه يَا أيُّها المُؤْمِنُونَ، فَإِنَّهُ سَمِيعٌ لما تَقُولُونَ، عَلِيمٌ بِمَا تَفْعَلُونَ»[1].

---

(1) راجع: تفسير الميزان، محمد حسين الطباطبائي، ج18، ص 307. (بتصرف).

صور وأشكال التقدُّم على رسول الله ﷺ:

إنّ التقدّم على رسول الله ﷺ بأيّ معنى أُخذ قد يُلحظ ببعدين:

- البعد الأدبي الأخلاقي.
- البعد القانوني التشريعي.

والداعي لهذا التقسيم هو شخص النبي الكريم ﷺ لأنّه تارة نلحظ الشخصية المباركة لرسول الله ﷺ، فإنّ للكلام معه، وللأكل، وللمشي ولأي حركة معه آداب لا بد من مراعاتها. وعلى كل حال الجنبة الأدبية والأخلاقية هي نوع من التقنين الأدبي في العلاقة معه ﷺ. فالله تعالى يريد أن يأدّب عباده بضرورة مراعاة الأدب مع رسوله، وهي بالتالي مراعاة أدب مع الله تعالى في كل ملاقاة وعلاقة معه فلمجلسه خصوصية وقدسية ولكلامه ومنامه وخلوته وكل ما يتّصل بوجوده المبارك.

وتارة نلحظ ما يصدر منه ببعده التشريعي ونحن نعلم أنّ قول وفعل وتقرير النبي ﷺ حجّة وكاشف عن مراد ورضا الله تعالى بلا زيادة ولا نقيصة. وفي هذا البعد التشريعي لا يجوز التقدّم على رسول الله ﷺ بأيّ شكل من الأشكال ولو على نحو اقتراح تشريعي لأنّ أحكام وقوانين السماء تصل إلينا بطريقين:

الأول: كتاب الله تعالى: وهنا لا يحقّ لنا تغيير حرف واحد من حروف الأحكام القرآنية فضلاً عن الحكم ككل.

الثاني: السنة النبوية الشريفة: وهي قوله وفعله وتقريره. وهذه السنة تُبيّن وتشرح القرآن الكريم أيضاً ولها نفس حكم القرآن من ناحية عدم جواز تحريفها وتبديلها وما شابه ذلك.

قال تعالى في شأن نبيه ﷺ: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾[1]. وفي آية أخرى: ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾[2]. وفي آية ثالثة: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾[3]. إلى غيرها من الآيات الشريفة.

إنّ تكليف المسلمين تجاه هذه الجنبة القانونية والتشريعية هو التسليم والانقياد المطلق لأوامر الله ورسوله ولا يحقّ لهم أيّ تدخّل على الإطلاق.

بحث حول الآية

مصاديق من التقدُّم على رسول الله في المجال التشريعي:

1. **البدعة في الدين:** البدعة في الدين من المعاصي الكبيرة والمحرّمات العظيمة، التي دلّ على حرمتها الكتاب والسنّة، كما وأُوعِد صاحبُها النار على لسان النبيّ الأكرم ﷺ، وذلك لأنّ المبتدع ينازع سلطان الله تبارك وتعالى في التشريع والتقنين، ويتدخّل في دينه ويُشرِّع ما لم يُشرِّعه، فيزيد عليه شيئاً وينقص منه شيئاً في مجالي العقيدة والشريعة، كلّ ذلك افتراء على الله.

وهناك تعاريف متعدّدة للبدعة نذكر منها[4]:

قال السيد المرتضى (رض): «البدعة: الزيادة في الدين أو نقصان منه من إسناد إلى الدين».

---

(1) سورة النجم، الآيتان 3- 4.

(2) سورة الحشر، الآية 7.

(3) سورة الأحزاب، الآية 21.

(4) من هذه الكتب: البدع والنهي عنها، لابن وضّاح القرطبي،الحوادث والبدع، للطرطوشي، الاعتصام، لأبي إسحاق الشاطبي الغرناطي في جزءين وقد أسهبَ الكلام فيها، البدعة أنواعها وأحكامها، لصالح بن فوزان بن عبد الله فوزان طبع الرياض، البدعة تحديدها وموقف الإسلام منها، تأليف الدكتور عبد الملك السعدي طبع بغداد، البدعة في مفهومها الإسلامي الدقيق، تأليف الدكتور عبد الملك السعدي طبع بغداد، البدع المحدثة، للشريف أبو القاسم الكوفي المتوفّى بفسا سنة 352 هـ وطبع باسم الاستغاثة، في النجف الأشرف،البدع، تأليف الدكتور الشيخ جعفر الباقري، وهي دراسة موضوعية لمفهوم البدعة وتطبيقاتها على ضوء منهج أهل البيت.

وقال العلّامة المجلسي(رض): «البدعة في الشرع: ما حدث بعد الرسول ولم يرد فيه نصّ على الخصوص، ولا يكون داخلاً في بعض العمومات، أو ورد نهي عنه خصوصاً أو عموماً فلا تشمل البدعة ما دخل في العمومات مثل بناء المدارس وأمثالها، الداخلة في عمومات إيواء المؤمنين وإسكانهم وإعانتهم، وكإنشاء بعض الكتب العلمية، والتصانيف التي لها مدخل في العلوم الشرعية، وكالألبسة التي لم تكن في عهد الرسول ﷺ والأطعمة المحدثة؛ فإنّها داخلة في عمومات الحليّة، ولم يرد فيها نهي. وما يُفعل منها على وجه العموم إذا قصد كونها مطلوبة على الخصوص كان بدعة... وبالجملة إحداث أمر في الشريعة لم يرد فيه نصّ بدعة، سواء كانت أصلها مبتدعة أو خصوصيتها مبتدعة» ثمّ ذكر كلام الشهيد عن قواعده. وعلى كل حال مقوّم البدعة هو التصرّف في الدين عقيدة وتشريعاً؛ بإدخال ما لم يعلم أنّه من الدين فيه، فضلاً عمّا علم أنّه ليس منه قطعاً. وتشمل البدعة صورة النقص كحذف شيء من أجزاء الفرائض[1].

2. **القياس والاستحسان:** القياس المراد هنا هو التمثيل في مصطلح علماء المنطق «التمثيل هو: أن ينتقل الذهن من حكم أحد الشيئين إلى الحكم على الآخر لجهة مشتركة بينهما. وبعبارة أخرى هو: إثبات الحكم في جزئي لثبوته في جزئي آخر مشابه له. والتمثيل هو المسمّى في عرف الفقهاء بـ «القياس» ويرفض الإمامية حجيته والاعتماد عليه في فهم الشريعة.

مثاله: «إذا ثبت عندنا أنّ النبيذ يشابه الخمر في تأثير السكر على شاربه، وقد ثبت عندنا أنّ حكم الخمر هو الحرمة، فلنا أن نستنبط أن النبيذ أيضاً حرام، أو على الأقل محتمل الحرمة، للاشتراك بينهما في جهة الإسكار» [2].

---

(1) راجع: البدعة وآثارها الموبقة،جعفر السبحاني، ص 18-26. (بتصرف).

(2) المنطق، محمد رضا المظفر، التمثيل تعريفه، ص 315.

3. **الفتوى من دون فحص:** إنّ الفتوى من دون فحص كامل في الكتاب والروايات الشريفة، وتحقيق في المباني الفقهية هو نوع من التقدُّم على الله ورسوله.«لا بد للمجتهد في مقام الاستنباط، وتشخيص وظيفته ووظيفة العامي، من استفراغ الوسع في الفحص عن الأدلة، والمعارضات، والقرائن الدخيلة في تعيين مفاد الدليل. وليس له الاكتفاء بما وصل له من الأدلة، فضلاً عن الرجوع للأصل من دون فحص عن الدليل لو لم يطلع عليه...» [1].

4. **توهين الأحكام الدينية:** من معاني الاستخفاف لغةً: الاستهانة، يقال: استخفّ به إذا استهان به وأهانه، واستخفّه خلاف استثقله أي رآه خفيفاً، كما قد يكون الاستخفاف بمعنى التهاون. ولا يخرج الاستعمال الفقهي عن ذلك. وقد يعبّر عن الاستخفاف – بالمعنى الأوّل– بالاستحقار والاحتقار والانتقاص والازدراء.

والاستخفاف له صور متعدّدة والمراد به هنا الاستخفاف بالدين والأحكام الدينية ونذكر نموذجاً قد يوضح الموضوع.

عن جابر، عن أبي جعفر عليه السلام قال: أتاه رجل فقال: وقعت فأرة في خابية فيها سمن، أو زيت، فما ترى في أكله؟ قال: فقال له أبو جعفر عليه السلام: لا تأكله، فقال له الرجل؟ الفأرة أهون عليّ من أن أترك طعامي من أجلها قال: فقال له أبو جعفر عليه السلام: إنّك لم تستخف بالفأرة، وإنّما استخففت بدينك، إنّ الله حرّم الميتة من كلّ شيء[2].

5. **اتباع الذوق لا الشريعة:** (العبادة نموذجاً). على الإنسان أن يتّبع ما تمليه وتأمر به الشريعة في كل خطواته ولا يتقدّم عليها حتى في تنفيذ الأوامر والبرامج الإلهية، فالشريعة كلٌّ متكامل تراعي كل الجوانب الاجتماعية في تشريعاتها فلا

(1) الكافي في اصول الفقه، ج2، محمد سعيد الحكيم، خاتمة في وجوب الفحص، ص 671.

(2) وسائل الشيعة (آل البيت)، الحر العاملي، ج1، باب نجاسة المضاف بملاقاة النجاسة وإن كان كثيرا...، ص 206.

يحقّ للمؤمن وبحجة توافقه النفسي مع العبادة أن ينعزل عن المجتمع ويتعبّد ويترك عيلولة عياله فهذا النوع من العبادة هو نوع من التقدُّم على الله ورسوله.

وفي نهج البلاغة قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «**وطَلَباً فِي حَلَالٍ - ونَشَاطاً فِي هُدًى - وتَحَرُّجاً عَنْ طَمَعٍ**»[1].

لعلّ الهدف من إيراد هذا الكلام من الإمام سواء بعض الروايات المنقولة عنه أم ما ورد في النهج هو دفع توهّم قد يرد في ذهن القارئ عندما يراجع كلام الإمام وخصوصاً عند مطالعة الفقرات السابقة لهذا الكلام حيث ركّز أمير المؤمنين عليه السلام على أوصاف المتقين المرتبطة بعبادتهم وهي كونهم أهل عبادة في الليل والنهار وأجسامهم نحيفة وحوائجهم خفيفة وأنفسهم عفيفة إلى آخر المواصفات، واذا نظر إليه الناظر يحسبهم مرضى، فقد يُظنّ أنّ ذهنهم مشغول بالعبادة وهمّهم الذكر ولا طاقة لهم على الكسب والعيش باعتبار أنّ طاقتهم تلاشت في الذكر والعبادة وما شاكل ذلك، وعليه سيكون تأمين حياتهم من قِبَل غيرهم، والإمام كأنه أراد دفع هذا الدخل المقدّر وهو أنّ شيعته أصحاب همّة ونشاط وفعالية في الحياة الاجتماعية، وأصحاب كسب حلال سواء كانوا تجاراً أم كسبة، على أنّ ما يُميّزهم عن أهل الدنيا أنّهم لا يطمعون فيها كما هو حال الناس العاديين.

على كلّ حال الإمام عليه السلام سواء في حياته العملية أم في خطبه ومواعظه يرفض رفضاً باتاً الرهبنة والتنسُّك بمعنى الابتعاد عن العمل والحياة الاجتماعية، وأن يُصبح الإنسان عالة على الآخرين أي يعتمد على غيره فيما يحتاج إليه من طعام وكساء وغيرهما متطفِّلاً عليهم. كما هو حال بعض المتصوّفة. فقد ورد في نهج البلاغة كلاماً يبيّن هذه الحقيقة قال عليه السلام مخاطباً «**العلاء بن زياد الحارثي وهو من أصحابه - يعوده، فلما رأى سعة داره قال: مَا كُنْتَ تَصْنَعُ بِسِعَةِ هَذِه الدَّارِ فِي**

(1) نهج البلاغة، الخطبة 193.

الدُّنْيَا - وأَنْتَ إِلَيْهَا فِي الآخِرَةِ كُنْتَ أَحْوَجَ - وبَلَى إِنْ شِئْتَ بَلَغْتَ بِهَا الآخِرَةَ - تَقْرِي فِيهَا الضَّيْفَ وتَصِلُ فِيهَا الرَّحِمَ - وتُطْلِعُ مِنْهَا الْحُقُوقَ مَطَالِعَهَا - فَإِذاً أَنْتَ قَدْ بَلَغْتَ بِهَا الآخِرَةَ - فَقَالَ لَه الْعَلَاءُ - يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَشْكُو إِلَيْكَ أَخِي عَاصِمَ بْنَ زِيَادٍ - قَالَ ومَا لَه - قَالَ لَبِسَ الْعَبَاءَةَ وتَخَلَّى عَنِ الدُّنْيَا - قَالَ عَلَيَّ بِه فَلَمَّا جَاءَ قَالَ - يَا عُدَيَّ نَفْسِه لَقَدِ اسْتَهَامَ بِكَ الْخَبِيثُ - أَمَا رَحِمْتَ أَهْلَكَ ووَلَدَكَ - أَتَرَى اللَّه أَحَلَّ لَكَ الطَّيِّبَاتِ وهُوَ يَكْرَه أَنْ تَأْخُذَهَا - أَنْتَ أَهْوَنُ عَلَى اللَّه مِنْ ذَلِكَ - قَالَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ - هَذَا أَنْتَ فِي خُشُونَةِ مَلْبَسِكَ وجُشُوبَةِ مَأْكَلِكَ - قَالَ... إِنِّي لَسْتُ كَأَنْتَ - إِنَّ اللَّه تَعَالَى فَرَضَ عَلَى أَئِمَّةِ - الْعَدْلِ أَنْ يُقَدِّرُوا أَنْفُسَهُمْ بِضَعَفَةِ النَّاسِ - كَيْلَا يَتَبَيَّغَ بِالْفَقِيرِ فَقْرُه»[1].

«ففي هذه القصة نرى الإمام عليه السلام يلوم العلاء على سعة داره، ويتّخذ لومه سبيلاً إلى بيان وجوه الانتفاع بها، فيشير إلى أنّه لا حرج على المرء في أن يجمع بين الدنيا والآخرة، فيُمتّع نفسه في الدنيا بمباهجها، ويبلغ في الآخرة عليا الدرجات.

ثم يؤنّب عاصماً على فعله حين هجر الدنيا ولبس العباءة، فبيّن له أنّه بفعله هذا أناني يعمل لنفسه، إذ أنّ جدوى عمله لو استطاعه وولاه لا ترجع إلا إليه، وأما غيره من الناس فلا يصيب منه نفعاً وخاصة أهله وولده وهم ألصق الناس به، وبيّن أنّ من الخير له أن يجمع بين العمل لنفسه والعمل لغيره، وأن يجمع بين الدنيا والآخرة. والطيّبات.؟ هل حرّمها الله؟ كلا إنّ الانسان مدعوّ لأن يُصيب منها شريطة ألا يستغرق فيها على نحو يُلهيه عن الغاية الرفيعة لوجوده.فلا حرج على الإنسان أن يطلب الدنيا ويسعى إليها ويُصيب من لذّاتها، ولكن عليه أن يطلب الدنيا من طريق الحلال، ويصيب من لذّتها ما يحلّ ويجمل، ثم لا يتهالك على الدنيا ولذّاتها على نحو غير إنساني، بحيث ينقلب من إنسان ذي مشاعر نبيلة، وإمكانات رفيعة عالية

(1) نهج البلاغة (تحقيق صالح)، 209 ومن كلام له عليه السلام بالبصرة - وقد دخل على العلاء بن زياد الحارثي، ص 325.

إلى مجرّد آلة. آلة لجمع النقود وتكديسها، لتنفق في وجوه غير إنسانية. إنّ هذا ليس جديراً بالانسان أن يفعله، أَجمِلْ في الطلب لتُعطي لنفسك حقّها ولربّك حقّه»[1].

«والحاصل أنّ ترك الدنيا بالكلّيّة ليس هو مطلوب الشارع من الزهد فيها والتخلّي عنها لأنّ الشارع يراعى نظام العالم باشتراك الخلق في عمارة الدنيا وتعاونهم على المصالح بقاء النوع الإنسانيّ وترك الدنيا وإهمالها بالكلّيّة يُعدم ذلك النظام ويُنافيه بل الّذي يأمر به الشارع القصد في الدنيا واستعمال متاعها على القوانين الّتي وردت بها الرسل والوقوف فيها عند الحدود المضروبة في شرايعهم دون تعدّيها، كما أشار إليه عليه السلام من منع هذا الرجل ....، فأمّا اعتراض عاصم على عليّ عليه السلام في نهيه له، فحاصله أنّه قاس نفسه في ترك الدنيا عليه، وتقديره إنّك إذا نهيتني عن ذلك فكيف بك: أي فكيف بما أرى من هذه الحال وأنت المقتدى به، أو فكيف أصنع بك مع الحال الّتي أنت عليها، وإنّما ينبغي لي أن أقتدي بك، فأجابه عليه السلام بجواب إقناعيّ بيّن فيه الفرق بينه وبينه، وهو إنّي إنّما فعلت ذلك لكوني إماماً وكلّ إمام فرض الله عليه أن يُقدّر نفسه بضعفة الناس: أي ليسويّها بهم في حالهم كيلا يهيّج بالفقير فقره فيضعف عن حلمه فيكفر أو يفسق، وقد كان عليه السلام قبل الخلافة كذلك، والجواب المحقّق هو ما قلناه من كون هذه الطريق أسلم، وأمّا الفرق بينهما فيرجع إلى أنّ عاصماً سلك على غير علم بكيفيّة السلوك مع ترك الحقوق الّتي تلزمه لأهله وولده فكانت حالة الّتي فارقها أولى به»[2].

(1) دراسات في نهج البلاغة، محمد مهدي شمس الدين، موقف الإمام من العمل للدنيا موقفة من الفقر، ص 232.
(2) شرح نهج البلاغة، ابن ميثم البحراني، ج4، ص 19.

تأمّلات حول الآية

رعاية الأدب مع القيادة:

الآيــة تُبيّن أنّ الذي يتقدّم الله ورسوله يوجد الخلل والاضطراب في المجتمع. وأنّ الأمــن والأمــان في المجتمع يكون في ظـلّ الطاعة والانقياد المطلـق للقيادة الإلهية. لأنّ في علم الإدارة يُقال؛ إنّ مسألة المديرية لا تتم بدون رعاية الانضباط، وإذا أُريد للناس العمل تحت مديرية وقيادة - حسب رغبتهم، فإنّ اتساق الأعمال سينعدم عندئذ وإن كـان المديرون والقــادة جديرين. وكثير من الأحـداث والنواقص التي نلاحظها تحــدث عــن هذا الطريق، فكم من هزيمة أصابت جيشاً قويــاً أو نقصاً حدث في أمر يهمّ جماعة وما إلى ذلك كان سببه ما ذكرناه آنفاً... ولقد ذاق المسلمون أيضاً مرارة مخالفــة هــذه التعاليم مــراراً في عهد النبــي ﷺ أو بعده، ومن أوضــح الأمور قصة هزيمة المسلمين في معركة أحد لعدم الانضباط من قبل جماعة قليلة من المقاتلين.

والقــرآن يثير هــذه المسألة المهمة في عبــارة موجزة في الآية الآنفــة وبأسلوب جامع طريف إذ يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾[1].

فالقيــادة لها خصوصياتها فلا بد من رعاية تلك الخصوصيات والتأدُّب معها بما يتناســب مع موقــع تلك القيادة فإنّ مسؤولية انضبــاط السائرين إزاء القادة وخاصة إزاء القادة الإلهيين تقتضي ألّا يتقدّموا عليهم في أي عمل وقول ولا يعجل أحد عندهم.

وبالطبــع فــإنّ هذا الكلام لا يعني بأنّه لا يجوز لهم أن يتشاوروا مع النّبي ﷺ إذا كــان لديهم شيء يجدر بيانــه، بل المراد منه ألّا يعجلوا ويبــادروا بالتصميم قبل أن يوافــق النّبــي على ذلك! حتى أنّه لا ينبغي أن تُثار أسئلة ومناقشات أكثر ممّا يلزم في شــأن المسائل، بل ينبغي أن يتــرك الأمر للقائد نفسه أن يُبيّن المسائل في حينها، لا سيمــا إذا كان القائد معصومــاً الذي لا يغفل عن أي شيء! كما أنّه لو سئل المعصوم

(1) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ناصر مكارم الشيرازي، ج16، ص 521.

أيضـاً، لا يحـقّ للآخرين أن يجيبوا السائل قبل أن يردّ عليه المعصوم، وفي الحقيقة إنّ الآية جمعت كلّ هذه المعاني في طيّها.

الدروس المستفادة من الآية

- لأجـل تطبيق الأوامر الإلهية في المجتمع لا بد من إيجاد حالة من الاستعداد الروحـي والنفسي في النـاسـ لتقبل ذلـك ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ تحقيق حالة الإيمان في الفرد والمجتمع.
- إنّ عدم التقدُّم على الله ورسوله هو نوع من الأدب الراقي.
- تحليل الحرام وتحريم الحلال، من التقدُّم على الله ورسوله.
- البدع، والوضـع والتزوير والتحريف، والمبالغـات وإدخال ما ليس من الدين فيه باسم الدين... هذا كله من التقدّم على الله ورسوله.
- مبـادئ فقهنا وسلوكنا ومفاهيمنا الحياتية يجب أن تؤخذ من القرآن الكريم وسنة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته عليهم السلام.
- التجاوز على أوامر الله ورسوله هو نوع من عدم التقوى.
- الحرية الخاطئة وتجاوز حقوق الآخرين هو من التقدُّم على الله ورسوله.
- لأداء الواجبات يحتاج الإنسان إلى أمرين مهمّين: الإيمان والتقوى.
- الالتـزام العملي بأوامر الله ورسوله يجب أن يكـون متضمّناً للتقوى الداخلية (السلوك يُعبّر عن الباطن). لَا تُقَدِّمُوا... وَاتَّقُوا اللَّهَ.
- الأشخاص الذين يُفضّلون عاداتهـم وأعرافهم الاجتماعيـة على أوامر الله ورسوله هم بعيدون عن الإيمان والتقوى.
- يجـب على المجتمـع الإيماني نبذ التطرُّف والانقياد للقيـادة الإلهية لأنّ الله تعالى ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿لَا تُقَدِّمُواْ ... إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

﴾ **للمطالعة:**

نماذج تاريخية من التقدّم على رسول اللّٰه ﷺ

- حين تحرّك النّبي ﷺ لفتح مكّة في السنة الثامنة للهجرة كان ذلك في شهر رمضـان وكان معـه جماعة كثيرة، منهـم الفرسان ومنهم المشـاة، ولمّا بلغ (منزل) كراع الغميم أمر بإناء ماء، فتناول منه الرّسول وأفطر ثمّ أفطر من كان معه، إلاّ أنّ العجيب أنّ جماعة منهم« **تقدّم على النّبي**» ولم يوافقوا على الإفطار وبقوا صائمين فسمّاهم النّبي ﷺ بالعُصاة».
- ما حدث في حجّة الوداع في السنة العاشرة للهجرة حيث أمر النبيّ أن يُنادي المنادي:«**مـن لـم يسق منكم هدياً فليحلّ وليجعلها عمرة، ومن ساق منكم هدياً فليقم على إحرامه**» ثمّ يؤدّي مناسك الحج وأنّ من جاء بالهدي (وحجّه حجّ إفراد) فعليه أن يبقى على إحرامه... ثمّ قال ﷺ: «**لولا أنّي سقت الهدي لأحللـت، وجعلتهـا عمـرةً، فمن لم يسـق هديـاً فليحـلّ**». إلاّ أنّ جماعة أبوا وقالوا كيف يمكننا أن نحل وما يزال النّبي ﷺ محرماً أليس قبيحاً أن نمضي للحج بعد أداء العمرة ويسيل منّا ماء الغسل من الجنابة. فساء النّبي ما قالوا ووبّخهم ولامهم.

2

آداب مخاطبة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بين الحبط والتقوى

مفاهيم محورية:

- الحبط في القرآن.
- العمل بين الحبط والتقوى.
- الذنوب الموجبة لحبط الأعمال في القرآن.
- معنى امتحن الله قلوبهم.
- فئات المجتمع الإسلامي بحسب الآية.
- الدروس المستفادة من الآية.

النص القرآني

قــال الله تعالــى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٢) إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾[1].

تمهيد

القــرآن الكريــم يكشف لنا في هذه الآيــة وفي غيرها أنّ هنــاك مجموعة أسلموا وآمنــوا بالله وبالرســول صلى الله عليه وآله وسلم، لكنّهم لــم يدركوا قداســة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ومــدى دائرة وجــوب طاعتــه، إذ كانــوا يعاملونه فــي بعض الأحيــان كــأدون النــاس شأنــاً، وكانوا يعارضونــه ويعترضون عليــه ويرفعون أصواتهم فوق صوته، وقــد عالج القرآن أمثال هــذه السلوكيــات الخطيــرة ومنها مــا ورد في الآيــة المباركــة وفيها تصريــح أنّهم آمنــوا بــالله ورسوله ولكنّهــم كانوا يرفعــون أصواتهم في محضــر النبي صلى الله عليه وآله وسلم وكانوا ينادونــه بما يكشــف عن أنّهم كانوا لا يلتزمون بما يقتضيه شــأن النبوة، ولا يعتبرون النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلا شخصاً عادياً مثلهم، فلا حاجة إذن ولا ضرورة للتعبُّد بما يقوله النبي صلى الله عليه وآله وسلم

---

(1) سورة الحجرات، الآيتان: 2-3.

كنبي، وهذا ما أوجب التهديد لهم بالإحباط لأعمالهم[1]. بخلاف من يعتقد برسالته ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ﴾.

فإن الآية الكريمة تنهى المؤمنين بالله ورسوله أن يرفعوا أصواتهم فوق صوت النبي ﷺ، وذلك عند مخاطبته وتكليمه ﷺ وأن يكون صوتهم أرفع من صوته وأجهر، لأنّ في ذلك كما قيل أحد شيئين: إما نوع استخفاف به وهو الكفر، وإما إساءة الأدب بالنسبة إلى مقامه وهو خلاف التعظيم والتوقير المأمور به وهو موجب لحبط العمل.

شرح مفردات الآيات

- **الجهر**: الجهر هو ظهور الصوت بقوة الاعتماد ومنه الجهارة في المنطق وجاهر بالأمر مجاهرة ويقال جهاراً ونقيض الجهر الهمس»[2].
- **الغض**: الحطّ من منزلة على وجه التصغير له بحالة، يقال: غض فلان عن فلان إذا ضعف حاله عن حال من هو أرفع منه، وغضّ بصره إذا ضعف عن حدّة النظر، وغضّ صوته إذا ضعُف عن الجهر[3].«هو كفّ في خفض. ومن مصاديقه: الكفّ مع خفض في الصوت، وفي النظر، وغير ذلك...»[4].
- **الحبط**: هو السقوط مع المحو، كما أنّ الحطّ والحتّ معناهما السقوط المطلق، والبطلان ما كان على خلاف شرائط الصحّة وخصوصيّاتها وهو في مقابل الحقّ. والهدر ما لم يكن له نتيجة ولا عائدة. والفساد ما يكون فاقداً لشرط الصحّة حتّى يفسد[5].

---

(1) راجع: وضوء النبي، علي الشهرستاني، ج2، ص15.
(2) تفسير غريب القرآن، فخر الدين الطريحي، ص 232.
(3) التبيان في تفسير القرآن، محمد بن الحسن الطوسي، ج9، ص 341.
(4) التحقيق في كلمات القرآن الكريم، حسن المصطفوي، ج7، ص 235.
(5) التحقيق في كلمات القرآن الكريم، حسن المصطفوي، ج2، ص 159.

المعنى التفصيلي

الآية الكريمة هـي استمرار للسورة في تحديد النهج السلوكي الأدبي الأخلاقي مـع القيـادة، فتثير نقطـةً أخرى حين تمنع عـن واحد من سلبيـات التخاطب بين النـاس، فضلاً عن سلبيته إذا كان تخاطباً مع القيـادة.. فكيف إذا تمثّلت القيادة بالرسول ﷺ.

وهنـا تُكرّر الآية النداء ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾.. من خلال إثارة النزعة الإيمانية.. التـي يحملها المسلم فـي داخله لتوحي له بضـرورة التزامه بمستلزمـات الإيمان.. التي مـن ضروراتها حسن التعامل مع القيادة.. والتخاطـب معها بالأسلوب المهذّب الهادئ.. بل التخاطب مع الناس بشكل عام.. إذ أنّ القرآن يُشدّد في بعض المواضع.. علـى التزام الأسلوب الهادئ في التعامل والتخاطب.. لأنّ رفع الصوت.. من تأثيرات حالـة العنف التـي يعيشهـا المتكلّم غالبـاً.. وهي حالـة يرفضها الإسـلام.. كخُلق وطريقـة حياة.. حتى عندما يواجـه الإنسان أخطاء الآخرين معـه.. وإساءتهم له.. ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ٱلسَّيِّئَةَۚ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾[1]، فالإسـلام أراد للإنسـان أن يكـون موضوعياً في تفكيره.. وفـي معالجته للقضايا مـع الآخرين.. انطلاقاً من أنّ هـدوء الأسلـوب.. أقـرب لإقناع الخصم.. بالـرأي المطلوب إيصالـه.. والفكرة المطلـوب تبنّيها والدفاع عنها.. ثم إنّ العنف في أكثر الأحيان.. يُثير العنف المقابل لدى الآخرين. وفضلاً عـن كونه أسلوباً مؤذياً.. وانطلاقاً من هذا.. نهى القرآن عن رفع الصوت.. وأعطاه الصورة المقيتة، حين ذكر على لسان لقمان ما يعظ به ولده.. ﴿وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ﴾[2].

(1) سورة المؤمنون، الآية 96.

(2) سورة لقمان، الآية 19.

إنّ خفض الصوت من آثار حالة الرفق التي يدعو إليها الإسلام.. كما جاء عن رسول الله ﷺ عَنْ زُرَارَةَ عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام قَالَ: «**قَالَ رَسُولُ الله ﷺ إِنَّ الرِّفْقَ لَمْ يُوضَعْ عَلَى شَيْءٍ إِلَّا زَانَه ولَا نُزِعَ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانَه**»[1]. وعَنْ جَابِرٍ عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام قَالَ: «**قَالَ رَسُولُ الله ﷺ لَوْ كَانَ الرِّفْقُ خَلْقاً يُرَى مَا كَانَ مِمَّا خَلَقَ الله شَيْءٌ أَحْسَنَ مِنْه**» [2].

المهم.. أنّ الآية تشير إلى جانب آخر من حالات الأدب مع الرسول ﷺ ومع القيادة الإسلامية الشرعية فتفرض التعامل بأسلوب الاحترام والأدب إذ لا بد من حفظ حرمة القيادة.. ليكون لها تأثيرها في الوسط الشخصي والاجتماعي.. فلا يتم التعامل معها.. بأسلوب التعالي عليها ولو من خلال رفع الصوت.. بالطريقة التي يتعامل بها الإنسان مع أمثاله ونظرائه من حيث الموقع الاجتماعي أو العلمي.. ﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾.

كما أنّ الأسلوب الخارجي للتعامل.. يعكس حالة التأثّر النفسي بالقضية أو بصاحب القضية فإنّ من مؤشّرات التقديس والتعظيم والاحترام للشخص.. غضّ الصوت والتزام جانب الهدوء واللياقة في حضرته.. ثم إنّه من الطبيعي.. أنّ تقديس الرسالة.. ينعكس عفوياً.. تقديساً للرسول، وتقديسه النفسي لا بد أن ينطبع على السلوك والتعامل الخارجي معه.

ثم تشير الآية إلى نقطة أخرى..حين تحذّر من إهدار قيمة العمل الذي قدّمه الإنسان بسوء التعامل مع القيادة المتمثّلة بالرسول ﷺ.. وبعدم التزام هذا الجانب الأدبي وحين تحذّر من إحباط وإبطال الأجر والحسنات التي اكتسبها الفرد من خلال عمله الإيماني المتقدّم فتقول: ﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ أي

---

(1) الكافي، الكليني، ج2، باب الرفق، ح6، ص 119.
(2) الكافي، الكليني، ج2، باب الرفق، ح13، ص 120.

كراهــة أن تحبــط، لكي لا تحبط، والحبوط هو البطــلان والإِسقاط الذي قد يحصل دون شعور من الإِنسان ممّا يعني تضييع الأجر والحسنات التي يحتاجها عندما يواجه حساب الله سبحانه[1].

إمتحان القلوب:

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾ نقاط ينبغي الالتفات إليها، منها:

- «**امتحن**» مشتقّة من الامتحان، والأصل في استعمالها إذابة الذهب وتطهيره من غير الخالص، كما أنّها تستعمل في بسط الجلد المعدّ للدّبغ، ثمّ استعملت بعدئذٍ فــي مطلق الاختبار كما هي الحال بالنسبة للآية محل البحث، ونتيجة ذلــك خلوص القلب وبسطه لقبول التقــوى... وهدف الامتحان والاختبار إنّما يكون لتحصيل العلم بحال الشيء المجهول قبل ذلك، وهذا المعنى مستحيل فــي حقّه تعالى فالمراد به هنا التمريــن والتعويد -كما قيل- أو حمل المحنة والمشقّة على القلب ليعتاد بالتقوى.
- ونكّرت كلمة «**مغفرة**» للتعظيم والأهمية... أي إنّ الله يجعل نصيبهم المغفرة الكبرى والتامة، وبعد تطهيرهم من الذنب يرزقهم الأجر العظيم، لأنّه لا بدّ من التطهير من الذنب أولاً، ثمّ الانتفاع من الأجر العظيم من قِبل الله..[2]
- الآية مسوقة للوعد الجميل على غضّ الصوت عند رسول الله ﷺ بعد توصيفهم

---

(1) والمعروف بين الفقهاء من الفريقين، وبين المفسّرين والمحدّثين، أنَّ رفع الصوت مُحرَّم في محضر الرسول حياً وميتاً، فكما لا يجوز للمؤمن أن يرفع صوته في محضر الرسول ﷺ وهو حي، كذلك لا يجوز له أن يرفع صوته عند قبر الرسول ﷺ، فالحكم بالحرمة ثابت في حياته ومماته على حدٍّ سواء.

(2) راجع: الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ناصر مكارم الشيرازي، ج16، ص 514.

بأنّ قلوبهم ممتحنة للتقوى والذي امتحنهم لذلك هو الله سبحانه، وفيه تأكيد وتقوية لمضمون الآية السابقة وتشويق للانتهاء بما فيها من النهي[1].

- في التعبير عنه ﷺ في هذه الآية برسول الله ﷺ بعد التعبير عنه في الآية السابقة بالنبي إشارة إلى ملاك الحكم... وتعظيمه وتوقيره تعظيم لمرسله وتوقير له، فغضّ الصوت عند رسول الله تعظيم وتكبير لله سبحانه، والمداومة والاستمرار على ذلك - كما يستفاد من قوله: ﴿يَغُضُّونَ﴾ المفيد للاستمرار - كاشف عن تخلّقهم بالتقوى وامتحانه تعالى قلوبهم للتقوى[2].
- وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ﴾ إشارة إلى أنّ قلوب هؤلاء المؤمنين الذين يغضّون أصواتهم عند رسول الله قد أعدّها الله سبحانه وتعالى وأرادها لتكون مستقراً ومستودعاً للتقوى، وهذا هو السر في تعدية الفعل «**امْتَحَنَ**» باللام، في قوله تعالى «**لِلتَّقْوى**» مع أنّ الأصل في فعل الامتحان أن يتعدى بالباء، فيقال: «**امتحنه بكذا، لا لكذا**». وفي هذا ما يشير إلى أنّ تلك القلوب التي يغضّ أصحابها أبصارهم عند رسول الله، قد امتحنت فعلاً بالتقوى، وقد نجحت في هذا الامتحان، فأصبحت قابلة للتقوى، متجاوبة معها.. فقد يمتحن الإنسان بالشيء، ولا يقبله، ولا يتجاوب معه.. أما إذا امتحن للشيء، واختير له، فإنّ ذلك يعني أنّه أهل لهذا الامتحان، وخاصة إذا كان المتخيّر له، هو الحكيم العليم، ربّ العالمين.. ولهذا، فإنّ قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ﴾ هو خبر لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ بمعنى أنّ الذين يغضّون أصواتهم عند رسول الله هم من أهل التقوى.. فهذا هو حكمهم عند الله.

(1) تفسير الميزان، محمد حسين الطباطبائي، ج18، ص 310.
(2) تفسير الميزان، محمد حسين الطباطبائي، ج18، ص 310.

- وقولـه تعالى: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ خبـر ثان لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ بمعنـى أنّهـم أهل التقـوى، وأنّهم مجزيّون من الله سبحانه وتعالى بالمغفرة والأجر العظيم.
- قـال بعض المفسّريـن:.. وفي التعبير عـن خفض الصـوت بالغضّ الذي هو مـن شأن النظر، إذ يقـال غضّ فلان بصره ولا يقال غضـ صوته - في هذا التعبيـر إعجاز مـن إعجاز النظم القرآني، الـذي تحمله كلمات الله متحدية الجن والإنس جميعاً. ذلـك أنّ خفض الصوت إنّما يكون عن مشاعر الحياء، التـي مـن شأنها أن تنكسـر معها حدّة البصـر، فلا يستطيع المـرء أن يملأ عينيه ممّن يهابه، ويجلّه، ويوقّره.. فهو إذا نظر غضّ بصره، وإنّ هذا الغضّ مـن البصـر يستولـي على مخـارج الصوت أيضـاً، فيحبس الصـوت عن أن ينطلـق إلى غاياته، بل يكسر حدّتـه، كما كسر حدّة النظر.. ففي قوله تعالى: ﴿يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ﴾ إشـارة ضمنيـة إلـى غضّ البصـر حيـاء، وأنّ سلطان الحيـاء هو المتحكّم فـي هذا المقام. وهكـذا يتسلّط الغضّ علـى الأبصار، والأفواه جميعاً[1].

بحث حول الآية

الحبط في القرآن:

إنّ مراعاة الآداب في محضر رسول الله ﷺ ليست مجرّد آداب تحسن مراعاتها أو تجب، بل إنّ عدم مراعاتها وإساءة الأدب في محضره لها آثار على أعمال الإنسان وهـو ما ذكرته الآية بعنوان: «**الحبط**» والحبـط أو إحباط العمل يقابل مصطلح آخر وهو التكفير فما معنى الحبط والتكفير؟

(1) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس الخطيب، ج13، ص 436.

أ. **العمل بين الحبط والتقوى**: من المسائل التي تُطرح حول علاقة الإيمان والعمل الصالح بالسعادة الأخروية، وكذلك حول علاقة الكفر والعصيان بالشقاء الأبدي، ما يلي: هل أنّ العلاقة بين كلّ لحظة من لحظات الإيمان والكفر مع نتيجتها الأخروية، وكذلك العلاقة بين كل عمل حسن أو سيء مع ثوابه وعقابه، هل هذه العلاقة حتمية وثابتة لا تقبل التغيّر، أم أنها قابلة للتغيّر؟ فمن باب المثال: هل من الممكن جبران أثر المعصية بالعمل الصالح؟ وكذلك العكس فهل من الممكن إزالة أثر العمل الصالح بالمعصية؟ وكذلك هل يمكن القول بأن أولئك الذين قضوا شطراً من عمرهم في الكفر والعصيان، وشطراً آخر في الإيمان والطاعة، سوف يتعرّضون للعقاب فترة، وللثواب فترة أخرى، أو أنّه يوازن بين أعمالهم ويجبر أحدهما بالآخر، ونتيجة لذلك يتعيّن مصير الإنسان، إما إلى السعادة وإما إلى الشقاء في العالم الأبدي الخالد؟ أم أنّ الأمر بشكل آخر؟

وهذه المسألة في واقعها هي مسألة (الحبط والتكفير) قال تعالى: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾[1] التي بحث فيها ومنذ زمان قديم المتكلّمون من الأشاعرة والمعتزلة، ونحن هنا نستعرض رأي الشيعة في هذا المجال بإيجاز.

ب. **معنى الحبط**: هو سقوط ثواب العمل الصالح بالمعصية المتأخّرة، والتكفير عكسه أي سقوط الذنوب المتقدّمة بالطاعة المتأخّرة.

إنّ مرجع هذه الفكرة هو معرفة مدى التأثير المتبادل بين الأعمال الحسنة والأعمال السيئة فهل يمحو أقواهما أضعفهما؟ أم أنّ كلّاً من أعمال الخير وأعمال الشر سيحفظ في موضعه دون أن يمحو أحدهما تأثير الآخر فتكون

(1) سورة النساء، الآيات 110 - 112. وانظر أيضا: السور االتالية: سورة آل عمران، الآية 135، سورة الانعام،الآية 54، سورة الشورى،الآية 25، سورة الزمر،الآية 53.

أعمال الخير وأعمال الشر التي فعلها الإنسان في الدنيا مشهودة له بأجمعها يوم القيامـة بحيث يحصل على الثـواب والعقاب في إزاء كل عمـل من تلك الأعمال، وعند مراجعة الآراء المختلفة في هذه االمسألة نجد عدّة آراء وهي:

الـرأي الأول: أعمـال الخير وأعمـال الشر محفوظة في مواضعهـا دون أن يؤثّر أحدها في الآخر أدنى تأثير أي لا يمكن أن يكون لهما فعل وانفعال مع بعضهما.

الـرأي الثانـي: جميـع الأعمال لها تأثيـر على بعضها أي هنـاك تأثير وتأثّر وحبط وتكفيـر بصـورة مستمـرة، فإن بقيت آثـار الأعمـال الإيجابية في نهايـة المطاف كان الإنسان من أصحاب الجنة وإن تخلفت آثار الأعمال السلبية صار من أصحاب الجحيم.

الـرأي الثالـث: القـول بوجود تأثير في بعض الأعمال حبطـاً وتكفيراً وفي موارد أخـرى لا يوجد حبـط وتكفير، وهذا لا يمكن معرفته إلا مـن خلال مراجعة نصوص الشريعـة فالقاعدة الأساسية لا حبط ولا تكفير فـإذا بدرت من الإنسان أعمال صار لكـلٍّ منهـا وجود وأثـر في عالم التكويـن وفي النفـس، وذلك يقتضي بقـاء الأعمال وثبوتهـا وإنّ أي عمل لا يمكنه دونما دليل إحباط العمل أو تكفيره، وعليه يكون ما ورد فـي القرآن الكريم والروايات خروج عن القاعدة المشار إليها فنأخذ بمقدار البيان الشرعي ولا نتعدّى إلى غيره.

الذنوب الموجبة لحبط الأعمال في القرآن

وبغضّ النظـر عن النقاشـات التي وردت حول هـذا البحث فقـد ورد في القرآن الكريم ذنوب متعدّدة توجب حبط العمل أي من آثارها حبط الأعمال نذكر منها:

1. **الارتـداد عـن الإسلام. قـال الله تعالـى:** ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[1].

(1) سورة البقرة، الآية 217.

فالارتداد عن الدين يحبط ما سبق وما لحق.والآية كما هو واضح مشروطة بالموت على الكفر أولئك حبطت أعمالهم شرط في الإحباط الموت[1].

هذا يعني أنه إذا لم يمت على الكفر، بل تاب قبل موته لم تحبط أعماله[2].

2. **الشرك المقارن بالعمل: قال الله تعالى:** ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ ۚ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴾.

كان المشركون يزعمون أنّ العمل الصالح بنفسه موجب للثواب، غير أنّ القرآن ألغى هذه الفكرة، وصرّح بأنّ الثواب إنّما يترتّب على العمل الصالح، إذا صدر من فاعل مؤمن، ولأجل ذلك أتبع الآية بقوله: ﴿..إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ..﴾ [3]

3. **مجادلة الرسول ومشاقته:** قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ ﴾[4].

إنّ هذه العوامل إمّا هي عوامل مستقلّة في الإحباط أي الكفر والصدّ عن سبيل الله تعالى ومشاقة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وإما هي ترجع إلى عامل واحد وهو الكفر.

وفي بعض الروايات فسّر معنى المشاقة بما نقل عن أمير المؤمنين عليه السلام: «**وشاقوا الرسول**» أي قطعوه في أهل بيته بعد أخذه الميثاق عليهم له.[5]

4. **قتل الآمرين بالقسط من الناس:** قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ

---

(1) راجع: منتهى المطلب، جمال الدين الحسن بن يوسف الحلي، ج1، ص279.
(2) راجع: الروضة البهية في شرح اللمعة الدمشقية،، زين الدين الجبعي العاملي (الشهيد الثاني)، ج2، ص175.
(3) سورة التوبة،الآية 18.
(4) سورة محمد،الآية 32.
(5) بحار الأنوار، العلّامة المجلسي، ج30، ص164.

ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾[1].

5. إساءة الأدب مع النبي ﷺ: قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾[2].

قد يفهم أن رفع الصوت ليس عاملاً مستقلاً في الإحباط وبالتالي يكشف عن كفر الذين يرفعون أصواتهم فوق صوته ﷺ لأن الآية تخاطبهم بـ يا أيها الذين آمنوا والتي لا يفهم منها شأنية الإيمان بل فعليته.

فالذي يوجب إحباط العمل هو الإساءة إلى النبي ﷺ التي تعتبر هتكاً في نظر العامة وتنزيلاً من شأنه ﷺ في أوساط المسلمين، كما هو الظاهر، من أسباب النزول التي ذكرت للآية الكريمة.

الذنوب الموجبة لحبط الأعمال في السنة:

إن ما تقدّم هي الأعمال التي توجب الحبط حسبما ذُكر في القرآن الكريم وإذا راجعنا الروايات الشريفة فنجد مجموعة من الأعمال موجبة للحبط أيضاً منها: عقوق الوالدين، الحسد، عدم إطاعة حاكم الشرع، ظلم المستضعفين، وغيرها...[3].

الآثار الإيجابية للتأدّب مع الرسول ﷺ:

هذا كله في جانب إساءة الأدب مع رسول الله أما في الجانب الآخر فإنّ التأدّب معه له آثار في الدنيا والآخرة وأصحابه «**امْتَحَنَ اللهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوى**» فما معنى هذه الجملة؟

---

(1) سورة آل عمران، الآيتان 21-22.

(2) سورة الحجرات، الآية 2.

(3) لا بد من لفت النظر أن الكلام هنا عن موجب الحبط لا عن فعليته فلو تحقّقت التوبة النصوح، فإنّ ذلك سيؤدّي إلى غفران الذنوب وتكفيرها.

إذا راجعنا المعاجم اللغوية فكلمة الامتحان من أحد معانيها هو الاستعلام، فحين يقال: امتحِنِ الرجل قبل مصاحبته فمعناه هو استعلم حاله لتقف على واقعه وحقيقة أمره قبل مصاحبته. وللامتحان وسائل عديدة تختلف باختلاف الغرض من الامتحان وتختلف باختلاف الممتحِن والممتحَن. قال تعالى: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾[1]. ثم إنَّ استعلام الله عزّ وجلّ ليس لأنّه لم يكن عالماً بالواقع تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، بل إنَّ الغرض من الامتحان هو إيقاف الإنسان على واقعه أو إيقاف الناس على واقع هذا الإنسان الممتحَن. فالله تعالى امتحن هؤلاء في أدب التخاطب مع رسول الله ﷺ فمنهم من ظهرت جرأته على الله ورسوله ومنهم من ظهرت طاعته لله ورسوله ويبدو من الخطاب أنّهم فعلاً امتحن الله قلوبهم للتقوى وهم القدوة في التعاطي مع رسول الله.

فالله تعالى يبتلي عباده بأنواع المحن ليتذكّر متذكّر، ويزدجر مزدجر، فمن تذكّر وصبر استخلصه الله وهداه سواء السبيل، وأنعم عليه بالغفران وأجور الصابرين، وتومئ الآية إلى أنّ الخطاب المهذّب والأسلوب اللائق - من الإيمان، قال الإمام علي عليه السلام: «**وَلَقَدْ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ - لا يَسْتَقِيمُ إِيمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُه - وَلَا يَسْتَقِيمُ قَلْبُه حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُه - فَمَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَلْقَى الله تَعَالَى - وهُوَ نَقِيُّ الرَّاحَةِ مِنْ دِمَاءِ الْمُسْلِمِينَ وأَمْوَالِهِمْ - سَلِيمُ اللِّسَانِ مِنْ أَعْرَاضِهِمْ فَلْيَفْعَلْ**»[2].

وإذا دقّقنا في الآيات والروايات سنجد أنّ الطاعة للولي هي الامتحان الذي ابتلي به الجن والإنس؛ لإنّ طاعة النبي ﷺ تُمثّل روح وجوهر العبادة وهي حقيقة الامتحان الذي سقط فيه إبليس. قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ

(1) سورة آل عمران، الآية 154.

(2) نهج البلاغة، خطب الإمام علي عليه السلام (تحقيق صالح)، نصائح للناس، ص 254.

ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِۚ وَإِن كَانَتۡ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ ﴾[1]. والآية الكريمة من ملاحم الآيات في تبيان حقيقة العبادة والقبلة والصلاة، حيث بيّن تعالى أنّ غاية جعل القبلة السابقة في الصلاة هو اتّباع الرسول وطاعته، وليحصل التمحيص بين المطيع وبين من ينقلب على عقبيه، ولا يخفى ما لصعوبة هذا الامتحان، حيث تمّ تبديل القبلة من البيت الحرام إلى بيت المقدس، أي إلى قبلة اليهود والنصارى، وشُرّعت بعدما كان البيت الحرام في أوائل البعثة في مكّة - هو القبلة، وهو من الخطورة بمكان؛ حيث إنّ القبلة في العبادة والدين من النواميس العظيمة.

ولا سيما وأنّ قبلة البيت الحرام قد توارثتها قريش من ملّة إبراهيم وإسماعيل الحنيف، وكان البيت الحرام هو محور النسك والمناسك المختلفة العبادية في الصلاة والطواف والذبائح والقرابين، وتبديل القبلة حينئذ - التي هي معلم رئيس في الدين يدلّ على مدى موقعية الرسول وولايته وطاعته في الديانة، وأنّ الديانة وطريق العبودية لله تعالى هو باتّباع وطاعة الرسول ﷺ، وأنّ قوام القبلة والعبادة باتّباع الرسول وطاعته، فكانت محنة هذا الامتحان عظيمة جدّاً ليتقرّر معنى الديانة والدين.

والنتيجة: أنّ الانقياد والطاعة والتسليم المطلق للرسول ﷺ ولأهل البيت عليهم السلام يُجسّد روح وحقيقة العبادة لله تعالى ولذا أي تقدّم أو إساءة أدب مع رسول الله هو في الحقيقة خروج عن عبادة الله تعالى وهذا بالدقة الامتحان الذي سقط فيه إبليس.

الدروس المستفادة

1. التأدُّب مع القيادة: الأدب الثاني مع النبي ﷺ هو أدبهم معه في الحديث والخطاب؛ وتوقيرهم له في قلوبهم، توقيراً ينعكس على نبراتهم وأصواتهم؛ ويُميّز شخص

(1) سورة البقرة، الآية 143.

رسـول الله بينهم، ويُميّز مجلسه فيهم؛ والله يدعوهم إليه بذلك النداء الحبيب؛ ويُحذّرهم من مخالفة ذلك بـ ﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾.

أمّـا مبـرّرات وأسبـاب الأدب مـع القيادة فكثيرة فـلا يشكّ عاقل مـن أنّه يوجد عدّة مبـرّرات للأدب مع القيادة خصوصاً القيادة الإلهيـة، وهنا نشير إلى أهم تلك المبرّرات:

- لأجل مقامها العالي وفضائلها.
- لأجل المصلحة العامة.

أما فيما يرجع إلى الأول: فقد تكون القيادة ممّن يتّصف بصفات مكارم الأخلاق كمـا في الأنبياء والأئمـة والأولياء عليهم السلام وحينئذٍ فإنّ من الأمـور الطبيعية أنّ من له الصفـات الخيّرة ويمتلـك الملكات العاليـة الفاضلة من العلـم والشجاعة والسخاء والتقـوى وبقية مكارم الأخلاق فإنّ مثل هؤلاء الأشخاص يجب أن يُقدّروا ويُحترموا لفضائلهـم ومواصفاتهـم ويدلّ على ذلك العقل قبل النقـل وأن النفس تميل وتحترم صاحب الخلق الحسن.

وأمّا فيما يرجع إلى الثانية: فلا يخفى على العاقل اللبيب ما للترابط الوثيق المهم بين القيادة على تعدُّد أصنافها وبين الأمة على اختلاف قوّتها وضعفها وتقدُّمها وتأخُّرها وحاجة الأمة إلى القيادة الواعية التي تسهر على مصالح الأمة وقيادتها إلى شاطئ الأمان، وحاجة القيادة للأمة الواعية المنقادة لها وتكون رهن إشارتها، وبما أنّ مصالح الأمة مرهونة ومربوطة، بقوة القيادة وحنكتها وتماسكها مع الأمة، واستجابة الأمة لها والسمع والطاعة لها في مختلف الميادين وأنّ مثل هذه الأمور لا تتمّ إلا باحترام القاعدة الشعبية من الأمة لتلك القيادة وتقديرها والتأدُّب معها.

وينقسم المجتمع حسب مفهوم الآية إلى ثلاث فئات:

الأولى: فئة الملتزمين والمؤدّبين مع الله ورسوله ومن اقتدى بهم فهؤلاء قد مدحهم القرآن ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾. وهؤلاء هم الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى.

الثانية: فئة الذين لم يراعوا آداب العلاقة مع رسول الله ﷺ بل أساءوا الأدب معه في حياته وبعد مماته فهولاء ذمّهم القرآن الكريم وهم من الذين أحبط الله تعالى أعمالهم.

الثالثة: فئة مسكوت عنها، وتأخذ الحكم المناسب حسب مراعاتها أو عدم مراعاتها للآداب مع الله ورسوله.

2. مراعاة الآداب اللحظية والآنية لا يدل على عمق التقوى بل لا بد من الاستمرار في الآداب مع الله تعالى ورسوله، لأنّ الله تعالى يقول: ﴿يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ﴾ وهي فعل مضارع يدل على الدوام والاستمرارية بلحاظ الزمان ويشمل حال حياته وما بعد مماته.

3. الهدوء بالخطاب ونبرات الصوت بشكل عام هو أدب ينبغي مراعاته في كل كلام، لأنّه يؤثّر على قيمة الكلام والمتكلّم لأنّ الهدوء في الكلام ينعكس على شخصية المخاطِب فيؤثّر في فهم المخاطَب، وهناك بعض موارد الاستثناء تُحدَّد بحسبها كالحرب وإظهار القوة وإرعاب العدو وما شابه ذلك ولكن يبقى الأساس هو الهدوء والرزانة في الكلام.

4. إنّ التقوى والإيمان لا تلازم الامتناع والعصمة عن المعصية - نعم بعض مراتب التقوى تلازم ذلك كالمرتبة المختصّة بالمعصوم وهي خارجة عن مورد الآية- ولكن هؤلاء لو ارتكبوا ذنباً فإنّهم سرعان ما يتوبون ويرجعون إلى الله تعالى ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾.

5. في الآيات القرآنية أينما وردت لفظة ﴿مَّغۡفِرَةٌ﴾ و﴿وَأَجۡرٌ﴾ تكون المغفرة سابقة للأجـر، لأنّ الإنسـان إذا لـم يتطهّـر من ذنوبه لا يمكـن أن يكون مـورداً للعناية والرحمـة الإلهية المتمثّلة بالأجر، وهذا يؤكّد على فكـرة أهمية التوبة وديمومتها في كلّ الأعمال حتى لا تكون ذنوبنا من موانع تلقّي الرحمة والفيض الإلهي.

للمطالعة:

رحمة رسول الله ﷺ

قال الإمام العسكري عليه السلام: «**قال موسى بن جعفر عليه السلام: إنّ رسول الله ﷺ لمّا قدم المدينة كثر حوله المهاجرون والأنصار، وكثرت عليه المسائل، وكانوا يخاطبونه بالخطاب الشريف العظيم الذي يليق به، وذلك أنّ الله تعالى كان قال لهم:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ﴾.

وكان رسول الله ﷺ بهم رحيماً، وعليهم عطوفاً، وفي إزالة الآثام عنهم مجتهداً، حتى أنّه كان ينظر إلى كلّ من كان يخاطبه فيعمد على أن يكون صوته ﷺ مرتفعاً على صوته، ليزيل عنه ما توعّده الله به من إحباط أعماله، حتّى أنّ رجلاً أعرابياً ناداه يوماً وهو خلف حائط بصوت له جهوري: يا محمد، فأجابه بأرفع من صوته، يريد أن لا يأثم الأعرابي بارتفاع صوته.

فقال له الأعرابي: أخبرني عن التوبة إلى متى تُقبل؟

فقال رسول الله ﷺ: يا أخا العرب، إنّ بابها مفتوح لابن آدم، لا ينسد حتى تطلع الشمس من مغربها وذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ رَبُّكَ أَوۡ يَأۡتِيَ بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَۗ يَوۡمَ يَأۡتِي بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾[1] وهو طلوع الشمس من مغربها لا يَنْفَعُ نَفْساً إِيمانُها لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمانِها خَيْراً[2].

(1) سورة الانعام، الآية 2.

(2) البرهان في تفسير القرآن، هاشم البحراني، ج1، ص 298.

3

إلتزام الأدب علامة العقل

مفاهيم محورية:

- آداب المعاملة وأثره في بناء منظومة العلاقات الاجتماعية.
- وحدة الأصل الإنساني.
- اتساع مفهوم الأدب لجميع العلاقات الإنسانية.
- فرق الأدب عن الأخلاق.
- الأدب الإلهي.
- الدروس المستفادة من الآيتين الرابعة والخامسة.
- آداب التعامل مع القيادة والتربية الأخلاقية للمجتمع.

النص القرآني

قـال الله تعالـى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝٤ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

تمهيد

قـال بعض الملوك لبعض وزرائه: مـا خير ما يرزقه العبد؟ قال: عقل يعيش به، قـال فـإن عدمه، قال: أدب يتحلّى به، قال: فإن عدمه، قـال مال يستتر به، قال: فإن عدمه، قال: صاعقة تُحرقه فتريح منه العباد والبلاد [1].

عندمـا نسأل ما خيـر ما يُرزقه العبد فـي هذه الدنيا ويكون دليلـه على الآخرة؟ سيكون الجواب حتماً هو العقل، العقل تلك القوة النورانية التي أودعها الله تعالى في عبـاده والتي تهديهم إلـى الخير والصلاح وتنير لهم ظلمـات دربهم في الحياة تلك الحياة المعبّدة بكثير من المتاهات والتعرّجات الحادة التي لا تدع لأحد موطىء قدم علـى الإطلاق، فالعقل هو البوصلـة الحقيقية التي يهتدي بها الإنسان.وعليه لا يمكن أن نتصوّر حياة المرء بدون عقل راجح.

---

(1) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، ج18، ص 188.

والآية الكريمة هي استمرار لموضوع الآداب الذي نزلت سورة الحجرات من أجل إرسائه في المجتمع، وهذه الآية هي أدب من الآداب الاجتماعية مع القيادة الإلهية، وهي من الآداب الاجتماعية المهمة في علاقة الناس مع بعضهم.وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ...﴾ أي حتى يخرج إليهم بطبعه واختياره، لكان الصبر أدباً وتعظيماً لشأنه صلوات الله عليه وآله، فيثابون لذلك ويؤجرون. وهذه هي حقيقة الخير الذي هو مفيد لهم في دنياهم لأنّهم يوصفون فيها بالعقل والأدب، وفي آخرتهم بنيل الثواب الجزيل.

شرح مفردات الآية

الْحُجُرَاتِ: «**والحجرات جمع حجرة**». وهي القطعة من الأرض المحجورة بحائط يحوّط عليها. ولذلك يقال لحظيرة الإبل: حجرة. وهي فعلة بمعنى مفعول، كالغرفة والقبضة. والمراد حجرات نساء النبيّ ﷺ وكانت لكلٍّ منهنّ حجرة. ومناداتهم من ورائها بأنّهم أتوها حجرة فنادوه من ورائها. أو بأنّهم تفرّقوا على الحجرات متطلّبين له، فأسند فعل الأبعاض إلى الكلّ [1].

المعنى التفصيلي

في هذه الآية عدّة نقاط:

- تشير إلى جهل أولئك الذين يجعلون أمر الله وراء ظهورهم، وعدم تعقّلهم فتقول: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ فأيّ عقل يدفع الإنسان إلى أن ينادي برفيع صوته أمام أعظم سفير إلهي فلا يلتفت الى آداب النداء كما فعلت قبيلة بني تميم، فنادت النّبي بصوت مزعج يا محمّد يا محمّد أخرج إلينا، وهو مركز المحبّة والعطف الإلهي؟! وأساساً كلّما ترقّى عقل الإنسان زيد في أدبه فيعرف القيم الأخلاقية بصورة أحسن.

---

(1) زبدة التفاسير، فتح الله الكاشاني، ج6، ص 414.

ومـن هنا فـإنّ إساءة الأدب دليل على عـدم العقل، أو بتعبير آخـر إنّ إساءة الأدب عمل الحيوان، أمّا الأدب أو رعاية الأدب فهو من عمل الإنسان.

- الآية استخدمت تعبير النداء دون أي لفظ آخر كالدعوى وما شابه ذلك، لأنّ النداء فيه خصوصية غير موجودة في الكلمات القريبة من النداء، فهو كلام يقتضي استمرار الخطاب ولو بزمان قليل، بخلاف مطلق الدعوة [1].

- وراء الحجـرات: مـن خارجهـا خلفها أو قدّامهـا على أنّ وراء مـن الموارة والاستتار فما استتر عنك فهو وراء خلفاً كان أو قداماً إذا لم تره فإذا رأيته لا يكون وراءك، فالـوراء بالنسبة إلى من في الحجرات ما كان خارجها لتواريه عمّـن فيها. والحجرات جمع حجرة على وزن فعلـة بضم الفاء وسكون العين وهـي القطعة من الأرض المحجورة أي الممنوعة عـن الدخول فيها بحائط والمراد هنا حُجرات نسائه صلى الله عليه وآله وسلم.

- جملة (أكثرهم لا يعقلون) «الأكثر» في لغة العرب يُطلق أحياناً بمعنى الجميع، وإنّما استعمل هذا اللفظ رعايةً للاحتياط في الأدب حتى لو أنّ واحداً أستُثني مـن الشمول لا يضيع حقّه عند التعبيـر بالأكثر، فكأنّ الله يريد أن يقول: إنّي أنـا الله الذي أحطت بكلّ شيء علماً، عند الكلام على مثل هذه الأمور أراعي الأدب في ذلك فعلامَ لا تراعون في كلامكم هذه الناحية؟! أو لأنّه يوجد فيهم أناس يعقلون حقّاً، ولعادة الناس وعدم التفاتهم في رفع الصوت يريد القرآن أن يُحذّرهم بهذا الأسلوب أن لا ينسوا الأدب وأن يستعملوا عقولهم وأفكارهم عنـد الكلام...[2].يقول الزمخشري: «والإخبـار عن أكثرهم بأنهم لا يعقلون: يحتمـل أن يكـون فيهم من قصـد بالمحاشاة. ويحتمل أن يكـون الحكم بقلة

(1) ينظر: التحقيق في كلمات القرآن الكريم، حسن المصطفوي، ج12، ص 72.
(2) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ناصر مكارم الشيرازي، ج16، ص 515.

العقــلاء فيهم قصداً إلى نفــي أن يكون فيهم من يعقل، فــإنّ القلّة تقع موقع النفي في كلامهم» [1].

- ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ ﴾: لــو حــرف شــرط واذا دخلــت على الفعل الماضــي أفادت امتناع الشرط لامتناع الجزاء. والصبر حبس النفس عن أن تنازع إلى هواها.

﴿حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ ﴾ هــل مــن فــرق بيــن حتى تخــرج وإلــى أن تخــرج؟ الجواب: إن«**حتى**» مختصة بالغاية المضروبة. تقول: أكلت السمكة حتى رأسها، ولو قلت: حتى نصفهــا، أو صدرها: لم يجز، و«**إلــى**» عامة في كل غاية، فقد أفادت«**حتى**» بوضعها: أن خــروج رســول الله ﷺ إليهم غاية قد ضربت لصبرهم، فما كان لهم أن يقطعوا أمــراً دون الانتهاء إليــه. فإن قلت: فأيّ فائدة في قوله إليهــم؟ قلت: فيه أنه لو خرج ولم يكن خروجه إليهم ولأجلهم، للزمهم أن يصبروا إلى أن يعلموا أن خروجه إليهم، لكان خيــراً لهم في«**كان**» إما ضمير فاعل الفعل المضمر بعد لو، وإما ضمير مصدر صبــروا، كقولهــم: مــن كذب كان شــراً له واللّه غفــور رحيم بليغ الغفــران والرحمة واسعهما، فلن يضيق غفرانه ورحمته عن هؤلاء إن تابوا وأنابوا[2].

- مجــيء الآيــة على النمط الَّذي وردت عليه فيه مــا لا يخفى على الناظر، من بيّنات إكبار محلّ رسول اللّه ﷺ وإجلاله.

منها: مجيئها على النظم المسجّل على الصائحين به بالسفه والجهل لما أقدموا عليه.

ومنها: لفظ الحجرات، وإيقاعها كناية عن موضع خلوته ومقيله مع بعض نسائه.

---

(1) الكشــاف عــن حقائق غوامض التنزيــل، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمــد، الزمخشري جار اللّه، ج4، ص 357.

(2) (م.ن).

ومنها: المرور على لفظها بالاقتصار على القدر الَّذي تبيّن به ما استنكر عليهم. يعني: لم يصف الحجرات بأنّها موضع خلوة ومقيل، بل اقتصر على الحجرات.

ومنها: التعريف باللام دون الإضافة.

ومنها: أن شفع ذمّهم في خاتمة الآية باستجفائهم، واستدراك عقولهم، وقلَّة ضبطهم لمواضع التمييز في المخاطبات، تهويناً للخطب على رسول الله ﷺ، وتسلية له، وإماطة لما تداخله من إيحاش سوء أدبهم.

وهلمّ جرّا من أوّل السورة إلى آخر هذه الآية. فتأمّل كيف ابتدأ بإيجاب أن تكون الأمور الَّتي تنتمي إلى الله ورسوله متقدّمة على الأمور كلِّها، من غير حصر ولا تقييد. ثمّ أردف ذلك النهي عمّا هو من جنس التقديم، من رفع الصوت والجهر، كأنّ الأوّل بساط للثاني ووطاء لذكره. ثمّ ذكر ما هو ثناء على الَّذين تحاموا ذلك فغضّوا أصواتهم، دلالة على عظيم موقعه عند الله. ثمّ جيء على عقب ذلك بما هو أطمّ وهجنته أتمّ، من الصياح برسول الله في حال خلوته ببعض حرماته من وراء الجدر، كما يصاح بأهون الناس قدراً، لينبّه على فظاعة ما أجروا إليه وجسروا عليه، لأنّ من رفع الله قدره عن أن يجهر له بالقول، حتّى خاطبه جلَّة المهاجرين والأنصار بأخي السرار، كان صنيع هؤلاء من المنكر الَّذي بلغ من التفاحش مبلغاً. ومن هذا وأمثاله يقتطف ثمر الألباب، وتقتبس محاسن الآداب.

ثمّ أدّبهم الله تعالى بقوله: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ صَبَرُواْ﴾ في محلّ الرفع على الفاعليّة، لأنّ المعنى: ولو ثبت صبرهم، فإنّ «أنّ» وإن دلَّت بما في حيّزها على المصدر، دلَّت بنفسها على الثبوت، ولذلك وجب إضمار الفعل. والصبر حبس النفس عن أن تنازع إلى هواها. قال الله تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم﴾. وهاهنا المفعول محذوف. والتقدير: ولو ثبت حبسهم أنفسهم عمّا تنازع إلى هواها من المناداة وراء الحجرات ﴿حَتَّىٰ تَخۡرُجَ إِلَيۡهِمۡ﴾ أي: الصبر مغيّا بخروجه.

- (لَكانَ) الصبر ﴿خَيۡرٗا لَّهُمۡ﴾ من الاستعجال، لما فيه من حفظ الأدب وتعظيم الرسول الموجبين للثناء والثواب، والإسعاف بالمسؤول، إذ روي أنّهم وفدوا شافعين في أسارى بني العنبر كما مرّ، فأطلق النصف وفادى النصف، فلو أنّهم صبروا لأطلق كلَّهم بغير فداء.
- ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ بليغ الغفران والرحمة، حيث اقتصر على النصح والتقريع لهؤلاء المسيئين للأدب، التاركين تعظيم الرسول ﷺ، فلن يضيق غفرانه ورحمته عن هؤلاء إن تابوا وأنابوا [1].

بحث حول الآية:

آداب المعاملة وأثره في بناء منظومة العلاقات الاجتماعية:

إنّ سورة الحُجرات كما تقدّم اشتهرت باسم «**سورة الآداب والأخلاق**» لما تضمّنته من آداب راقية، وأخلاق سامية في التعامل مع أفراد المجتمع. ولذا نجد الإسلام اهتمّ اهتماماً كبيراً بمسألة رعاية الأدب، والتعامل مع الآخرين مقروناً بالاحترام والأدب سواءً مع الفرد أم الجماعة.

فإنّنا حين نقرأ تأريخ حياة النبي ﷺ والأئمة عليهم السلام ونُمعن النظر فيها نلاحظ أنّهم يراعون أهم النقاط الحسّاسة واللطائف الدقيقة في الأخلاق والآداب حتى مع الأناس البسطاء، وأساساً فإنّ الدين مجموعة من الآداب، الأدب بين يدي الله والأدب بين يدي الرّسول والأئمة المعصومين، والأدب بين يدي الأستاذ والمعلِّم، أو الأب والأم والعالم والمفكّر...ولذا ينبغي من باب المقدّمة شرح مبسّط لمفهوم الآداب وأهميتها في الحياة الاجتماعية وذلك لكون آيات السورة المباركة تدور حول هذا الموضوع.

(1) زبدة التفاسير، فتح الله الكاشاني، ج6، ص 415 -416.

1. معنى الأدب:

إنّ الأدب لـه معنـى عامـاً وجامعـاً لأنواعه المختلفة مـن آداب الكـلام، وآداب المشي، والأكـل، والنوم، إلى آخره... والأدب بهذا المعنى خُلُق عام يتناول كثيراً من التصرفات والسلوكيات، إلا أنه أفضل وأكثر ما يكون في الخطاب.

الخطـاب الذي هـو واسطة التفاهـم والتعارف بيـن النـاس، لأنّ الإنسان مدنيٌّ بطبعـه، ولا يمكنـه أن يعيش منعزلاً عـن الآخرين، ولا يستغني عـن إقامة العلاقات معهـم ومحادثتهـم في شـؤون الحيـاة. فمن خلال الخطـاب والكلام تُحـدّد معالم شخصيـة الإنسان، ويُكشف عن مكنوناتهـا، والساكت مجهول الهوية، فإذا تكلّم عبَّر عن نفسه، وأبان عن شخصيته.

ولـذا الكلمات التـي ينطق بها الإنسـان تسطّر وتكتب عليـه، ويراها في صحائف أعمالـه يـوم القيامـة. قـال تعالـى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[1]. فالقرآن الكريم يُقرّر مبدأ محاسبة الإنسان على كلّ قولٍ ينطق به.

وقـد عُنيَ القـرآن الكريم بأدب الخطاب، فالناظر في سـوره وآياته، يجده شديد الحرص علـى الأسلوب الذي يُؤدَّى بـه الكلام، والطريقة التي يُطـرح بها، ويجد أنَّه كثيراً ما يُوجِّه نحو الكلمة الطيبة والقول الحَسَن في مناسبات شتَّى.

قـال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾[2].

---

(1) سورة ق، الآية 18.

(2) سورة ابراهيم، الآيات 24 - 27.

فالكلمــة الطيبــة نفحــة روحانية تصل مــا بين القلــوب وتربطها بربــاط المودّة والتآلــف. أمّا الكلمــة الخبيثة فهي معول للهــدم والتفريق، يعمل تخريبــاً في أوصال المجتمــع فيهدّ كيانه. والكلمة الطيبــة تزهر في النفس لتتفتّــح بأجمل أزهار الخير والحــب التي يعبق شذاها فوّاحاً في كلّ زمــان ومكان. والكلمة الخبيثة نتنة الرائحة، تصدر عن بُؤَرٍ نفسية عفنة.

وقــد أشــار القــرآن الكريــم إلــى ما أثمــره القــول اللين مــن نجاح دعــوة النبي محمد ﷺ وتأثيرها في الناس. قال تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ﴾[1]. فرسول الله ﷺ لم يكن فظّاً؛ خشن الكلام، ولم يكن غليظ القلب؛ أي قاسيه وشديده. بل كان ﷺ رفيقاً داعياً إلى الرفق، فقال: مَنْ يُحرم الرِّفقَ يُحرم الخير.

2. وحدة الأصل الإنساني:

وإذا رجعنا إلى بينات سورة الحجرات وغيرها من السور المباركة نجد أنها تؤكّد وحــدة الأصــل الإنساني، فكثيراً ما تتكرّر في القــرآن صِيغ النداء بـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ و﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ ﴾، ممــا يشير إلــى أنّ الله سبحانه كرّم هذا الإنسان وفضّله على كثيرٍ مــن خلقه، مُعلناً بذلك مبدأ المساواة بين البشر، فلا فضل لجنس على آخر باعتبار اللون والعنصر والنشأة.

وفــي سورة الحجرات بيّن لنا نقطة أخرى في تحديده لوحدة الأصل الإنساني وهو أنَّ هــذا الأصل تفرَّعت عنــه الشعوب والقبائل والأمم، وأنَّ الهدف من هذا التنوّع بين النــاس هو التواصــل والتفاهم والتعــارف فيما بينهم. قال تعالــى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾[2].

(1) سورة آل عمران، الآية 159.

(2) سورة الحجرات، الآية 13.

فالأصل في دين الإسلام أنه دينُ تجمّعٍ وألفة، لا دينَ عزلةٍ وفرارٍ من تكاليف الحياة، ولم يأت القرآن ليدعو المسلمين إلى الانقطاع في دير، أو العبادة في صومعة، بعيداً عن مشاكل الحياة ومتطلّباتها. بل إنّ نزعة التعرّف إلى الناس والاختلاط بهم أصيلة في تعاليم هذا الدين[1].

فقد بيّن الرسول ﷺ أنّ الفضل لمن خالط الآخرين وتعرَّف عليهم ولم يتقوقع على نفسه، وذلك في قوله: «**المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم، أفضل من المؤمن الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم**»[2].

3. اتساع مفهوم الأدب لجميع العلاقات الإنسانية:

والحقيقة أنَّ أدب التعامل مع الآخرين له مفهوم شامل، يتسع اتساع العلاقات الإنسانية بين بني البشر. والروابط التي تجمع بين الناس كثيرة، فمن رابطة الدم، إلى رابطة الفكرة والمبدأ، ورابطة العمل والوظيفة، ورابطة الصداقة والصحبة، ورابطة الجنس والعرق، والرابطة التجارية والاقتصادية، ورابطة العقيدة التي تُعدّ من أقوى الروابط وأمتنها. ولكن قوّة رابطة العقيدة، لا تعني أنَّ أدب التعامل مع الآخرين لا يدور إلا في نطاقها، ولا يشمل التعامل مع أصحاب العقائد الأخرى من غير المسلمين، بل إنَّ أدب التعامل يتسع ليشمل الإنسانية كلَّها.

ولا بدّ لنا في هذا السياق من التفريق بين أدب التعامل مع الآخرين وبين الولاء لهم. فإنّ الولاء للقيادة الربّانية وللمسلمين مختلف عن الآداب مع الآخرين. فالتبرّؤ من أعداء الله لا يعني الإساءة في معاملتهم، أو أكل حقوقهم، أو سبّهم والفحش معهم في القول، أو عدم ملاطفتهم. فالولاء هو سلوك الباطن، والمحبة القلبية، وما يترتّب على ذلك من نصرة وإعانة وانقياد للقائد، ومن هنا تكون الآداب أهم وأعظم

(1) ينظر: خلق المسلم، محمد الغزالي، ص172.

(2) مشكاة الأنوار في غرر الأخبار، علي الطبرسي، الفصل الثاني: في آداب المعاشرة، ص 337.

فـي من يربطني بيني وبينهم علاقة الولاء فكيـف اذا كان هذا الشخص هو الرسول الأعظـم ﷺ الذي تجب طاعتـه والانقياد له بالمطلق وبأعلـى الدرجات المتصوّرة فينبغي أن تكون الآداب في العلاقة معه بأعلى الدرجات الممكنه أما عكسها فهو دليل حقيقي على اللاعقل.

فالتعامـل الحسن؛ هو سلوك الجـوارح والعلاقة الظاهرية ويكـون مع كل البشر. أمـا الولاء فهو بين المسلمين خاصة. ولعلّ ما ورد في سورة الممتحنة، هو من أوضح الآيـات التي تُميّز بين الولاء وبين البـرّ وحُسن التعامل، يقول تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[1].

وعلى كل حال هناك تعاريف متعدّدة للأدب فهو ما يتولّد من صفاء القلب وحضوره. أو كمـا عند بعضهم هو مجالسـة الخلق على بساط الصدق ومطالعة الحقايق بقطع العلايق. أو هو وضع الأشياء موضعها [2].

وعرّفـه العلّامـة الطباطبائي (رض) بأنـه: الهيئة الحسنة التي ينبغـي أن يقع عليه الفعـل المشروع إمـا في الدين أو عند العقـلاء في مجتمعهم كـآداب الدعاء وآداب ملاقاة الأصدقاء.

ولا يكـون إلا فـي الأمور المشروعة غيـر الممنوعة، فلا أدب فـي الظلم والخيانة والكـذب ولا أدب فـي الأعمال الشنيعـة والقبيحـة، ولا يتحقّق أيضـاً إلا في الأفعال الاختياريـة التي لها هيئات مختلفة فـوق الواحدة حتى يكون بعضهـا متلبّساً بالأدب دون بعضـ، كـأدب الأكل مثلاً في الإسلام، وهو أن يبـدأ فيه باسم الله ويختم بحمد

(1) سورة الممتحنة، الآيتان: 8– 9.

(2) راجع، شرح أصول الكافي، محمد صالح المازندراني، ج1، ص 292.

الله ويأكل دون الشبع إلى غير ذلك، وأدب الجلوس في الصلاة، وهو التورك على طمأنينة ووضع الكفّين على الوركين فوق الركبتين والنظر إلى حجره ونحو ذلك.

وإذا كان الأدب هو الهيئة الحسنة في الأفعال الاختيارية والحسن وإن كان بحسب أصل معناه وهو الموافقة لغرض الحياة مما لا يختلف فيه أنظار المجتمعات، لكنّه بحسب مصاديقه ممّا يقع فيه أشدّ الخلاف، وبحسب اختلاف الأقوام والأمم والأديان والمذاهب وحتى المجتمعات الصغيرة المنزلية وغيرها في تشخيص الحسن والقبح يقع الاختلاف بينهم في آداب الأفعال.

4. فرق الآداب عن الأخلاق:

الآداب ليست هي الأخلاق، فالأخلاق هي الملكات الراسخة التي تتلبّس بها النفوس، والآداب هي هيئات حسنة مختلفة تتلبّس بها الأعمال الصادرة عن الإنسان عن صفات مختلفة نفسية، وبين الأمرين بون بعيد.

فالآداب من منشئات الأخلاق، والأخلاق من مقتضيات الاجتماع بخصوصه بحسب غايته الخاصة. فالغاية المطلوبة للإنسان في حياته هي التي تُشخّص أدبه في أعماله، وترسم لنفسه خطّاً لا يتعدّاه إذا أتى بعمل في مسير حياته والتقرّب من غايته.

5. الأدب الإلهي:

وإذ كان الأدب يتبع في خصوصيته الغاية المطلوبة في الحياة فالأدب الإلهي الذي أدّب الله سبحانه به أنبياءه ورسله عليهم السلام هو الهيئة الحسنة في الأعمال الدينية التي تحاكي غرض الدين وغايته، وهو العبودية على اختلاف الأديان الحقّة بحسب كثرة موادها وقلتها وبحسب مراتبها في الكمال والرقي.

والإسلام لمّا كان من شأنه التعرّض لجميع جهات الحياة الإنسانية بحيث لا يشذّ عنه شيء من شؤونها يسير أو خطير دقيق أو جليل فلذلك وسع الحياة أدباً، ورسم في كل عمل هيئة حسنة تحاكي غايته.

وليس له غاية عامة إلا توحيد الله سبحانه في مرحلتي الاعتقاد والعمل جميعاً، أي أن يعتقد الإنسان أنّ له إلهاً هو الذي منه بدأ كل شيء وإليه يعود كل شيء، له الأسماء الحسنى والأمثال العليا، ثمّ يجري في الحياة ويعيش بأعمال تحاكي بنفسها عبوديته وعبودية كل شيء عنده لله الحقّ عزّ اسمه، وبذلك يسري التوحيد في باطنه وظاهره، وتظهر العبودية المحضة من أقواله وأفعاله وسائر جهات وجوده ظهوراً لا ستر عليه ولا حجاب يغطيه. فالأدب الإلهي - أو أدب النبوة - هي هيئة التوحيد في الفعل [1].

يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «**الآداب حُللٌ مجدّدة**»[2]. ومعنى كلامه عليه السلام أن الآداب حُللٌ مجدّدة «**اى لا يبلى، بل يزداد بكثرة التجارب والممارسة كلّ وقت جدّة. وعنى بالآداب هاهنا آداب الشرع الّتى هي مكارم الاخلاق**» [3].

والمحصّل من كلامه كما أنّ الشخص يتزيّن بالحلل كذلك يتزيّن بالآداب مثل العلم وما يتبعه من حسن المجاورة والمعاشرة وأمثالها.

الدروس المستفادة من الآيتين الرابعة والخامسة

1. العمل بالأدب علامة العقل، ﴿ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ ... لَا يَعۡقِلُونَ ﴾.
2. إنّ سوء الأدب في التعامل مع القادة الإلهيين هو مورد ذمٍّ من قِبَل الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ ... لَا يَعۡقِلُونَ كَجَهۡرِ.
3. إنّ البيت والأسرة لهم حرمتهم الخاصة ولا يحق لأحد انتهاكها حتى ولو برفع الصوت من خارج البيت فكيف إذا كانت هذه البيوت بيوت الأنبياء عليهم السلام. ﴿يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴾.

(1) ينظر: تفسير الميزان، محمد حسين الطباطبائي، ج6، كلام في معنى الأدب، وهو بحث تفصيلي حول الأدب الذي أدب الله به أنبياءه ورسله عليهم السلام ويقع في عدة فصول، ص 256- 297.
(2) عيون الحكم والمواعظ، علي بن محمد الليثي الواسطي، ص 40.
(3) معارج نهج البلاغة، علي بن زيد البيهقي، ص 399.

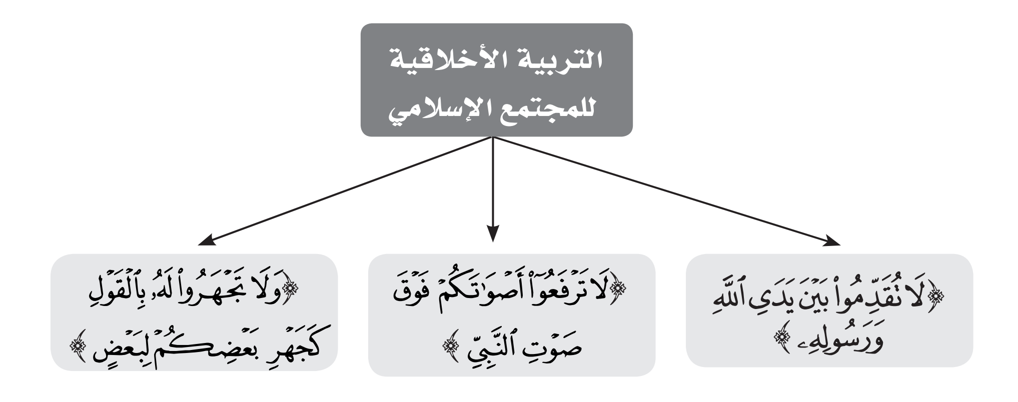
4 . ينبغي احترام أوقات الخلوة والراحة للآخرين. فالنبي ﷺ يحتاج إلى أوقات للراحة والهدوء وينبغي على الآخرين احترام هذه الخصوصيات. ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ صَبَرُواْ﴾.

5 . إنّ المسؤوليـة الاجتماعية مهما تعاظمت لا ينبغـي أن تضعف الاهتمام بالأسرة. ﴿صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخۡرُجَ إِلَيۡهِمۡ﴾.

6 . ينبغي علينا أن لا نيأس من معالجة الأشخاص الذين يسيؤون الأدب مع الآخرين. لأنّ الله تعالى مع كل تقريعه وتوبيخه للذين أساءوا الأدب مع رسوله طرح إمكانية المغفرة والرحمـة لهـم وهذا قد يؤدّي إلـى تغيُّر في سلوكهم، وهذا الأمـر ينبغي أن نضعه في الحسبان عندما نقوم بتأديب الآخرين. ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ صَبَرُواْ.. وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾.

رسالة الآيات (1-5):

إنّ مـا يجـب علينا القيام به هـو أن نربط هذه الآيات بواقعنـا المعاصر فما أحوجنا إلـى التخلُّـق بهـذه الآداب، فلا نقع بمـا يخالـف هـذه الآداب العظيمة، بـأن نسستهزء بسنتـه وتعاليمـه الشريفـة أو لا نتمسّـك بهـا، لأنّ حقيقـة تجسيـد الأدب مـع رسـول الله ﷺ فـي حياته أو بعد مماته هو في التمسّك بسنته الشريفة والتمسّك بالثقلين وهما القرآن الكريم والعترة الطاهرة وبذلك نكون قد حقّقنا المقطع الأول من سورة الحجرات.



۞ **للمطالعة:**

المقدّسات في المفهوم الإسلامي

الآيــة الكريمــة تُبيّن أحد أبرز المقدّسات عند المسلميــن وهي شخصية الرسول الأكـرم محمد ﷺ وعندما نتحدّث عن المقدّسات فنحن نتحدّث عن أمور لها آداب تعاطـي خاصــة تفرضها طبيعتها المقدســة ومصطلح المقدّســات الدينية مصطلح واســع، ويتضمّن كلٍّ مــن الشخصيات الإلهيــة العظيمة كالأنبيــاء عليهم السلام، والأماكن المقدّســة، كالمساجـد، ومراقـد الأنبيــاء والأئمــة المعصوميــن عليهم السلام، والأشياء المقدّســة كالقرآن الكريم والأوقــات الزمنية الخاصة وغيرهــا. وإنّ انتهاك حرمة المقدّسات الدينية والإساءة اليها لها أبعادها الوسيعة الخاصة بها أيضاً.

إنّ جــذور القداســة في المفهــوم القرآني تنطلق من قرب الشــيء إلى الله تعالى فكلّمــا كان الشــيء إلى الله أقرب كانت قداسته أشدّ وأعظــم وهذا يفترض احتراماً وتعامــلاً خاصاً معه، والصورة التي يرسمها القرآن لرسول الله ﷺ تظهر أنّه أقرب الموجــودات إلى الله تعالى، وعليــه فهو أقدس الموجودات بعد الله تعالى بل في كثير مــن الآيات ومنهــا الآية الأولى فــي الحجرات قرنــت بين ذاته ﷺ والــذات الإلهية وبمــا أنّــه لا تشابه بين الــذّات الإلهية وأي ذات أخرى بما فيها الــذّات النبوية، فهذا يعنــي الشؤون التــي يُمثّلها النبي ﷺ فإنّ كانت هذه الحيثيــة هي الحكم فحكمه هو حكـم الله، وإنّ كانت الطاعة فهي طاعة الله تعالــى، وهكذا لأنّه يُمثّل الله؛ فقداسته واحترامه وتوقيره وتبجيله هي من تقديس وتوقير واحترام الله تعالى. وعلى كل حال المقدّسات في الإسلام متعدّدة نشير إلى أهمها:

1 . **الــذّات الإلهيــة المقدّســة**: الله تعالى هو أعلــى ذات مقدّسة في التصوّر القرآني والإسلامــي، بل هــو مصدر القداسة كما قلنــا والمشركون كانــوا يحاولون دائماً مساواة بعض الموجــودات بالله تعالى، كما قال تعالى: ﴿إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ

﴿وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٩٨﴾[1]. والقرآن الكريم ذكر في كثير من آياته الشريفة التسبيح والتنزيه، وذلك ليُعلّمنا أنّه ينبغي علينا تنزيه الذّات الإلهية عن أي عيب ونقص نتصوّره بل حتى اسمه تعالى فضلاً عن ذاته ينبغي لنا تنزيهه ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾[2].

2 . **القرآن الكريم**: فالله تعالى يصف كتابه بأنه عظيم: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ﴾[3]. وهذا يعني أنه ينبغي علينا تعظيمه. وفي آية أخرى بأنه كريم: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ٧٧ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ﴾[4] وهذا يعني أيضاً أنه ينبغي علينا تكريمه. وفي آية ثالثة بأنّه مجيد: ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾[5]. وهذا يعني أنّه ينبغي علينا تمجيده.

3 . **القادة الإلهيون**: كالأنبياء والأولياء والأئمة فالعلاقة مع هؤلاء لها أداب خاصة، ومن أعاظم هؤلاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم فله آداب خاصة قد أشرنا لبعضها، ومن هذه الآداب التصدُّق قبل التحدُّث معه.

4 . **المؤمن**: إنّ للإنسان المؤمن في الإسلام حُرمة وقداسة خاصة عند الله تعالى تفوق حُرمة الكعبة ولهذه الحُرمة الخاصة أحكام حدّدتها الشريعة ومنها ما جاء في سورة الحجرات.

---

(1) سورة الشعراء، الآيتان 98– 99.

(2) سورة الأعلى، الآية 1.

(3) سورة الحجر، الآية 87.

(4) سورة الواقعة، الآيات 77 – 79.

(5) سورة ق، الآية 1.

4

منهج تلقّي الأخبار

أصول الآداب الاجتماعية

مفاهيم محورية:

- العبرة بالوثوق بمضمون الخبر.
- هل الآية مختصة بالنبأ؛ أي هل يختص وجوب التبيُّن بالنبأ.
- لماذا تحدّثت الآية عن خصوص الفاسق؟
- الدروس المستفادة الآية.
- التثبُّت والتبيُّن من الأخبار وعلاقته بالتربية الأخلاقية للمجتمع الإسلامي.

النص القرآني

قــال الله تعالــى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾

تمهيد

تتحدّث هذه الآية عن أهمّ الآداب الجماعية والمؤثِّرة على بنية المجتمع، وهو تلقّي الأنبــاء والأخبار وتناقلها فيما بينهم، وهنا يجب أن تؤخذ هذه الأنباء من مصادرها الموثــوق بها وأمّــا إذا كانت من فاسق أو لم تكن ممّا يوثق بــه فلا يمكن الركون إليه والأخـذ منه. ولـذا ينبغي الاستقصاء عند نقل الخبــر. وإذا لاحظنا هذه الآية مع ما تقــدّم فقد كــان النــداء الأول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ لتقرير جهة القيــادة ومصدر التلقّي. وكان النداء الثاني لتقرير ما ينبغي من أدب للقيادة وتوقير. وكان هذا وذلك هــو الأساس لكافة التوجيهــات والتشريعات في السورة. فلا بــد من وضوح المصدر الــذي يتلقّى عنه المؤمنون، ومن تقرير مكان القيــادة وتوقيرها، لتصبح للتوجيهات بعد ذلك قيمتها ووزنها وطاعتها. ومن ثم جاء هذا النداء الثالث يبين للمؤمنين كيف يتلقّون الأنباء وكيف يتصرّفون بها؛ ويُقرّر ضرورة التثبُّت من مصدرها[1].

(1) ينظر: في ظلال القرآن، سيد قطب، ج6، ص 3341.

الآيـة خطـاب من الله – عزّ وجلّ – للمؤمنين بأنّـه إذا جاءكم فاسق وهو الخارج مـن طاعة الله إلى معصيته «**بنبـأ**» أي بخبر عظيم الشأن «**فتبيّنوا**» صدقه من كذبه ولا تبـادروا إلى العمل بمـا تضمّنه «**أن تصيبـوا قوماً بجهالة**» لأنّـه ربما كان كاذباً وخبره كذباً، فيعمل به فلا يؤمن بذلك.

شرح مفردات الآية

بِنَبَـأٍ: هو نقـل حديث أو شيء آخر من موضع إلى موضع آخر. – وفي الآية – يراد حكاية من مجارى الأمور الماضية وتلاوة ممّا سبق من الأحاديث والقضايا الجارية[1].

فَتَبَيَّنُوا: (بين) وهو بعد الشيء وانكشافه. فالبين الفراق؛ وبان الشيء وأبان إذا اتضـح وانكشف. ﴿إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ﴾. ﴿إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ﴾[2]. كونوا على حال الانكشاف وتكون الوقائع والأمور منكشفة عندكم[3].

بِجَهَالَـةٍ: الجهل هـو ما يخالف العلم، وفقـدان العلم إمّا بالنسبـة إلى المعارف الإلهيّة، أو علوم ظاهريّة، أو بالنسبة إلى تكاليف شخصيّة، وكلّ منها إمّا في موضوع كلّـي، أو جزئـيّ. وخصوصيّات مفهوم الجهالـة تختلف باختلاف الصيـغ والموارد: يقال: جهل جهالة، وإذا أريد الإشارة إلى إدامة الجهل فيقال: جاهل، وفي مورد أريد قبـول جاهل فيقـال: تجاهل. وإذا أريد الطلب فيقال: استجهـل. ثمّ إنّ الجهل يلازم الاضطـراب، كمـا أنّ العلـم واليقين يلازمـان الطمأنينة، فتفسيـر الجهل بالحركة والاضطراب تفسير باللازم والأثر[4].

نَادِمِينَ: ندم إذا حزن أو فعل شيئاً ثمّ كرهه[5]. النَّدْمُ والنَّدَامَةُ: التَّحَسُّر من تغيُّر رأي في أمر فَائِتٍ. قال تعالى: ﴿فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّـٰدِمِينَ﴾[6].

---

(1) التحقيق في كلمات القرآن الكريم، حسن المصطفوي، ج12، ص 14.
(2) سورة النساء، الآية 94.
(3) التحقيق في كلمات القرآن الكريم، حسن المصطفوي، ج1، ص 368.
(4) التحقيق في كلمات القرآن الكريم، حسن المصطفوي، ج2، ص 132.
(5) المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي، أحمد بن محمد المقري الفيومي، ج2، ص 598.
(6) مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، ص 796.

المعنى التفصيلي

يقول العلامة الطباطبائي (رض) ومعنى الآية: «يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بخبر ذي شأن فتبيّنوا خبره بالبحث والفحص للوقوف على حقيقته حذر أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصيروا نادمين على ما فعلتم بهم».

وقد أمضى الله سبحانه في هذه الآية أصل العمل بالخبر وهو من الأصول العقلائية التي يبتني عليه أساس الحياة الاجتماعية الإنسانية، وأمر بالتبيُّن في خبر الفاسق وهو في معنى النهي عن العمل بخبره، وحقيقته الكشف عن عدم اعتبار حجيته وهذا أيضاً كالإمضاء لما بنى عليه العقلاء من عدم حجية الخبر الذي لا يوثق بمن يخبر به وعدم ترتيب الأثر على خبره.

توضيح ذلك: أنّ حياة الإنسان حياة علمية يبني فيها سلوكه طريق الحياة على ما يشاهده من الخير والشر والنافع والضار والرأي الذي يأخذ به فيه، ولا يتيسّر له ذلك إلا فيما هو بمرأى منه ومشهد، وما غاب عنه مما تتعلّق به حياته ومعاشه أكثر ممّا يحضره وأكثر، فاضطّر إلى تتميم ما عنده من العلم بما هو عند غيره من العلم الحاصل بالمشاهدة والنظر، ولا طريق إليه إلا السمع وهو الخبر.

فالركون إلى الخبر بمعنى ترتيب الأثر عليه عملاً ومعاملة مضمونة معاملة العلم الحاصل للإنسان من طريق المشاهدة والنظر في الجملة مما يتوقّف عليه حياة الإنسان الاجتماعية توقّفاً ابتدائياً، وعليه بناء العقلاء ومدار العمل.

فالخبر إن كان متواتراً أو محفوفاً بقرائن قطعية توجب قطعية مضمونه كان حجّة معتبرة من غير توقّف فيها، فإن لم يكن متواتراً ولا محفوفاً بما يفيد قطعية مضمونه وهو المسمّى بخبر الواحد اصطلاحاً كان المعتبر منه عندهم ما هو الموثوق به بحسب نوعه، وإن لم يفده بحسب شخصه، وكل ذلك لأنّهم لا يعملون إلا بما يرونه علماً وهو العلم الحقيقي أو الوثوق والظنّ الاطمئناني المعدود علماً عادة.

إذا تمّهـد هذا فقوله تعالى في تعليل الأمـر بالتبيُّن في خبر الفاسق: ﴿أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٍ﴾ إلـخ، يفيـد أنّ المأمـور به هو رفـع الجهالة وحصـول العلم بمضمون الخبـر عنـد ما يراد العمل به وترتيـب الأثر عليه، ففي الآية إثبات مـا أثبته العقلاء ونفي ما نفوه في هذا الباب، وهو إمضاء لا تأسيس[1].

بحث حول الآية

العبرة بالوثوق بمضمون الخبر:

والجديـر بالذكـر أنّ المسألة المهمّة هنا هي الوثـوق والاعتماد على الخبر ذاته، غايـة مـا في الأمر قد يحصل هـذا الوثوق من جهة الاعتماد علـى الشخص المخبر تـارة، وتارة من القرائـن الخارجية... ولذلك فإنّنا قـد نطمئن إلى«**الخبـر**» أحياناً وإن كـان «**المُخبِر**» فاسقـاً... فعلى هذا الأساس، فإنّ هـذا الوثوق أو الاعتماد كيف مـا حصـل، سواء عن طريق العدالـة والتقوى وصدق القائل، أم عـن طريق القرائن الخارجيـة، فهو معتبر، وسيرة العقـلاء التي أمضاها الشـارع الإسلامي مبنية على هذا الأساس.

فما قرّرته الآية هو سُور الأمان للمجتمع فهو أدب جماعي، يُقرِّر للجماعة المؤمنة كيف يتلقّون الأنباء، فإنّهم لا يشاهدون جمعاء حضور المباشرة، اللهم الا قلة قليلة، ومن ثم تبقى الكثرة الكثيرة غائبة عن الإدراك المباشر ومن المستحيلات في الحياة الاجتماعيـة الاستقلال بما يشاهده الإنسان، دون استغلال لما يشاهده غيره فيشهد بـه، وهـذه الآية كعديـد أمثالها، تنهى عن الركـون إلى أنباء الفاسقيـن إلا إذا تبيّن فيهـا صدق يجعله علماً كسائر العلم، الذي يعتمـد عليه المؤمنون العقلاء، والعقلاء المؤمنون.

---

(1) الميزان فى تفسير القرآن، محمد حسين الطباطبائي، ج18، ص 312.

إنّ الأخذ والرفض في الأنباء ليسا فوضى دون حساب، وإنّما لكلٍّ ميزان عادل، فلا يؤخذ خبر الفاسق إلا أن يتبيّن صدقه، ولا يرفض خبر العادل إلا إن تبيّن خطأه، ثم لنا بيـن الأخذ والرفض وقفة لو لم يتبيّن لا صدق ولا كذب، ليس ذكر الفاسق هنا إلا لأنه أظهـر مظان الكذب، فليشمل الجاهل والناسي والساهـي وأضرابهم ممن يتطرّق إلى إنبائهم خلاف الصدق وإن كانوا غير عامدين أو أنّ الفاسق يشملهم كلّهم، لأنّه خروج عما يحقّ من طاعة الله، علماً أو عملاً، نقلاً للأنباء أو تنقلاً أم ماذا، فمن يجهل صحة النبأ ثم ينقله كنبأ صادق، إنّه فاسق علمياً ولو كان زاهداً، بل وعملياً إذ لا يجوز هكذا نقـل مغـر لمن يتقي الله، وكذلك مـن ينسى أو يسهو، أو يتقبّل الأنبـاء دون تبيُّن، فإنّه فاسـق في نقله إلا أن يُبيّـن حقيقة الحال، فيتبيّن للمنقول له أنّه ينقله مراعياً شرائط الوثـوق مجانباً كل جوانـب الفسوق في نقله هذا النبـأ، والا فتبيّنوا بغية حصول العلم والاطمئنان، مخافة: ﴿أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾»[1].

1. هـل الآيـة مختصّة بالنبأ أي هـل يختصّ وجـوب التبيّن بالنبـأ؟ بالخبر العظيم الشأن، الذي جاء به فاسق، إذا كان في اتباعه دون تبين إصابة قوم بجهالة فندم على هذه الإصابة؟

كمـا نلمح من هذه الآيـة، فلا يجب- إذا- تبيّن في الأخبـار غير العظيمة، أو في العظيمة التي يجيء بها المجهول فسقه أو عدله، أو التي يجيء بها فاسق وليست فيها إصابة قوم بجهالة أم ماذا! في الحقّ إنّ آية النبأ لا تُنبئ إلا عمّا أنبأت، لكنّما الآيات فـي حرمـة اتباع الظنّ واقتفاء ما ليس لك به علـم، تُعمّم وجوب التبيُّن حتى يحصل العلـم والاطمئنـان أيّاً كان الخبر ومـن أي، إلا إذا كان الاطمئنـان- أو النوعي منه- حاصلاً بالإخبار ووجوب التبيُّن في آيتنا في مورد لا ينفي عدمه في سواه، لنزول الآية في مورد خاص بالغ الأهمية، ثم الآيات الأخرى تعمّ فلا تناحر في البين[2].

---

(1) ينظر: الفرقان فى تفسير القرآن بالقرآن، محمد الصادقي الطهراني، ج27، ص 229.

(2) الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، محمد الصادقي الطهراني، ج27، ص 230.

2. لمـاذا تحدّثـت الآية عن الفاسق مع أنّ وجوب التثبُّـت والتبيُّن قد تشمل غيره كما تقدّم؟.

لعلّ الآية خصّصت الفاسق لأنّه مظنّة الكذب. وحتى لا يشيع الشك بين الجماعة المسلمـة في كـل ما ينقله أفرادهـا من أنباء، فيقع مـا يشبه الشلل فـي معلوماتها. فالأصـل فـي الجماعة المؤمنـة أن يكون أفرادها موضـع ثقتها، وأن تكـون أنباؤهم مصدَّقة مأخوذاً بها. فأمّا الفاسق فهو موضع الشك حتى يثبت خبره. وبذلك يستقيم أمر الجماعة وسطاً بين الأخذ والرفض لما يصل إليها من أنباء. ولا تعجل الجماعة فـي تصرُّف بناءً على خبر فاسق. فتصيـب قوماً بظلم عن جهالة تسرُّع. فتندم على ارتكابهـا ما يُغضب الله، ويُجانب الحقّ والعدل في اندفاع[1]. ولعل ورود كلمة «**فاسق**» إشارة إلى أنّ المقولة إنّما يُنظر فيها إلى صاحبها الذي وردت منه، فإن كان من أهل الإيمـان والثقة استمع لقولـه، وأُخذ به، وإن كان ممّن يُتّهـم، استمع إليه ووضع قوله موضـع التمحيص، فلا يحكـم على قوله بالردّ ابتداء، فقد يكـون فى قوله صدق، أو شيء من الصدق ينتفع به المسلمون.

وإنّ دوافـع الفاسق ومنطلقاته شيطانية فقد يكذب أو يمشي بنميم أو ينقل جانباً من الحقيقة ويسكت عن سائر الجوانب، فإذا قبلناه على علّاته فسوف نقع في أخطاء جسيمة، أبرزها إثارة الفتن في المجتمع.

3. مـن هو الفاسق؟ هو باختصار الذي تجـاوز الحدود الالهية وهذا لا يمكنه أن يكون موجّهاً للأمة، ومجرّد الاستماع إلى نبأه دون تحقيق وتثبيت يجعله في مقام التوجيه.

إنّ مفـردة «**فسق**» وردت في القرآن الكريـم أربع وخمسون مرّة ضمن موضوعات ومصاديق مختلفة منها[2].

---

(1) ينظر: في ظلال القرآن، سيد قطب، ج6، ص 3342.

(2) يراجـع سـورة النمل، الآية 12. سـورة المائدة، الآية 47. سـورة النور، الآية 4. سورة العنكبـوت، الآية 34. سورة المائدة، الآية 3. سورة التوبة، الآية 24.

والنتيجة: أنّ الفسق: هو الخروج عن مقرّرات دينيّة أو عقليّة أو طبيعيّة لازمة. ومن مصاديقه: خروج العبد عن أمر الربّ، وعن طاعته، وعن الأحكام والمقرّرات الإسلاميّة، وعن المقرّرات الأخلاقيّة المسلَّمة كالحسد والبخل والتكبّر والطمع إذا كانت صريحة واضحة، وعن ضوابط طبيعيّة لازمة كما في الرطبة الخارجة عن القشر...[1].

آثار أخبار الفاسقين على المجتمع:

- إنّ أكثر الصراعات الاجتماعية التي تعصف بالمؤمنين منشؤها الفاسقون الذين لا تروق لهم وحدة المؤمنين فيثيرون الفتنة بينهم. وحين نتفكّر في واقع المسلمين اليوم نجد أنّ الذين يُذكّون نار الصراع بينهم هم في الأغلب أبعد الناس عن القيم، وقد تكون سوابقهم السيئة وأحقادهم ضد الإسلام، وخشيتهم من الفضيحة هو السبب في تطرُّفهم ضد هذه الطائفة أو تلك. وإذا استطاع المؤمنون إبعاد أثر الفسقة عن تجمُّعاتهم قدروا على سدّ أكبر ثغرة تُهدّد كيانهم!.
- واليوم حيث يتعرّض المسلمون لغزو ثقافي وهجمة إعلامية عبر ألوف المؤسّسات الدعائية المتنوّعة ترانا أحوج ممّا مضى إلى تنفيذ هذه الوصية الإلهية، أن نتبيّن ما يقولون لأنّهم فسقة لا يتّقون الله فيما يقولون، هذه الوكالات الخبرية التي تموّلها وتقودها الرساميل والأنظمة هل تلتزم بالصدق؟ هذه الصحف الصفراء التي تنطق باسم المترفين والطغاة هل ترعى جانب الحق؟ هذه الإذاعات التي تصبّ في آذاننا وأذهاننا كل يوم شلّالاً من المعلومات المختلطة هل نضمن صدقها؟ كلا.. إذاً لا بدّ من التثبُّت، ولكن كيف؟ لأنّ حجم الأفكار والأخبار التي تُبثّ عبر أجهزة الدعاية كبير، فإنّ قدرة الأفراد

---

(1) التحقيق في كلمات القرآن الكريم، حسن المصطفوي، ج9، ص 89.

علــى التثبُّت منها محدودة، فـلا بدّ إذاً من وجود مؤسّســات موثوق بها تقوم بــدور المصفاة وتنتقي السمين وتُقدِّمه للمؤمنين.هــذه المؤسّسات قد تكون معاهــد ومراكز للدراسات والبحــوث، وقد تكون تنظيمــات دينية، وقد تكون خبراء أكفاء يرجع إليهم المؤمنون في توثيق المعلومات، وقد تكون مؤسّسات إعلامية بديلة، إذاعة صادقة، صحيفة ملتزمة أو وكالة للأنباء موثوق بها.

- إنّ خبر العادل حجّة. قالوا بالرغم من أنّ الآية لا تدلّ على حجيّة خبر العادل صراحة وبصورة مباشرة، بل بما يُسمّى لديهم بمفهوم الوصف الذي لا حجيّة فيــه عندهــم، إلا أن فائدة بيان الوصف هنا ليســت إلا أنّ الحكم يدور مداره مثل أن نقول: إذا تعاملت مع أهل الباطل فاشهد عليهم، وإذا ذهبت إلى زيارة المريض فتجنّب مواكلتــه، وإذا زرت بلاد الكفر فتزوّد بالبوصلة لصلاتك.. وما أشبه.

ماذا يعني التبيُّن؟

يبدو أنّه يشمل كلّ أسلوب يؤدّي إلى حالة الوضوح عند الإنسان، ولأنّ الله تعالى قد خاطــب عامّة المؤمنين بهذه الكلمة، فإنّ مفهوم التبيُّن يكون عرفياً أيضاً، بمعنى أنّ كلّ ما تطمئنّ إليه نفس الإنسان العادي حتى لا يبقى فيه شك معقول أو ارتياب يعتني بــه العقــلاء - كاف وحجّة عند الله فــي الموضوعات. فسواء أكانــت البينة (شهادة عدلين) أو الشياع المفيد للطمأنينة، أو شهادة الخبراء من خلال مجموعة متراكمة مــن الشواهد والآثــار أو خبر العاقل العــادل فإنّه من التبيُّن عند العقــلاء.. على أنّ العقــلاء لا يعتمدون على بعض هذه الأدلة إذا كانــت الظروف المحيطة باعثة للشك الحقيقــي، مثلاً: الشياع الــذي يُعتقد أنّ منشأه شائعة مغرضــة لا يورث طمأنينة في النفســ فهــو إذاً ليس بحجّة. كما أنّ خبر العادل فيمــا لا يخفى عند غيره يرتاب فيه العقلاء إذا انفرد به، كما لو أُنبأنا بأنّ الإذاعة الفلانية نشرت هذا الخبر، علماً بأنّها

لو نشرته لسمع أكثر الناس وتناقلوه.. أو أُخبر برؤية الهلال في ليلة صافية ممّا نعلم أنّه لو رآه هذا العادل لرآه غيره أيضاً، وإذ لم يشهد برؤيته غيره فإنّ العقلاء يشكّون في كلامه. كذلك الحـوادث الخطيرة لا يعتمد العقلاء عادة على الخبر الواحد فيها مثـل الحروب.. عموماً: حالة التبيُّن تختلف عنـد العقلاء حسب الموضوعات فلا بدّ مـن الالتفات إلى ذلك، ولعـلّ الحكمة التي سيقت في خاتمـة الآية هي محور الحكم فعلينا أن ندور مداره، ونتفكّر كيف نتجنّب الوقوع في الجهالة والندم[1].

خطر الجهالة على المجتمع:

الجهالـة من أخطر الأمراض التي تُصيب المجتمع، وكلّما سرت في بنيانه فتكت بـه ودائماً هناك مستفيدون مـن جهالة الناس وعلى رأس هـؤلاء القوى الاستكبارية والاستعمارية، فالاستعمار من أكبر المستفيدين من جهل القاعدة الشعبية، الاستعمار الفكـري والثقافي والعسكري حيث يعتبر جهل الأمة أرضية خصبة لاستيلائه عليها، أما مع وعيها فلا يمكن له أن يُخضعها ويستعمرها، وهذا ما دلّت عليه الشعوب الحيّة فإنّها لا تقبل بالذلّ والاستعباد والاستعمار.

المستفيـد الثانـي من جهـل الأمـة أهل المصالـح الماديـة والمعنويـة حيث إنّ دكاكينهـم لا يكـون لهـا رواج وسـوق إلا مع جهل الأمـة وترويج القصصـ الخرافية والـرؤى والمنامات ونقل المعجزات الموضوعة والأحاديث الكاذبة بحجة الدفاع عن الديـن والمذهب والخوف عليهمـا، لذلك يضطّربون من أيّ بحث علمي تؤدّي نتيجته إلـى خلاف ما اعتـادوا عليه وحملوه في أذهانهم. وهـؤلاء موجودون من زمن الأئمة إلى يومنا هذا.

---

(1) من هدى القرآن، محمد تقي المدرسي، ج13، ص 377– 397.

الدروس المستفادة من آية النبأ [1]

1. ينبغـي على المؤمنين أن يكونوا أهل تحقيق وتثبُّت ولا يطلقوا الكلام على عواهنه. ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ... فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾.
2. إنّ التمسُّك بالآية الكريمة وعدم الأخذ بقول الفاسق من أحد أهمّ الطرق المانعة للفتنة بين المسلمين. ﴿إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ﴾.
3. إنّ أرضية الفتنة تنشأ من خلال: سعي المنافقين لإحداث الفتنة.
4. الأصـل فـي الإسلام هـو الاعتماد علـى الآخرين وعـدم سوء الظنّ بهـم؛ ولكنّ الفاسقيـن خارجـون عن هذا الأصـل، هذا من جهـة، ومن جهة أخـرى خطورة الخبر «**النبأ**» تستدعي التثبُّت والتبيُّن ﴿إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ ... فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾. ولكن لا بدّ من التنبيه أنّ آية النبأ في صدد بيان وجوب التثبُّت والتبيُّن من النبأ في حال كونه فـي معرض العمل، فينبغي تقديم التثبُّت والتبيُّن قبـل ترتيب أيّ أثر على الخبر، أمّـا إذا لـم يكن الخبر في معرض العمل وليس مورداً لترتيـب الآثار عليه، فهذا المورد ليس خارجاً عن وجوب التثبُّت والتبيُّن بل لعلّه داخل في الآية الثانية عشر الآتية، فلا يجوز التجسُّس على الآخرين لمعرفة صحة وصدق كلامهم من عدمه، لتصنيـف النـاس علـى أنّ فلاناً صادقاً وفلانـاً كاذب، فوجـوب التثبُّت يجب في المـوارد التي تشملها آية النبأ وهي الأنبـاء والأخبار التي لها طابع وأثر اجتماعي لا فردي.
5. في الآية الثانية عشر الآتية قال تعالى ﴿ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞ﴾ وفـي هذه الآية ينبغي بل يجب الفحص والتثبُّت والتبيُّن وهو ينافي عدم سـوء الظـنّ بالآخرين، فكيف يمكـن الجمـع بينهما؟. الآية الآتية تتحـدّث أنّه

(1) ينظـر: تفسيـر النـور (فارسي)، محسن قرائتي، ج9، ص 171– 172. وتفسير سورة حُجـرات (فارسي)، رضا الصدر، ص 236– 242.

مـن أخلاقيات المسلـم أن لا يُسيء الظـنّ بالآخرين وأن يتجنّـب هذه الصفة القبيحـة، فهي في صدد الكلام عن صِرْف النظـرة الإيجابية للأفراد. أمّا آية النبـأ فهي فـي صدد بيان وجوب التثبُّت والتبيُّن في حـال إخبار الأفراد أو فرد بخبـرٍ ما له أثر عملي وخطير علـى المجتمع أو حتى على الفرد المتلقّي للخبر، فهنـا يجب الفحص لخطورة النبأ الذي يحمله الفـرد، وهذا لا علاقة له بسوء الظـنّ وعدمه، فلو تجرّد الفرد عن الخبر يدخل في عموم قوله تعالى ﴿ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾.

6. ينبغـي علـى المؤمنين أن يسرعـوا في التبيُّن، وذلك لوجود حـرف الفاء في الآية ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾. فـلا بد من دقّـة وتحقيق وجهد شديد في مورد النبـأ، لأنّ التسامح فيـه وفي أمثاله يوجـب خللاً وفساداً وابتـلاء، وقد ينجرّ إلـى اختلال عظيم في المجتمع، كما بيّنت الآيات التي تلي آية النبأ وهي مسألة الفتنة.

7. الفاسـق يحاول دائمـاً إشاعة الأخبار الكاذبة أو المغلوطـة بغية إشاعة الفوضى والفتنة. ﴿جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ﴾.

8. الإيمان يقتضي التثبُّت والتبيُّن ﴿ءَامَنُوٓاْ ... فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾.

9. الفاسـق قـد يُخبـر بأخبـار صادقة والآية لا تنفـي هذا الاحتمـال، ولا تطلب منّا تكذيـب المُخبِـر إذا كـان فاسقاً بل تطلب منّـا التثبُّت والتبيُّن مـن صحة وصدق الخبر ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾.

10. المجتمـع الإسلامي، معرّض دائماً لهجمات الأخبار والدعايات الكاذبة، وعلى أفراد المجتمع أن يتمتّعوا بذكاء ووعي في مواجهة هذه الأخبار. ﴿إِن جَآءَكُمۡ ... فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾.

11. في مجال إدارة الشائعات والأنباء، ينبغي مواجهة الواقعة قبل وقوعها أي القيام بإجراءات وقائية فلذا لكي لا نقع في جهالة وندامة، علينا التحقيق ثم البناء طبقاً لما توصّلنا إليه من نتائج. ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ﴾.

12. الإقدام العجول وعدم التثبُّت من الأخبار هو نوع من الجهل. ﴿بِجَهَٰلَةٍ﴾. إنّ العمل بالأوامر الإلهية يمنع من وقوع الناس في الندم والحسرة على أعمالهم ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ ... نَٰدِمِينَ﴾.

13. المقياس الذي يمكن اعتماده من خلال آية النبأ هو عدم الندامة ﴿نَٰدِمِينَ﴾.

التثبُّت والتبيُّن من الأخبار وعلاقته بالتربية الأخلاقية للمجتمع الإسلامي:

إنّ هذا المقطع يُمثّل جزءاً لا يتجزّء من آداب وأخلاقيات المجتمع المؤمن بالله ورسوله، والذي لا تستقرّ أركانه إلا بتمام أضلاع هذه السورة المباركة، ففي هكذا مجتمع لا مكان للمرجفين والمشكّكين الذين يفترون الكذب والإشاعات المغرضة الهادفة إلى إضعاف وتفكيك بنية المجتمع الإيماني. إنّه مجتمع قائم على أسس ومبادىء تضمن أمنه وسلامته تُحصّنه من أي ريح عاتية تعصف به. وإنّ أيّ تفريط بهذه المبادىء سيُعرّض أمن وسلامة المجتمع لخطر الفتنة ويؤجّج الصراعات بين أبنائه ويُفقده أحد أهمّ أسوار الأمان. وإنّ تجاهل وجود القيادة الحكيمة والعادلة في المجتمع سيؤدّي بهذا المجتمع إلى الفوضى والفساد العقائدي والأخلاقي، وإنّ أمِنَ بعض أفراده من ذلك فإنّ الخلاص الفردي لا يؤدّي إلى الأمان المجتمعي، ولذا ينبغي تربية المجتمع على هذه الأخلاق التي تُمثّل جزءاً رئيساً من أجزاء التربية الأخلاقية للمجتمع الإسلامي.

إنّ هذه التربية تعني أن لا ننساق وراء كلّ دعاية وإشاعة وتقوّل، فكم من كلام رُتّبت عليه آثار ومواقف وتصرّفات، وعند البحث عن مصدره ومعرفة مدى صحته، يتبيّن أنه كلام مختلق وكذب لا أصل له. فإنّ من ينساق وراء الكذب من دون تبيُّن سيكون مورد للوم من قِبَل الله ورسوله ومجتمعه الإيماني، وإنّ من يبني على الأخبار الصادقة سيكون مورد مدح من الله ورسوله ومجتمعه وسيضمن سلامة وأمن هذا المجتمع الذي هو أمانة في أعناق كل أفراده وهم مسؤولون عن ذلك يوم القيامة.

۞ للمطالعة:

خطورة الأخبار الكاذبة والشائعات

إنّ كثيراً من الأحداث المؤلمة والصراعات المدّمرة التي تقع في عالمنا المعاصر وقد وقعت في التاريخ الإسلامي من قتل وسفك دماء ونهب وتدمير، إنّما هي بسبب الإشاعات والأكاذيب التي يروّجها المنافقون والمندسّون في المجتمع الإيماني، بُغية تفكيكه وهدم عُراه وتقويض أركانه؛ فما أحوجنا لأخلاقيات هذه السورة المباركة وأن نكون على حذر دائم من أخبار هؤلاء المنافقين، خصوصاً أنّنا في مجتمع اختلطت فيه الموازين، ويصعب فيه التمييز بين الحق والباطل، فقد ننخدع ببريق بعض الشخصيات ونأخذ بكلامه ونبني عليه تصرّفات ومواقف معيّنة ثم يتبيّن لنا الخلل الكبير الذي وقعنا فيه بسبب هذا الإنسان أو المحطة الفلانية لأنه كان ظاهره وديعاً كالحمل، ولكن حقيقته كالثعلب في روغانه، والعقرب في لدغاتها. فالمطلوب التثبُّت ثم التثبُّت ثم التثبُّت... فالإشاعة التي يُعرّفها بعضهم بأنّها: «الأحاديث والأقوال والأخبار التي يَتناقلُها الناس، والقَصص التي يَروونها، دون التثبُّت مِن صحَّتها، أو التحقُّق مِن صِدقِها»، ويكون منشأ هذه الإشاعة – غالبًا –: خبرًا مِن شخص، أو خبرًا مِن جريدة، أو مِن مَجلَّة، أو خبرًا من إذاعة، أو خبرًا من تلفاز، أو خبرًا من رسالة خطِّية، أو خبرًا مِن شَريط مُسجَّل». إنّ لهذه الإشاعة آثاراً متعددة فهي تؤثّر على سَعادة الفرد وأمنِه النفسي، تؤثِّر على الأسرة: فكم من أسرٍ تفكَّكتْ مِن جرَّاء هذه الإشاعات، وكم مِن بيوت هُدِّمت، وكم من أموال ضُيِّعت، وأطفال شُرِّدت؛ كل ذلك مِن أجل إشاعة من مُنافقٍ أو كذَّاب، وتؤثّر على العلاقات والوشائج بين أفراد المجتمع الواحد، وإنّ الله تعالى ومن خلال هذه السورة المباركة وضع أسسًا ومعاييرَ لإقامة المجتمع، ومِن هذه الأُسس والمعايير أن تَسُود روح الحبِّ والأُخوَّة والسلام بين أفراد المجتمَع؛ فـ«المسلم أخو المسلم؛ لا يظلمه، ولا يَخذله، ولا يُسلمه»،

و «**المؤمـن للمؤمـن كالبُنيـان؛ يشـدُّ بعضـه بعضًا**»، هذه هي الـروح التي أراد اللّه تعالى أن يبثَّها في هذه السورة ويحثّ على اتباعه، أمّا أن تنشأ العلاقات على الفُرقة والتنــازُع والاختِلاف والإفساد بين الناس، فهذا مــا حاربه الإسلام، والإشاعة سبب رئيسـ لبــثِّ هذه الأخـلاق المذمومة التي نهــى عنها الإسلام. وقد حـدّد اللّه تعالى فــي القرآن الكريم منظومة ردعية متكاملة لمحاربة الشائعات تبدأ بالتربية النفسية للأفــراد، إلى العلاجات الوقائية والردعية في مواجهة هذه الأخبار، ومنها ما حدّده في هذا المقطع من السورة.

5

حب الإيمان وبغض الكفر

مفاهيم محورية:

- وجود رسول الله ﷺ رحمة للأمة.
- الله حبّب إليكم الإيمان.
- الدروس المستفادة من الآية.
- ما الفرق بين الكفر والفسوق والعصيان؟
- الدروس المستفادة من الآية.

النص القرآني

قال الله تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ٧ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾.

تمهيد

هاتان الآيتان مرتبطتان بالآية السابقة التي تحدّثت عن الأدب الجماعي في نقل الأنباء والتثبُّت في قبولها وأن لا ينساق المؤمن وراء كل خبر يسمعه سواء كان مرتبطاً بالدين في الجانب العقدي أو الفقهي أو الأخلاقي أو التاريخي أو في سائر الأخبار الاجتماعية أو السياسية أو غيرها ممّا هو متعلّق بالحياة.

والآية تُبيّن أنّ وجود رسول الله ﷺ بين ظهراني الأمة خير وبركة ورحمة وحصن منيع لها عن الانحراف، فمتى ما حصل زيغ وانحراف فسوف يُقَوّم اعوجاجها كما أنّه أمان لها من نزول العذاب كما قال القرآن الكريم: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾[1].

---

(1) سورة الأنفال، الآية 33.

شرح مفردات الآية

لَعَنِتُّمْ: أصل صحيح يدلّ على مشقّة وما أشبه ذلك، ولا يدلّ على صحّة ولا سهولة. قال الخليل: **العنت**: المشقّة تدخل على الإنسان وقال الزجّاج: العنت في اللغة: المشقّة الشديدة(1). والأصل في العنت هو الوقوع في مشقّة مع اختلال.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ وفي قبالهم رسول الله ﷺ وهو يحبّ نظم أموركم وصلاحها، وعزيز عليه أن تكونوا في هوان وخبال وأن تقعوا في مشقّة واختلال(2).

حَبَّبَ: هو الوداد والميل الشديد، ويقابله البغض والتنفّر(3).

وَزَيَّنَهُ: الزِّينَةُ الحقيقيّة: ما لا يشين الإنسان في شيء من أحواله لا في الدنيا، ولا في الآخرة، فأمّا ما يزينه في حالة دون حالة فهو من وجه شين، والزِّينَةُ بالقول المجمل ثلاث: زينة نفسيّة كالعلم، والاعتقادات الحسنة، وزينة بدنيّة، كالقوّة وطول القامة، وزينة خارجيّة كالمال والجاه. فقوله: ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمْ﴾، فهو من الزّينة النّفسيّة...(4).

الْكُفْرَ: هو الستر والتغطية، يقال لمن غطّى درعه بثوب: «**قد كفر درعه**» (5). أنّ الأصل الواحد في المادّة: هو الردّ وعدم الاعتناء بشيء. ومن آثاره: التبرّي، المحو، التغطية. ومن مصاديقه: الردّ وعدم الاعتناء بالإنعام والإحسان، الردّ وعدم الاعتناء والتوجّه إلى الحقّ في أيّ مرتبة كان(6).

(1) معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكريا (ابن فارس)، ج4، ص 150.
(2) التحقيق في كلمات القرآن الكريم، حسن المصطفوي، ج8، ص 235.
(3) (م.ن)، ج2، ص 152.
(4) التحقيق في كلمات القرآن الكريم، حسن المصطفوي، ج4، ص 377.
(5) معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكريا (ابن فارس)، ج5، ص 191.
(6) التحقيق في كلمات القرآن، ج 10، ص 79.

وَالْفُسُوقَ: فسق الرطب إذا خرجت عن قشره. فسق فسوقاً من باب قعد: «خرج عن الطاعة، والاسم الفسق. ويقال أصله خروج الشيء من الشيء على وجه الفساد، يقال فسقت الرطبة إذا خرجت من قشرها، وكذلك كلّ شيء خرج عن قشره فقد فسق. الفسق الترك لأمر الله. وكذلك الميل عن الطاعة إلى المَعصية، كما فسق إبليس عن أمر ربّه»[1].

الْعِصْيَانَ: عصى عصياناً إذا خرج عن الطاعة وعصى:يدلّ على الفرقة. والعاصي:الفصيل إذا عصى أمّه في اتّباعها. والعصيان:خلاف الطاعة،عصى العبد ربّه إذا خالف أمره[2].

الرَّاشِدُونَ: الرشد: الصلاح وهو خلاف الغيّ والضلال وهو إصابة الصواب. والاهتداء إلى الخير والصلاح. فالهداية ضدّ الضلالة، كما أنّ الرّشد ضدّ الغيّ، وهو الانهماك في الفساد. وقوله ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ أي الَّذين يقوم الرشد بهم[3].

المعنى الإجمالي

قوله: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ عطف على قوله في الآية السابقة: ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ وتقديم الخبر للدلالة على الحصر، والإشارة إلى ما هو لازمه فإنّ اختصاصهم بكون رسول الله ﷺ فيهم لازمه أن يتعلّقوا بالرشد ويتجنّبوا الغي ويرجعوا الأمور إليه ويطيعوه ويتبعوا أثره ولا يتعلّقوا بما تستدعيه منهم أهواؤهم.

فالمعنى: ولا تنسوا أن فيكم رسول الله، وهو كناية عن أنه يجب عليهم أن يرجعوا الأمور ويسيروا فيما يواجهونه من الحوادث على ما يراه ويأمر به من غير أن يتبعوا أهواء أنفسهم.

---

(1) راجع: مصباح اللغة للفيوميّ، مقاييس اللغة، لابن فارس، مادة فسق.
(2) راجع: مصباح اللغة للفيوميّ، مقاييس اللغة، لابن فارس، لسان العرب لابن منظور، مادة عصى.
(3) التحقيق في كلمات القرآن، ج4، ص 141.

وقوله: ﴿لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ﴾ أي جهدتم وهلكتم، والجملة كالجواب لسؤال مقدّر كأنّ سائلاً يسأل فيقول: لماذا نرجع إليه ولا يرجع إلينا ولا يوافقنا؟ فأجيب بأنه ﴿لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ﴾.

وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ﴾ استدراك عمّا يدلّ عليه الجملة السابقة: ﴿لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ﴾ من أنهم مشرفون بالطبع على الهلاك والغي فاستدرك أنّ الله سبحانه أصلح ذلك بما أنعم عليهم من تحبيب الإيمان وتكريه الكفر والفسوق والعصيان.

والمراد بتحبيب الإيمان إليهم جعله محبوباً عندهم وبتزيينه في قلوبهم تحليته بجمال يجذب قلوبهم إلى نفسه فيتعلّقون به ويعرضون عما يُلهيهم عنه.

وقوله: ﴿وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ﴾ عطف على ﴿حَبَّبَ﴾ وتكريه الكفر وما يتبعه إليهم جعلها مكروهة عندهم تتنفّر عنها نفوسهم، والفرق بين الفسوق والعصيان – على ما قيل – إنّ الفسوق هو الخروج عن الطاعة إلى المعصية، والعصيان نفس المعصية وإن شئت فقل: جميع المعاصي، وقيل: المراد بالفسوق الكذب بقرينة الآية السابقة والعصيان سائر المعاصي.

وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ بيان أنّ حبّ الإيمان والانجذاب إليه وكراهة الكفر والفسوق والعصيان هو سبب الرشد الذي يطلبه الإنسان بفطرته ويتنفّر عن الغي الذي يقابله، فعلى المؤمنين أن يلزموا الإيمان ويتجنّبوا الكفر والفسوق والعصيان حتى يرشدوا ويتّبعوا الرسول ولا يتّبعوا أهواءهم.

ولمّا كان حبّ الإيمان والانجذاب إليه وكراهة الكفر ونحوه صفة بعض من كان الرسول فيهم دون الجميع كما يصرح به الآية السابقة، وقد وصف بذلك جماعتهم تحفّظاً على وحدتهم وتشويقاً لمن لم يتّصف بذلك منهم غيّر السياق والتفت عن خطابهم إلى خطاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ والإشارة إلى من

اتصف بحب الإيمان وكراهة الكفر والفسوق والعصيان، ليكون مدحاً للمتّصفين بذلك وتشويقاً لغيرهم[1].

المعنى التفصيلي

وجود رسول الله ﷺ رحمة للأمة:

فالقرآن يقول: من حسن حظّكم أنّ فيكم رسول الله وهو مرتبط بعالم الوحي، فمتى ما بدت فيكم بوادر الانحراف فسيقوم بإرشادكم عن هذا الطريق، فلا تتوقّعوا أن يطيعكم ويتعلّم منكم ولا تصرّوا وتلحّوا عليه، فإنّ ذلك فيه عنت لكم وليس من مصلحتكم... فمن خلال وجوده المبارك تتصل السماء بالأرض صلة دائمة حية مشهودة؛ فتقول السماء للأرض؛ وتخبر أهلها عن حالهم وجهرهم وسرهم، وتقوّم خطاهم أولاً بأول، وتشير عليهم في خاصة أنفسهم وشؤونهم. ويفعل أحدهم الفعلة ويقول أحدهم القولة، ويسر أحدهم الخالجة؛ فإذا السماء تطلع، وإذا الله - جل جلاله - يُنبئ رسوله بما وقع، ويوجهه لما يفعل وما يقول في هذا الذي وقع.. إنّه لأمر. وإنه لنبأ عظيم. وإنها لحقيقة هائلة. قد لا يحسّ بضخامتها من يجدها بين يديه. ومن ثم كان هذا التنبيه لوجودها بهذا الأسلوب: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ﴾.. اعلموا هذا وقدّروه حقّ قدره، فهو أمر عظيم. ومن مقتضيات العلم بهذا الأمر العظيم أن لا يقدِّموا بين يدي الله ورسوله. ولكنّه يزيد هذا التوجيه إيضاحاً وقوة، وهو يُخبرهم أن تدبير رسول الله ﷺ لهم بوحي الله أو إلهامه فيه الخير لهم والرحمة واليسر. وأنّه لو أطاعهم فيما يعنّ لهم أنّه خير لعنتوا وشقّ عليهم الأمر. فاللّه أعرف منهم بما هو خير لهم، ورسوله رحمة لهم فيما يُدبّر لهم ويختار: ﴿لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ﴾.. وفي هذا إيحاء لهم بأن يتركوا أمرهم لله ورسوله، وأن يدخلوا في السلم كافة، ويستسلموا لقدر الله وتدبيره، ويتلقّوا عنه ولا يقترحوا عليه [2].

---

(1) تفسير الميزان، محمد حسين الطباطبائي،ج18، ص 313- 314. (بتصرف).

(2) في ظلال القرآن، سيد قطب، ج6، ص 3342.

واعلم أنّ في قوله: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ﴾ إشعاراً بأنّ قوماً من المؤمنين كانوا مصرّين على قبول نبأ الفاسق الذي تشير إليه الآية السابقة، وهو الوليد بن عقبة أرسله النبي ﷺ إلى بني المصطلق لأخذ زكواتهم فجاء إليهم فلمّا رآهم هابهم ورجع إلى المدينة وأخبر النبي ﷺ أنهم ارتّدوا فعزم النبي ﷺ على قتالهم فنزلت الآية فانصرف وفي القوم بعض من يصرّ على أن يغزوهم.

اللّه حبّب إليكم الإيمان

ويشير القرآن معقّباً في الآية إلى موهبة عظيمة أخرى من مواهب اللّه سبحانه فيقول: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَ﴾.

وفي الحقيقة إنّ هذه التعابير إشارة لطيفة إلى قانون اللطف أي «اللطف التكويني».

وتوضيح ذلك: أنّه حين يريد الشخص الحكيم أن يُحقّق أمراً فإنّه يوفّر له جميع ما يلائمه من كلّ جهة ويصدق هذا الأصل في شأن الناس تماماً... فاللّه يريد أن يطوي الناس جميعاً طريق الحق دون أن يقعوا تحت تأثير الإجبار بل برغبتهم وإرادتهم، ولذا يُرسل إليهم الرسل والكتب السماوية من جهة، ويُحبّب إليهم الإيمان من جهة أخرى، ويضرم شعلة العشق نحو طلب الحق والبحث عنه في داخل النفوس ويكرّه إليها الكفر والفسوق والعصيان... وهكذا فإنّ كلّ إنسان مفطور على حبّ الإيمان والطهارة والتقوى، والبراءة من الكفر والذنب.

إلّا أنّه من الممكن أن يتلوّث ماء المعنويات المنصبّ في وجود الناس في المراحل المتتالية وذلك نتيجة للاختلاط بالمحيطات الموبوءة فيفقد صفاءه ويكتسب رائحة الذنب والكفر والعصيان...هذه الموهبة الفطرية تدعو الناس إلى اتباع رسول اللّه

وعــدم التقدّم بين يديه.وينبغــي التذكير بهذه اللطيفة أيضاً، وهي أنّ محتوى الآية لا ينافــي المشاورة أبداً، لأنّ الهدف مــن المشاورة أو الشورى أن يُعرب كلٌّ عن عقيدته ووجهــة نظــره، إلّا أنّ الرأي الأخير والنظر النهائي لشخص النّبي ﷺ كما يُستفاد ذلــك من آية الشورى أيضاً... وبتعبيــر آخر: إنّ الشورى هي موضوع مستقلّ، وفرض الرأي موضوع آخر، فالآية محل البحث تنفي فرض الرأي لا المشاورة.

والمراد من الفسوق عموم الخروج عن الطاعة فتكون لفظة العصيان تأكيداً لها، كما أنّ جملة ﴿وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ تأكيد على الجملة السابقة لها: ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾.

وعلــى كــلّ حال، فإنّ القرآن يقرّر قاعدة كلية وعامة فــي نهاية هذه الآية لواجدي الصفات المذكورة «**فيها**» فتقول: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾.

أي لو حفظتم هذه الموهبة الإلهية«**العشق للإيمان والتنفّر من الكفر والفسوق**» ولــم تلوّثوا هــذا النقاء والصفات الفطرية فــإنّ الرشد والهدايــة دون أدنى شكّ في انتظاركم.

وممّا يستجلب النظر أنّ الجمل السابقة في الآية كانت بصيغة الخطاب للمؤمنين لكــنّ هذه الجملة: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ تتحدّث عنهم بصيغة«**الغائب**» ويبدو أنّ هــذا التفاوت فــي التعبير جاء ليدلّ علــى أنّ هذا الحكم غيــر مختصّ بأصحاب النبــي، بل هو قانون عام، فكلّ من حفظ صفاءه الفطري في أي عصر وزمان هو من أهل الرشد والهداية والنجاة.

أمّــا آخــر الآيات محــل البحث فتوضّــح هذه الحقيقــة وهي أنّ محبوبيــة الإيمان والتنفّــر من الكفــر والعصيان مــن المواهب الإلهيــة العظمى على البشــر إذ تقول: ﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾. فعلمــه وحكمتــه يوجبــان أن يخلق فيكم عوامــل الرشد والسعادة ويكملها بدعوة الأنبياء إيّاكــم ويجعل عاقبتكم الوصول إلى الهدف المنشود...«**وهو الجنّة**».

والظاهر أنّ الفضل والنعمة كليهما إشارة إلى حقيقة واحدة، هي المواهب الإلهية التي يمنحها عباده، غاية ما في الأمر أنّ «**الفضل**» إنّما سمّي فضلاً لأنّ اللّه غير محتاج إليه و«**النعمة**» إنّما سمّيت نعمة لأنّ العباد محتاجون إليها، فهما بمثابة الوجهين لعملة واحدة!...

ولا شكّ أنّ علم اللّه بحاجة العباد وحكمته في مجال التكامل وتربية المخلوقات توجبان أن يتفضّل بهذه النعم المعنوية الكبرى على عباده وهي محبوبية الإيمان والتنفّر من الكفر والعصيان[1].

قوله تعالى: ﴿فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ تعليل لما تقدّم من فعله تعالى بالمؤمنين من تحبيب الإيمان وتزيينه وتكريه الكفر والفسوق والعصيان أي إنّ ذلك منه تعالى مجرّد عطية ونعمة لا إلى بدل يصل إليه منهم لكن ليس فعلاً جزافياً فإنه تعالى عليم بمورد عطيته ونعمته حكيم لا يفعل ما يفعل جزافاً، كما قال سبحانه: ﴿وَأَلۡزَمَهُمۡ كَلِمَةَ ٱلتَّقۡوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهۡلَهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا﴾[2].

والآية على ما يفيده السياق من تتمّة الكلام في الآية السابقة تُعمّم ما فيها من الحكم وتؤكّد ما فيها من التعليل، فمضمون الآية السابقة الحكم بوجوب التبيُّن في خبر الفاسق وتعليله بوجوب التحرُّز عن بناء العمل على الجهالة، ومضمون هذه الآية تنبيه المؤمنين على أنّ اللّه سبحانه أوردهم شرع الرشد ولذلك حبّب إليهم الإيمان وزيّنة في قلوبهم وكرّه إليهم الكفر والفسوق والعصيان، فعليهم أن لا يغفلوا عن أنّ فيهم رسول اللّه وهو مؤيَّد من عند اللّه وعلى بيّنة من ربّه لا يسلك إلا سبيل الرشد دون الغي، فعليهم أن يطيعوا الرسول ﷺ فيما يأمرهم به ويريدوا ما أراده ويختاروا ما اختاره، ولا يصرّوا على أن يطيعهم في آرائهم وأهوائهم فإنه لو يطيعهم في كثير من الأمر جهدوا وهلكوا.

---

(1) الأمثل في تفسير كتاب اللّه المنزل، ج16، ص 530.

(2) سورة الفتح، الآية 26.

بحث حول الآية

ما الفرق بين الكفر والفسوق والعصيان؟

هـذه أمور ثلاثـة هي في مقابلة الإيمان الكامل لأنّ الإيمان الكامل المزيَّن، هو أن يجمع التصديق بالجنان والإقرار باللسان والعمل بالأركان.

عن الإمام علي عليه السلام: «**سُئِلَ عَنِ الإيمان فَقَالَ: الإيمان مَعْرِفَةٌ بِالْقَلْبِ، وإِقْرَارٌ بِاللِّسَـانِ، وعَمَـلٌ بِـالأَرْكَانِ**»[1]. بيّن الإمـام عليه السلام أنّ الإيمان مركّب من ثلاثة أشياء فهو كلٌّ مركّب من هذه الأجزاء وهي:

مَعْرِفَةٌ بِالْقَلْبِ: المراد بالمعرفة هنا الاعتقاد الجازم المطابق للواقع سواء أكان عن علم أم عن تقليد.

وإِقْـرَارٌ بِاللِّسَـانِ: لا بـدّ من إظهار الإيمان بالقول تمامـاً كالعمل، لأنه عبادة للّٰه، ولكي يُعرف المؤمن ويُعامل بما له من الحقّ.

وعَمَـلٌ بِـالأَرْكَانِ: أي لا بدّ أن يتجسّم الإيمان بالعمـل المحسوس، وكلّ عمل ثبت حكمـه بضـرورة الدين فهو ركن للإيمان، كوجوب الجهـاد والصوم والصلاة والحج والزكاة. ويبدو أنّ كلام الإمام محمول على الإيمان الكامل.

قولـه تعالـى: ﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ﴾ وهو التكذيب في مقابلـة التصديق بالجنان. والفســوق هو الكذب. وثانيها: هو ما قبل هذه الآية وهو قوله تعالى: ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ﴾، سُمّـي من كذّب فاسقاً فيكون الكـذب فسوقاً. ثالثها: ما ذكره بعد هذه الآية، وهــو قوله تعالى: ﴿بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ﴾ فإنّه يـدلّ على أنّ الفسوق أمر قولـي لاقترانه بالاسم. ورابعها: وجـه معقول وهو أنّ الفسوق هو الخروج عن الطاعة علـى ما علم في قـول القائل: فسقـت الرطبـة إذا خرجت، وغير ذلـك لأنّ الفسوق

---

(1) نهج البلاغة، خطب الإمام علي عليه السلام (تحقيق صالح)، حكم أمير المؤمنين عليه السلام، رقم 227، ص 467.

هــو الخروج زيد فــي الاستعمال كونه الخــروج عن الطاعة، لكن الخــروج لا يكون له ظهــور بالأمــر القلبي، إذ لا اطلاع على مــا في القلوب لأحــد إلا لله تعالى، ولا يظهر بالأفعــال لأنّ الأمر قد يترك إما لنسيان أو سهو، فلا يعلم حال التارك والمرتكب أنه مخطئ أو متعمّد، وأمّا الكلام فإنّه حصول العلم بما عليه حال المتكلّم، فالدخول في الإيمــان والخروج منه يظهر بالكلام، فتخصيص الفسوق بالأمر القولي أقرب، وأمّا العصيــان فترك الأمر وهو بالفعل أليق، فإذا عُلم هذا ففيه ترتيب في غاية الحسن، وهــو أنّــه تعالى كرّه إليكــم الكفر وهو الأمر الأعظم كما قــال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾. ثــم قال تعالى: ﴿وَٱلْفُسُوقَ﴾ يعني ما يظهر لسانكم أيضاً، ثم قال: ﴿وَٱلْعِصْيَانَۚ﴾ وهــو دون الكل ولم يترك عليكم الأمر الأدنى وهو العصيان»[1]. وسيأتي في الآية (15) من السورة بيان معنى الإيمان والإسلام ومراتبهما.

ما الفرق بين الفضل والنعمة:

في قوله تعالــى: ﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةًۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾. فضل الله إشارة إلى مــا عنده من الخيــر وهو مستغن عنــه، والنعمة إشــارة إلى ما يصل إلــى العبد وهو محتــاج إليــه، لأنّ الفضل في الأصل يُنبئ عن الزيــادة، وعنده خزائن من الرحمة لا لحاجــة إليها، ويرسل منهــا على عباده ما لا يبقون معه في ورطــة الحاجة بوجه من الوجــوه، والنعمة تنبــئ عن الرأفة والرحمة وهو من جانــب العبد، وفيه معنى لطيف وهــو تأكيد الإعطاء، وذلــك لأنّ المحتاج يقول للغني: أعطني ما فضل عنك وعندك، وذلــك غير ملتفت إليه وأنا بــه قيامي وبقائي، فإذن قوله فَضْلًا مِــنَ اللَّهِ إشارة إلى مــا هو من جانــب الله الغني، والنعمة إشــارة إلى ما هو من جانــب العبد من اندفاع الحاجة، وهذا ممّا يؤكّد قولنا فضلاً منصوب بفعلٍ مضمر، وهو الابتغاء والطلب[2].

---

(1) مفاتيح الغيب (التفسير الكبير)، فخر الدين الرازي، ج 28، ص 103.

(2) مفاتيح الغيب (التفسير الكبير)، فخر الدين الرازي، ج 28، ص 103– 104.

ختمُ الآية بقوله ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ فيه مناسبات عدة:

أوّلها: أنه تعالى لما ذكر نبأ الفاسق، قال إنْ يشتبه على المؤمن كذب الفاسق فلا تعتمدوا على ترويجه عليكم الزور، فإن الله عليم، ولا تقولوا كما كان عادة المنافق لولا يعذبنا الله بما نقول، فإن الله حكيم لا يفعل إلا على وفق حكمته.

وثانيها: لمّا قال الله تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ﴾ بمعنى لا يطيعكم، بل يتبع الوحي، قال فإنّ الله من كونه عليماً يعلمه، ومن كونه حكيماً يأمره بما تقتضيه الحكمة فاتبعوه.

ثالثها: المناسبة التي بين قوله تعالى: عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ وبين قوله حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ الإيمان أي حبّب بعلمه الإيمان لأهل الإيمان، واختار له من يشاء بحكمته.

رابعها: وهو الأقرب، وهو أنه سبحانه وتعالى قال: ﴿فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ﴾، ولمّا كان الفضل هو ما عند الله من الخير المستغني عنه، قال تعالى هو عليم بما في خزائن رحمته من الخير، وكانت النعمة هو ما يدفع به حاجة العبد، قال هو حكيم ينزل الخير بقدر ما يشاء على وفق الحكمة [1].

عَلِيُّ بْنُ إِبْرَاهِيمَ عَنْ أَبِيه عَنْ حَمَّادٍ عَنْ حَرِيزٍ عَنْ فُضَيْلِ بْنِ يَسَارٍ قَالَ: سَأَلْتُ أَبَا عَبْدِ الله عليه السلام عَنِ الْحُبِّ والْبُغْضِ أمِنَ الإيمان هُوَ، فَقَالَ: وهَلِ الإيمان إِلَّا الْحُبُّ والْبُغْضُ، ثُمَّ تَلَا هَذِه الآيَةَ ﴿حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾[2].

الراشدون: الرشد: الاستقامة على طريق الحقّ مع تصلّبٍ فيه، من الرشادة وهى الصخرة، وكل صخرة رشادة[3]. وقد مرّ أنّ الراشدين بمعنى الَّذين يقوم الرشد بهم.

---

(1) (م.س)، ص 104.

(2) الكافي، الكليني، ج 2، باب الحب في الله والبغض في الله، ح5، ص 125.

(3) تنزيل الآيات على الشواهد من الأبيات، شرح شواهد الكشاف، محب الدين الأفندي، ص 388.

وإذا تتبّعنا هذه الكلمة في القرآن فنجدها وردت في عدّة موارد منها أنّ الوصول إلى درجة الرشد والكمال هي هداية من الله تعالى للأنبياء ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾(1). قيل معنى رشده الاهتداء لوجوه الصلاح. وقيل: هو الحجج الموصلة إلى التوحيد. وقيل: النبوّة. ثم إنّ وظيفة هؤلاء إهداء الناس إلى الرشد كما في قوله تعالى: ﴿يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾(2). وإنّ النبيّ موسى عليه السلام قد طلب من الخضر عليه السلام تعليمه ليصل إلى الرشد ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾(3). والإيمان يُهيّء الأرضية المناسبة للرشد والرشاد ﴿وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾(4). القرآن الكريم يهدي إلى الرشد ﴿يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ﴾(5). وفي هذه الآية في سورة الحجرات تبيّن أنّ أهل الإيمان الواقعي هم أهل الرشد ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾. يتبيّن من خلال هذه الآيات أنّ الرشد في القرآن الكريم، هو رشد معنوي وروحي يصل إليه الإنسان من خلال إيمانه وعلاقته بالله تعالى. وفي مجال اتباع القيادة يُبيّن القرآن أنه إن لم تكن القيادة معصومة كالنبي صلى الله عليه وآله وسلم والأئمة عليهم السلام أو صالحة كالولي الفقيه، فإنّ الأمة ستخضع للحكم الاستبدادي وهذا معناه عدم الرشاد ﴿وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾(6). ولكن اذا كانت القيادة معصومة والقرار يصدر منها أو صالحة وعادلة ستكون الأرضية مهيّئة للرشد وسيصل المجتمع الإيماني في ظلّ هكذا قيادة إلى رشده المطلوب ويصبح مجتمعاً راشداً.

(1) سورة الأنبياء، الآية 51.
(2) سورة غافر، الآية 38.
(3) سورة الكهف، الآية 66.
(4) سورة البقرة، الآية 186.
(5) سورة الجن، الآية 2.
(6) سورة هود، الآية 97.

بطلان الجبر:

إنّ الآيــة الكريمة تدلّ على بطلان الجبر فــي الأفعال وصحة نظرية الاختيار التي يؤمن بها الإمامية، فالآيات الآنفة تجسيدٌ بيّن لوجهة نظر الإسلام في مسألة «**الجبر والاختيار**» والهداية والإضلال، لأنّها توضح هذه اللطيفة ـ بجلاء ـ وهي أنّ اللّه يُهيّئ المجــال «**والأرضيــة**» للهدايــة والرشد، فمن جهــة يبعث رسوله ويجعلــه بين الناس ويُنزل القرآن الذي هو نور ومنهج هداية؛ ومن جهة يُلقي في النفوس العشق للإيمان ومحبّتــه؛ والتنفّر والبراءة مــن الكفر والعصيان، لكنّ في النهايــة يوكل للإنسان أن يختــار ما يشاء ويُصمّم بنفسه، ويُشرّع سبحانه التكاليف في هذا المجال!... وطبقاً للآيات المتقدّمة فإنّ عشق الإيمان والتنفّر من الكفر موجودان في قلوب جميع الناس دون استثناء وإذا لم يكن لدى بعضهم ذلك فإنّما هو من جهة أخطائهم وسلوكيّاتهم وأعمالهم، فإنّ اللّه لم يُلقِ في قلب أيّ شخص حُبَّ العصيان وبغض الإيمان.

توضيــح ذلــك: إنّ الآيــة الكريمة تــدلّ على بطلان الجبــر بهذا البيــان، إنّ كلمة ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ وكلمــة ﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ﴾ تــدلّ على بطلان الجبر؛ لأنّ الجبــر يعني «الجبر هو الحمل على الفعل والاضطرار إليه بالقهر والغلبة، وحقيقة ذلك إيجاد الفعل في الخلق من غير أن يكون لهــم قدرة على دفعــه والامتناع من وجوده فيه. ومذهب الجبــر هو قول من يزعم أنّ اللّه تعالــى خلق في العبد الطاعة من غيــر أن يكون للعبد قدرة على ضدّها والامتناع منها وخلق فيه المعصية كذلك»[1].

ومن الواضح أنّ الشخص الذي يُحبّ شيئاً ما فإنّ أفعاله وسلوكياته ستكون طبقاً لهــذه المحبّــة القلبية. وفــي المقابل الشخص الــذي يكره شيئاً وينفــر منه في قلبه سينعكس هذا أيضاً في سلوكياته وسيكون نفوره ممّا يكره واضح في هذا المجال.

(1) تصحيح اعتقادات الإمامية، الشيخ المفيد، الجبر والتفويض، ص 46. (بتصرف).

اذا كـان الشخص يُحـبّ الإيمان فستكـون سلوكياته طبقاً لإيمانــه. وإنّ أثر هذا الحـبّ سيجعله يُقرّر بإرادتـه طاعة الله تعالى ومن خلال هـذه الإرادة سيقوم بفعل الواجبـات وترك المحرّمات، مع قدرته على فعل العكـس، ولكنّ الحبّ الذي في قلبه للإيمـان يدفعـه لاختيار الطاعة وتـرك المعصية. كما نقلنا عن الإمـام قوله: «**وهَلِ الإيمان إِلَّا الْحُبُّ والْبُغْضُ**».

إذا اتّضح هذا البيان نقول: لو افترضنا أنّ العباد مجبورن على الطاعة والمعصية ولا تقـع تحت اختيارهـم. فإنّ تحبيب الإيمان لهم من قِبَـل الله تعالى وتنفيرهم من الكفر والفسـوق والعصيان لكي تصدر منهم الأعمال الحسنة ويبتعدون عن الأعمال السيئـة، فإذا افترضنا الجبر في أفعالهم فلا معنى لتحبيب الإيمان وتبيغض الكفر، بل تصبح هذه الآية في مقام اللغو ولا ثمرة عملية لهذا الكلام.فإذا اعتبرنا أنّ الناس فـي حبّ الإيمان وبغض الكفر مجبورون على ذلك، فإنّ هذه المحبّة والبغض لا يكون لهـا أيّ قيمـة حتى تكون محبوبـة لله تعالـى، ولا يستحقّون أيّ ثواب علـى أعمالهم. وببيـان آخر: نقول نجد بالوجدان أنّ هناك أفـراداً يُبغضون الإيمان ويُحبّون الفسق والكفر والعصيان، إذاً التحبيب والتبغيض من الله تعالى ليس جبريّاً. وإذا كان الأمر كذلك فينبغي أن يكون كلّ الناس يُحبّون الإيمان ويبغضون الكفر.

الدروس المستفادة من الآية

1. يجـب الالتفات إلـى شخصية القائد وحكمتـه فأنتم من هـذه الناحية ليس فيكم قائداً عادياً بل رسول الله، ﴿ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ﴾ ، السائر إلى الله لا إلى أهوائكم، الـذي لا يدعـو إلا إلـى الله، ومن المحـال أن يُطيعكم في كثير مـن الأمر، و ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾ أمـر الشرع وحكمه ﴿لَعَنِتُّمْ ﴾ أي أثمتم وهلكتم، فعجزتم أنتـم عن إمرار الحيـاة المريحة، واستمرار الحياة السعيـدة، واخلدتم إلى حياة جهنمية فوضى[1].

(1) الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، محمد الصادقي الطهراني، ج27، ص 232.

2. هــذه الآيــات تؤكّد مرّةً أخرى أنّ وجود القائد «**الإلهـي**» ضروريّ لرشد جماعةٍ ما، بشــرط أن يكون مطاعاً لا مطيعاً وأن يتّبع أصحابــه وجماعته أوامره لا أن يؤثّروا عليــه ويفرضوا عليــه آراءهم «**ابتغاء مقاصدهـم ومصالحهـم**» وهذه المسألة لا تختصّ بالقادة الإلهيين فحسب، بل ينبغي أن تكون حاكمة في المديرية والقيادة في كلّ مكان، وحاكمية هذا الأصل لا تعني استبداد القادة، ولا ترك الشورى[1].

3 . إنّ القائد الذي يحمل الحكمة والمعرفة والبصيرة يجب على الرعية الرجوع إليه فــي توجيه المجتمــع وتحصينه من الفتن والشبهات. وأيضــاً لا يصحّ من الرعية الضغــط عليه لقبول آراءهم وشهوات أنفسهم، لأنّ ذلك ليس من مصلحتهم على الإطلاق.

4 . اذا أردنا أن لا نصل إلى الندامة التي تحدّثت عنها آية النبأ السابقة فعلينا اتباع تعاليم الأنبياء ﴿ نَٰدِمِينَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِ ﴾.لأنّ لوجود الرسول في الأمة امتيازات خاصة منها أنّه بوصلة الأمان الحقيقية للمجتمع.

5 . يتوقّــع مــن النبــي ﷺ أن يشــاور الآخرين، ولكن لا بــدّ أن لا يتوقّــع الآخرون أن يُطيعهــم في شوؤنه لأنّ القــرآن صرح بالمشــاورة ﴿وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ﴾[2]. أما الآيــة فــي الحجرات فتقول بأنّ موقــع رسول الله هو موقع من يُطــاع لا من يُطيع. ﴿ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ ... لَعَنِتُّمۡ ﴾. والشورى موردها الأمور التي ترجع إلى شؤون النـاس لا مانــع من أن يشاورهم في الأمر وهم يتشــاورون فيما بينهم، أمّا كلّ ما يرجع إلى الله ورسوله فهو ليس مــورد للشورى. وقوله تعالى: ﴿وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ﴾[3] يشير إلــى القسم الأوّل، أمّا قوله: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾[4]. فالإمامة منصب إلهي

(1) الأمثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج16، ص 530.
(2) سورة آل عمران، الآية 159.
(3) سورة الشورى، الآية 38.
(4) سورة البقرة، الآية 124.

يجعلـه الله لأوليائه وليست مـورداً للشورى، لأنّها لا ترجع إلى أمورهم بل إلى الله تعالى.

6 . إنّ المشكـلات الاجتماعية التـي تعصف بمجتمعاتنا سببهـا ابتعادنا عن تعاليم الأنبيـاء عليهم السلام والعمـل بأهوائنا وأذواقنـا وعاداتنا وتقاليدنا بعيـداً عن رسائل السماء، وهذا ما يؤدّي إلى ضياع المجتمع وتفكيكه. ﴿لَوۡ يُطِيعُكُمۡ... لَعَنِتُّمۡ ...﴾.

7 . ينبغي على القائد الصالح أن يكون له الاستقلال الكامل في اتخاذ الرأي والقرار المناسـب - بعد المشاورة - ولا يتأثّر بضغط الآخرين عليه، هذا هو المفهوم من قوله تعالى: ﴿لَوۡ يُطِيعُكُمۡ ... لَعَنِتُّمۡ ...﴾.

8 . إنّ الديـن والإيمان من الأمور الفطرية التي أودعها الله تعالى في باطن الإنسان: ﴿حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ ...﴾.

9 . الإيمان أمر قلبي، والأمور القلبية لا تتلائم وتتوافق مع الجبر والفرض والحتمية. ﴿حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ ...﴾.

10. إنّ الإيمـان هـو زينة القلب كما أنّ الجبال والأنهـار والأزهار وغير ذلك هي زينة الأرض: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا مَا عَلَى ٱلۡأَرۡضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبۡلُوَهُمۡ أَيُّهُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلًا﴾[1]. والفـرق بين الأمرين هو أنّ زينـة الإنسان المؤمن هي الكمالات المعنوية والترقّي الروحي كما أنّ الأمور المادية زينتها الماديات.

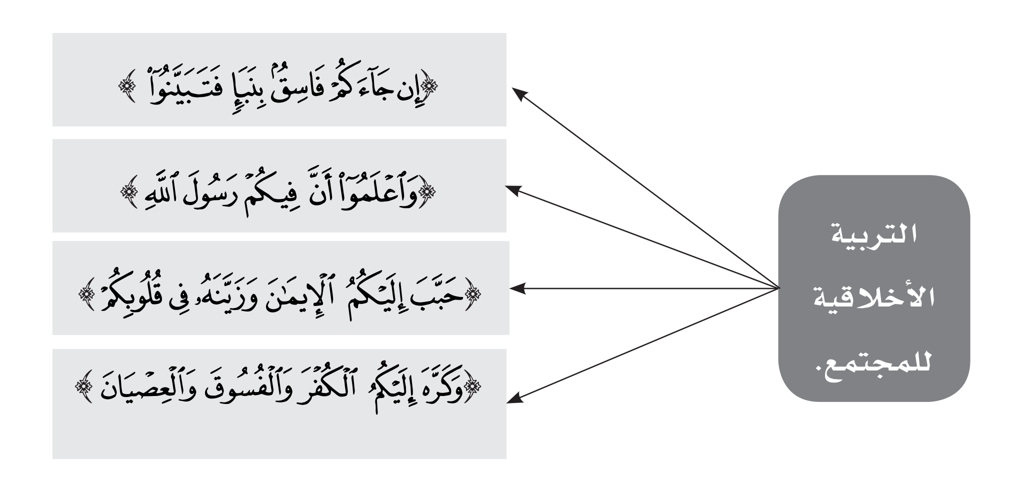
11. إذا كان الإنسان من أهل الإيمان فعليه أن يبتعد ويبغض الكفر والفسوق والعصيان. ﴿حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ ... وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ ...﴾.

12. إنّ الإنكار القلبي - الكفر - هو مقدّمة لكلّ الشرور والمفاسد فالجحود هو أساس كل المعاصي، ولذا الآية قدّمت «**الكفر**» ثم ثنّت «**بالفسوق والعصيان**».

---

(1) سورة الكهف، الآية 7.

13 . التنفّر والبعد عن المعصية والكفر والفسق هو أمر فطري، كما أنّ الإيمان وطاعة الله هي فطرية أيضاً. وإنّ هذا التنفّر هو الذي يوصل المؤمن إلى الرشاد: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾. والعكس صحيح فإنّ عدم التنفّر من هذه الأمور يوصل إلى عدم الرشد: ﴿وَكَرَّهَ ... أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾.



۞ للمطالعة:

آداب الكلام في آيات القرآن [1]

إذا راجعنا الآيات القرآنية نجدها بيّنت جملة من الآداب والأحكام التي ينبغي التمسّك بها اثناء الكلام:

1. أن يكون الكلام واقعياً وحقيقياً: ﴿بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾[2].
2. أن يكون الكلام ودّياً ونابعاً من القلب: ﴿ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾[3].
3. أن يكون الكلام واضحاً وطليقاً وشفافاً: ﴿قَوْلًا بَلِيغًا﴾[4].
4. أن يكون كلاما ليناً لا غلظة فيه: ﴿قَوْلًا لَّيِّنًا﴾[5].
5. أن يكون كلاماً سمحاً فيه الخير والبركة: ﴿قَوْلًا كَرِيمًا﴾[6].
6. أن يكون الكلام مقبولاً وسهلاً تطبيقه: ﴿قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾[7].
7. يجب خلوّ الكلام من أيّ لغو أو باطل: ﴿وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾[8]، ﴿عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾[9].
8. يجب أن يقترن الكلام بالعمل وإلا يصبح التكلّم مورداً للعتاب واللوم: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾[10].

---

(1) ينظر: تفسير نور، (فارسي)، محسن قرائتي، ادب در كفتار، ج9، ص، 164.
(2) سورة النمل، الآية 22.
(3) سورة الحج، الآية 24.
(4) سورة النساء، الآية 63.
(5) سورة طه، الآية 44.
(6) سورة الإسراء، الآية 23.
(7) سورة الإسراء، الآية 28.
(8) سورة الحج، الآية 30.
(9) سورة المؤمنون، الآية 3.
(10) سورة الصف، الآية 2.

6

الإصلاح بين المؤمنين

مفاهيم محورية:

- **من هم المأمورون بالإصلاح؟**
- **المبادئ الاجتماعية المستفادة من الآية:**
  - إصلاح ذات البين.
  - الانتصار للمظلوم.
  - وجوب التصدّي للعدوان.
- **قتال أهل البغي وحالات الفئة الباغية.**
- **الدروس المستفادة من الآية.**

النص القرآني

قال الله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾.

تمهيد

إنّ صلاح العمل من الأمور العظيمة والمهمّة التي ذكرها القرآن الكريم «فالصلاح المطلق في الإنسان: هو القدم الأوّل والمرحلة الأولى في سيره إلى الكمال، وما لم يتحصّل هذا القدم: لا يتيسّر له السلوك والخروج عن عالم الحيوانيّة، بل جريان أمره يكون في اختلال وفساد. نعم قد ذُكر في كلام الله تعالى: أنّ اللقاء وهو آخر مراحل الكمال والسعادة، يتوقّف على حصول أمرين، الصلاح والإخلاص. فقال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾. والإخلاص هو حقيقة التوحيد الحقّ. وأمّا التقييد بصلاح العمل: فانّ الصلاح في العمل هو آخر درجة منه، وهو لا يتحقّق إلّا بعد صلاح الباطن ...»[1].

ومن هنا يكتسب الإصلاح بين الناس الأهمية القصوى كما سنبيّن.

---

(1) التحقيق في كلمات القرآن الكريم، حسن المصطفوي، ج6، ص 266. (بتصرف).

شرح مفردات الآية

- **طَائِفَتَـانِ**: الطائفة عبارة عـن جماعة لهم ارتباط وسابقة وحركة وتردّد إلى الجانب الَّذى هو المنظور[1].
- **فَأَصْلِحُـوا**: الصَّـلَاحُ: ضـدّ الفسـاد، وهما مختصّـان في أكثـر الاستعمال بالأفعال، وقوبـل في القرآن تارة بالفساد، وتـارة بالسّيّئة[2]. الإصلاح ينتفي بتحقّق الإفساد [3].
- **بَغَتْ**: طلب تجاوز الاقتصاد فيما يتحرّى، تجاوزه أم لم يتجاوزه، فتارة يعتبر فـي القدر الذي هو الكمية، وتارة يعتبر في الوصـف الذي هو الكيفية، يقال: بَغَيْـتُ الشـيء: إذا طلبت أكثر ما يجـب، وابْتَغَيْتُ كذلك، قـال الله عزّ وجلّ: ﴿لَقَدِ ٱبۡتَغَوُاْ ٱلۡفِتۡنَةَ مِن قَبۡلُ﴾، وقـال تعالـى: ﴿يَبۡغُونَكُمُ ٱلۡفِتۡنَةَ﴾. والبَغْـيُ علـى ضربيـن: أحدهما محمـود، وهو تجـاوز العدل إلـى الإحسان، والفرض إلى التطوّع. والثاني مذموم، وهو تجاوز الحقّ إلى الباطل، أو تجاوزه إلى الشّبه....[4]
- **تَفِـيءَ**: هـو التّحنّي بعـد التجبّر. ومـن لوازمه: العـود، والرجـوع، والتقلُّب، والتحوّل. ومن مصاديقـه: حصول الظلّ بعد حرارة الشمس. وتحنّي الزوجة وانعطافهـا بعد قهرها. قولـه تعالـى: ﴿فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ﴾ يـراد الانعطـاف والتحنّـي والخضوع بعد الإيـلاء والبغي، وليـس بمعنى الرجوع، فـإنّ مطلق الرجوع مـن دون خضوع وتحنٍّ وانكسار، لا فائدة فيه. وهذا لطف التعبير بالمادّة [5].

---

(1) التحقيق في كلمات القرآن الكريم، حسن المصطفوي، ج7، ص 144.
(2) مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، صلح، ص 490.
(3) التحقيق في كلمات القرآن الكريم، حسن المصطفوي، ج6، ص 266. (بتصرف).
(4) التحقيق في كلمات القرآن الكريم، حسن المصطفوي، ج1، ص 309.
(5) التحقيق في كلمات القرآن الكريم، حسن المصطفوي، ج 9، ص 166.

- **بِالْعَدْلِ**: عدل: هو توسّط بين الإفراط والتفريط بحيث لا تكون فيه زيادة ولا نقيصة، وهو الاعتدال والتقسّط الحقيقيّ. وبمناسبة هذا الأصل تطلق على الاقتصاد والمساواة والقسط والاستواء والاستقامة، كلّ منها في مورد مناسب مع لحاظ القيد[1].
- **وَأَقْسِطُوا**: هو إيصال شيء إلى مورده وإيفاء الحقّ إلى محلَّه. وهذا المعنى إنّما يتحقّق في مقام إجراء العدل وإعماله في الخارج. ومن مصاديقه: إيصال النفقة وتفريقها على العيال. ويظهر من ذكر الإقساط بعد العدل: أنّ الإقساط يغاير العدل ويتحقّق بعده، فإنّه تطبيق العدل في الخارج وإجراؤه[2].

المعنى الإجمالي

إنّ الآية الكريمة هي علاج للآثار الخطيرة التي قد يُحدثها خبر الفاسق في المجتمع، فلو حصل بسبب إخباره اقتتال بين المؤمنين، فإنّ الواجب على الآخرين من المجتمع الإيماني الإصلاح بينهم، فالآية تكملة لإبراز أخطر ما يمكن أن يوقعه الفاسق في المجتمع الإيماني، فإنّ نفس التفكير بالوصول إلى هذه النتيجة يُشدّد على المؤمنين كيفية تعاطيهم مع الأنباء. فالآية متّصلة مع ما سبق من آية النبأ بهذا البيان: أنّ الله لمّا حذّر المؤمنين من النبأ الصادر من الفاسق، أشار إلى ما يلزم منه استدراكاً لما يفوت، فقال فإن اتفق أنّكم تبنون على قول من يوقع بينكم، وآل الأمر إلى اقتتال طائفتين من المؤمنين، فأزيلوا ما أثبته ذلك الفاسق وأصلحوا بينهما.

ولذلك الآية من الناحية اللغوية بدأت بحرف العطف «**واو العاطفة**» وهي تدلّ على عطف الجملة الشرطية في هذه الآية على الجملة الشرطية في آية النبأ، ولأنّ العلاقة العاطفة بالواو هو بين جملتين، فلا يوجد بينهما كمال الاتصال ولا يوجد بينهما كمال الانقطاع ومن هنا تظهر لطافة العطف.

(1) التحقيق في كلمات القرآن الكريم، ج5، ص 55.
(2) التحقيق في كلمات القرآن الكريم، ج 9، ص 259.

قوله: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ لا يدلّ على أنّهما إذا اقتتلا بقيا على الإيمان، ويطلق عليهما هذا الاسم، بل لا يمتنع أن يفسق أحد الطائفتين أو يفسقا جميعاً، وجرى ذلك مجرى أن تقول: وإن طائفة من المؤمنين ارتدّت عن الإسلام فاقتلوها.

ثم قال: ﴿فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ﴾ أي فإن بغت إحدى الطائفتين على الأخرى بأن تطلب ما لا يجوز لها وتقابل الأخرى ظالمة لها متعدية عليها: ﴿فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي﴾ لأنّها هي الظالمة المتعدّية دون الأخرى ﴿حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ أي حتى ترجع إلى أمر الله وتترك قتال الطائفة المؤمنة. ثم قال «**فإن فاءت**» أي رجعت وتابت وأقلعت وأنابت إلى طاعة الله: ﴿فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا﴾ يعني بينها وبين الطائفة التى كانت على الإيمان ولم تخرج عنه بالقول، فلا تميلوا على واحدة منهما ﴿وَأَقۡسِطُوٓاْ﴾ أي اعدلوا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾ يعني العادلين، يقال: أقسط إذا عدل، وقسط إذا جار[1].

المعنى التفصيلي

في رواياتنا أن الآية الكريمة نزلت وهي تشير إلى ما سيقع من أحداث بعد رسول الله ﷺ منها مَا ذَكَرَهُ عَلِيُّ بْنُ إِبْرَاهِيمَ فِي تَفْسِيرِهِ قَالَ: قَالَ عزّ وجلّ ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ﴾ الآيَةُ، قَالَ: «لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ عَلَى رَسُولِ اللهِ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِنَّ مِنْكُمْ مَنْ يُقَاتِلُ عَلَى التَّأْوِيلِ مِنْ بَعْدِي كَمَا قَاتَلْتُ عَلَى التَّنْزِيلِ فَسُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ مَنْ هُوَ فَقَالَ خَاصِفُ النَّعْلِ بِالْحُجْرَةِ، وَكَانَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام يَخْصِفُ نَعْلَ رَسُولِ اللهِ»[2]. ونذكر معنى الآية الكريمة ضمن النقاط التالية:

أوّلاً: تُعالج آيات القرآن عادة أسوء الحالات قبل الحديث عن الحالات العادية، فمثلاً حين تُبيّن سورة النساء العلاقات الاجتماعية تستهلّها بمعالجة حالة

(1) راجع: مجمع البيان في تفسير القرآن، الطبرسي، ج9، ص 222. (بتصرف).
(2) تفسير القمي، علي بن إبراهيم القمي، ج2، ص321.

الطـلاق التــي هي عقــدة العلاقــة الأسرية، وكذلك ســورة النــور التي ترسم حــدود الأسرة الفاضلة تبتدئ ببيان حدّ الزنا، وسورة المائدة التي تبني كيان الحضارة الإسلامية نراها تُحدّثنا في فاتحتها عن حرمة الاعتداء على أموال اليتامــى الذيــن هم أضعف الحلقــات الاجتماعيــة، وهنا أيضــاً تعالج الآيات أعقــد حالات الخلاف وهي حالة الاقتتال أولاً ثم تتدرّج في الحديث عن سائر الحالات الأقل تعقيداً. لماذا كلّ ذلك؟ يبدو أنّ وراء كلّ ذلك حكمتين:

الأولـى: لبيــان الغاية التــي سوف تنتهي إليهــا تسلسل الحالات، لكــي لا يُستهان بمبدئهــا، فالخلافات الجزئيــة التي نستخفّ عادة بهــا والشائعات التي نبثّها هنــا وهناك ضــدّ بعضنا بــلا وازع، قد تنمو حتــى تُصبح صراعــاً دموياً بين طائفتيــن من البشر. فلكي نرى الحقائق لا بــدّ أن نضرب لها مثلاً واضحاً ثم نقيس عليه سائر الأمثلة.

الثانيـة: إنّ عظمة الشريعة تتمثّل في معالجــة الحالات الشاذّة البالغة حدّها في التعقيد، أما الأوضاع العادية فإنّ التعامل معها سهل ميسور.

فمعالجــة حالــة الطــلاق أو الخيانــة الزوجية (الزنــا) هي المقياســ لقدرة الشريعــة على وضع نظــام صائب لشؤون الأسرة، كمــا أنّ الحفاظ على أموال اليتيم دليل على مــدى صلاحية النظام الاقتصادي في المحافظة على حقوق الناس.

كذلــك معالجــة مشكلة الحــرب الأهليــة تشهد على مــدى صلاحيــة النظام الاجتماعي في مواجهة التحديات[1].

ثانيـاً: الآيــة الكريمة تُبيّن قاعــدة تشريعية عملية لصيانــة المجتمع المؤمن من الخصــام والتفكّــك، تحــت النــزوات والاندفاعات. وتأتــي تعقيباً علــى تُبيّن

(1) من هدى القرآن، محمد تقي المدرسي، ج13، ص 387.

خبــر الفاسق، وعــدم العجلة والاندفــاع وراء الحمية والحماســة، قبل التثبُّت والاستيقان.

وســواء كان نــزول هذه الآية بسبب حادث معيّن كما ذكــرت الروايات، أم كان تشريعاً لتلافي مثل هذه الحالة التي ستحصل وهو الأرجح حسب روايتنا، فهو يُمثّــل قاعدة عامّة محكمة لصيانة الجماعــة الإسلامية من التفكُّك والتفرُّق. ثم لإقرار الحقّ والعدل والصلاح. والارتكان في هذا كلّه إلى تقوى الله ورجاء رحمته بإقرار العدل والصلاح.

والقــرآن قــد واجه - أو هــو يفترض - إمكــان وقوع القتال بيــن طائفتين من المؤمنين. ويستبقي لكلتا الطائفتين وصف الإيمان مع اقتتالهما، ومع احتمال أنّ إحداهما قد تكون باغية على الأخرى، بل مع احتمال أن تكون كلتاهما باغية في جانب من الجوانب.

وهــو يُكلّف الذين آمنوا - مــن غير الطائفتين المتقاتلتين طبعــاً - أن يقوموا بالإصــلاح بيــن المتقاتليــن. فإن بغت إحداهمــا فلم تقبل الرجــوع إلى الحقّ - ومثلــه أن تبغيــا معاً برفضــ الصلح أو رفضــ قبول حكم الله فــي المسائل المتنــازع عليها - فعلى المؤمنين أن يقاتلوا البغــاة إذن، وأن يظلّوا يقاتلونهم حتى يرجعوا إلى أمر الله. وأمر الله هو وضع الخصومة بين المؤمنين، وقبول حكم الله فيما اختلفوا فيه، وأدّى إلى الخصام والقتال[1].

ثالثــاً: رغــم أنّ الأخوّة الصادقة والصلــح البالغ هما لزام الإيمــان كما خوطبوا بــه، إلا أنّ هناك - وبيــن غير الكاملين في الإيمان، أو الجاهلين والمتجاهلين شرائــط الإيمان - نزوات ونزعات واندفاعات فخصامات وحميات وحماسات فتفكّكات ومنازعات شاسعة عن ساحة الإيمان، قد تتخطّى التلاسن والتضارب

(1) ينظر: في ظلال القرآن، سيد قطب، ج6، ص 3343.

إلى مقاتلات، ومهما يكن من شيء فالمؤمن لا يحارب أخاه إلا على تكلّف، وعلّ الاقتتــال الملمَّح- إليه، دون التقاتل- يعنيه «**اقتتلا**» لا «**تقاتلا**» حيث الاقتتال افتعال للقتال متكلّف وليس فعلاً مقصوداً وبين المؤمنين الإخوة!.

فلا بدّ إذاً من صيانة إلهية تُصوَّن على هذه الفوارق الدامية، وتعتلج ما تختلج في خلد الإيمان من فكرة الاقتتال، ومن ثم واقعه إذا حصل، ألا وهي استنفار سائــر المؤمنين لمواجهة المشكلة الداخلية إصلاحــاً، مهما كان الثمن غالياً ولو كان القتال قضاءً على قتال.

من هم المأمورون بالإصلاح؟

هــذا السؤال فــي غاية الأهمية لأنّه إن لم نُحدّد مسبقــاً من هم الذين لهم شأنية الإصلاح بين المؤمنين فقد نولّد فوضى أصعب في بعض الأحيان من الاقتتال نفسه.

وتــرى من هم المأمورون بالإصلاح، أو القتال إذا لزم الأمر؟ فهل إنّه أمر فوضى بين دويلات صغيرة إسلامية- إن صحّ التعبير- وبين شعوب متشعّبة حسب الدويلات، فيزيد ويلات على ويلات، لأنّهم مختلفون في اجتهادات أو سياسات؟!.

كــلا! إنّه أمر موجّه إلى سائــر المؤمنين العائشين تحت قيــادة واحدة إسلامية، دولــة إسلامية واحدة بشعبها الموحّد، لا تفصل بينهــم قوانين أو حدود، فالآية هذه وأضرابهــا تلميح أو تصريــح بضرورة تأسيس دولة واحــدة إسلامية، لا دويلات هي ويلات على المسلمين، وأماكن استعمار للكافرين.

المبادئ الاجتماعية المستفادة من الآية

1. **إصلاح ذات البين:** ورد في القرآن الكريم العديد من الآيات التي تدعو المسلمين وتأمرهم بالإجماع والتآلف، وتنهى عــن التفرُّق والاختلاف المؤدّيين إلى التنازع والفشل، فمن هذه الآيات قوله تعالى: ﴿ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا

﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[1]. ومنها قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[2]. ومنها قوله: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[3]. ومنها آية الإصلاح مورد البحث، إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة في هذا المعنى. وهي كلّها تدلّ على وجوب وحدة الأمة والعمل على سلامة هذه الوحدة وصيانتها من العبث والبغي، وهذه الآيات جميعاً جاءت متّفقة على الأمر بالوحدة والنهي عن التشتّت والافتراق والاختلاف، لما ينجم عن ذلك عادة من التنازع والفشل الممقوت، وذلك لا يتأتّى إلا إذا كان إمامها واحداً لا ينازعه أحد، وهو ما يطرحه بعض الفقهاء في الفقه الإمامي بعنوان «**وحدة الولي الفقيه**» بعد المفروغية عن أصل الولاية العامة له. إذ إنّ وجود إمامين فأكثر يؤدّي إلى التنازع، وينجرّ إلى الشقاق والتناحر لا محالة، وهذا ممّا نهى الإسلام عنه، فدلّ على وجوب أن يكون إمام المسلمين واحداً، لأنّ ما لا يتمّ الواجب إلا به فهو واجب.

وإنّ وجوب إصلاح ذات البين وهو خلق شريف وعمل فاضل حثّ عليه القرآن الكريم. قال تعالى: ﴿وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾. فإنّ إصلاح ذات البين وإيجاد التفاهم وقلع الكدر والبغضاء من صدور المسلمين، وتبديل كل ذلك بالمحبّة، يُعدّ من أهمّ الأغراض الإسلامية. وكلمة «**ذات**» تعني الخلقة والبنية وأساس الشيء، والبين يعني حالة الارتباط والعلاقة بين شخصين أو شيئين. فبناء على هذا فإنّ إصلاح ذات البين يعني إصلاح أساس الارتباطات، وتقوية العلاقات وتحكيمها، وإزالة عوامل التفرقة والنفاق.

---

(1) سورة آل عمران، الآية 103.

(2) سورة آل عمران، الآية 105.

(3) سورة الأنفال، الآية 46.

جـاء عن الإمام الصـادق عليه السلام في كتاب الكافي أنـه قال: «**صَدَقَـةٌ يُحِبُّهَا الله إِصْلَاحٌ بَيْنِ النَّاسِ إِذَا تَفَاسَدُوا وتَقَارُبُ بَيْنِهِمْ إِذَا تَبَاعَدُوا**»[1].

2. **الانتصـار للمظلـوم (إحقاق الحقّ لا فضّ النـزاع)**: الانتصار للمظلوم حتى ينال حقّـه وهـذا خلق إذا نما فى الأمـة علّمها العزّة ورفع عنها الذلـة وزادها ارتباطاً وحباً وأخوّة وقرباً.

لأنّـه قـد يُعتقد أنّ الهدف من الصلح هـو إنهاء النزاع مـع أنّ المفهوم من سورة الحجـرات أنّ الإصلاح بين الأطـراف - سواء كانت دائرته بين الأفراد والجماعات، أم بيـن الأزواج والزوجـات والأقـارب والأرحـام أم بيـن المتداينين أم فـي الأموال والدمـاء وفي النـزاع والخصومات، فإنّه في كل هذه الصور - الهدف من الصلح هو إحقاق الحقّ لا فصل الخصومة، فلا نكتفي بفصل الخصام والنزاع بل يجب إحقاق العدل في الخارج وهو ما عبّرت عنه الآية الكريمة «**بالقسط**» وأن من فعل ذلك صار مـورداً للحـبّ الإلهي «**إنّ الله يُحـبّ المقسطين**» ولعلّ هـذه النقطة هي نقطة فارقة بين القانون المدني والقانون الإسلامي، فالقانون المدني كلّ ما يعنيه هو حلّ النزاع بيـن الطرفيـن ولا شغل له بأن تصـل الحقوق إلـى مستحقّيها أو لا، فهـو يقوم بحلّ النـزاع بسلطة القانون أمّا الإسـلام لا يكتفي بحلّ النزاع لأنّ ذلك عنده مقدمة لأمر أساس وهو إحقاق العدل الاجتماعي بين الناس، ولا يقبل بتضييع حقوق المظلومين وتكريس سلطة الظالمين، بدعوى أنّ القانون يحكم بذلك. على أنّ فضّ الاشتباك أو حـلّ النزاع هو حلٌّ مؤقت قد ينتهي بانتهاء الظروف التي انتجت الصلح، أمّا إيصال الحقوق وتحقيق العدل هو حلٌّ دائم، لأنّه إنهاء لمادة النزاع من جذوره لا تأجيل له.

3. **وجوب التصدّي للعدوان**: إنّ الحفاظ على وحدة المجتمع الإسلامي وتماسكه هي من أهمّ الوظائف التي دعت إليها السورة المباركة، وفي سبيل الحفاظ على هذه

---

(1) الكافي، الكليني، ج2، باب الإصلاح بين الناس، ح1، ص 209.

الوحـدة والبنية المجتمعية يجب فعل أيّ شيء ممكـن ومشروع للوصول إلى ذلك والحيلولـة دون تفكيـك المجتمع. واعتبـرت السورة كما قلنـا أنّ الفتنة والاقتتال هـي أخطر المظاهر على بنيـة ووحدة المجتمع، فيجب علـى المؤمنين الإصلاح بيـن المتقاتليـن، وإذا لـم ينفع ذلك فعليهم قتـال الفئة الباغية وصـدّ عدوانها، لأنّ الهـدف من هذا القتال إرجاع وحـدة وتماسك المجتمع في قبال القتال الذي يستهدف تفكيك المجتمـع وجعله دويلات فهو ردع للقتال المفسد والفاسد بقتال مصلـح وصالـح. ولذا يجب التصـدّي للعدوان وتغييره وإقامـة العدل مهما كانت العوائق فى سبيل ذلك [1].

بحث حول الآية

قتال أهل البغي:

هـل الآيـة تشمل حالـة القيام ضـدّ الحكم الإسلامـي أم تخصّ الاختلاف بين طائفتين من المسلمين ليس بينهما إمام؟ المعروف بين المفسّرين أنّها تشمل الحالة الأولى ولذلك فقد تحدّثوا في تفسيرها عن حكم البغاة، وعمّا حدث في الصدر الأول من اقتتال الأصحاب ممّا كان مظهراً واضحاً للبغي ضدّ الإمام الحاكم.

وقـد يُفهم هذا الحكم أي قتال البغاة من رواية السيوف عن الإمام الباقر عليه السلام والتـي قال فيها: وأما السيف المكفوف فسيفٌ على أهل البغي والتأويل (ثم قرأ الآية الكريمة: وإن طائفتان..)...

وقد استفاد جملة من الفقهاء من قوله تعالى ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ

(1) أجوبة الاستفتاءات، الإمام الخامنئي، ج1، مسألة 66، ص 24.

ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴾[1] عدّة أحكام متعلّقة بقتال البغاة منها:

الأول: أنّ البغاة على الإيمان لأنّ الله سمّاهم مؤمنين، وهذا عندنا باطل؛ لأنّه إنّما سمّاهم مؤمنين في الظاهر كما قال: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴾ وهذه صفة المنافقين بلا خلاف.

الثاني: وجوب قتالهم فقال: ﴿فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى﴾ وهذا صحيح عندنا.

الثالث: القتال إلى غاية وهو أن يفيئوا إلى أمر الله بتوبة أو غيرها، وهذا صحيح لأنّه قال: ﴿حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾.

الرابعة: ذهب بعض الفقهاء إلى أنّه ليس المقصود من الآية قتال أهل البغي بل الاقتتال بين المؤمنين من دون النهوض في وجه الإمام المعصوم أو الحاكم العادل.

وهناك باب في الفقه الإسلامي بعنوان: «قتال أهل البغي»[2] ضمن كتاب الجهاد، والمراد منه قتال الظلَمة الذين ينهضون بوجه «الإمام العادل في المسلمين» وقد وردت فيهم أحكام كثيرة في هذا الباب... إلاّ أنّ ما أثارته الآية الآنفة موضوع آخر، وهو النزاع الواقع بين الطائفتين المؤمنين، وليس في هذا النزاع نهوض بوجه إمام المسلمين العادل ولا نهوض بوجه الحكومة الإسلامية الصالحة، وقد أراد بعض الفقهاء أو المفسّرين أن يستفيدوا من هذه الآية «**في المسألة السابقة**» إلاّ أنّ هذا الاستدلال كما يقول الفاضل «**المقداد**» في «**كنز العرفان**» خطأ بيّن. لأنّ القيام

---

(1) سورة الأنفال، الآية 6.

(2) تنظر الكتب التالية: النهاية في مجرد الفقه والفتاوى، الشيخ الطوسي، باب قتال أهل البغي والمحاربين وكيفية قتالهم والسيرة فيهم، ص 296. مسالك الأفهام، الشهيد الثاني، ج3، قتال أهل البغي، ص 91. وغيرها من الكتب الفقهية كالجواهر، والسرائر، والحدائق، تذكرة الفقهاء، الخ.

والنهوض بوجه الإمام العادل موجب للكفر، في حين أنّ النزاع بين المؤمنين موجب للفسق فحسب لا الكفر، ولذلك فإنّ القرآن المجيد عبّر عن الطائفتين بالمؤمنين وسمّاهم إخوةً، فلا يصحّ تعميم أحكام أهل البغي على أمثال هؤلاء!... ومن المؤسف أنّنا لم نعثر على بحث في الفقه في شأن أحكام هذه الطائفة، إلاّ أنّ ما يُستفاد من الآية المتقدّمة بضميمة القرائن الأُخَر وخاصةً ما ورد من إشارات في باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هي الأحكام التالية:

1. إنّ الإصلاح بين الطوائف المتنازعة «**من المسلمين**» أمر واجب كفائي.
2. ينبغي لتحقّق هذا الأمر أن يُشرع أوّلاً من المراحل البسيطة وأن تراعى قاعدة «**الأسهل فالأسهل**» إلاّ أنّه إذا لم ينفع ذلك فيجوز عندئذ المواجهة المسلّحة بل تلزم أحياناً...
3. ما يسفك من دم البغاة في هذا السبيل وما تذهب منهم من أموال كلّها هدر، لأنّ حكم الشرع قد امتثل وأُديّت الوظيفة الواجبة، والأصل في مثل هذه الموارد عدم الضمان!
4. حيث إنّ الهدف من هذه المقاتلة والحرب حمل الطائفة الباغية على قبول الحق، فعلى هذا لا تُثار في الحرب مسألة «**أسرى الحرب والغنائم**» لأنّ الطائفتين بحسب الفرض مسلمتان، إلاّ أنّه لا مانع من الأسر مؤقّتاً لإطفاء نائرة النزاع ولكن بعد حل النزاع والصلح يجب إطلاق الأسرى فوراً...

وفي ختام هذا الكلام نؤكّد مرّةً أخرى أنّ حكم هؤلاء البغاة منفصل عن حكم الذين يقفون بوجه الإمام المعصوم أو الحكومة الإسلامية العادلة، فإنّ لهذه الطائفة الأخيرة أحكاماً أشدّ وأصعب واردة في كتاب الجهاد من الفقه الإسلامي [1].

(1) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ناصر مكارم الشيرازي، ج16، ص 538- 540.

حالات الفئة الباغية:

ثم الطائفتان المتقاتلتان لهما حالات من حيث البغي المقصود وسواه:

1. أنهمـا باغيـان من كـل جهـة مقصـودة ﴿فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾ إزالة للبغـي بينهما ﴿فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ﴾ إن استمـرت في البغي، أو تحوّلت إلى بغي آخر أو بغي الأخرى ﴿فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾.

2. أو أنهما باغيان جهلاً وسوء تفاهم دون تقصّد؟ فكذلك الأمر، كما وإذا استمرا في بغي مقصود وسواه (فقاتلوهما حتى يفيئا إلى أمر الله) قتال هو نضال للإصلاح وإن شملهما إذا بغتا.

3. أو أنّ إحداهما باغية قصداً أو سواه، ثم عند الإصلاح استمرّت أو غيّرت بغيها إلى وجه آخر، أم تابت ولكن الأخرى بغت ﴿فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى﴾ سواء أكانت البادئة هي المستمـرة، أو الأخـرى هي البادئة بعد الأولى، فلا يكـون القتال إلا مع التي تبغي بعد محاولة الإصلاح.

فالمصلحـون يبتدئون بالإصلاح الموعظة والإيضاح ﴿فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾ بأية وسيلـة ممكنة عظـة وبرهاناً، فمن يتجاهـل هذه اللغة الواعظـة، فلغة القتال ﴿فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى﴾ ولكـن إلى حـدّ وليس فوضى انتقـام: ﴿حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ الـذي تحقّقونـه فـي الإصلاح، والـذي أُمر من تحقيـق الأخـوة الإيمانية ﴿فَإِن فَآءَتْ﴾ الباغيـة: كرهاً هنـا ﴿فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾ حيث الفيء إلى أمر الله طوعاً هنـاك هو الصلح بعينه فلا حاجة فـي الإصلاح، ولكنما الفيء كرها هنا بحاجة إلـى إصلاح بعده، يُحدّده عند حـدّه لكي لا يتكرّر، وذلـك بتحكيم بنود الاتفاق، ولكنّـه «**بالعـدل**» دون أن تتحكّم فيـه روح الانتقام ﴿وَأَقْسِطُوٓا۟﴾ هنا وهنـاك ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾.

فهنـا إصـلاح أول طوعاً، وإصـلاح ثان كرهاً، وقتـال قبل الثانـي إذا لزم الأمر،

وليكـن هذا المثلّث المصلح عدلاً وقسطـاً، وهكذا ينتهي دور الإصلاح بين المؤمنين إلى حفاوة وحنان وعدل وإحسان[1].

الدروس المستفادة من الآية

1. إنّ وقوع النزاع بين المؤمنين هو أمر مؤقّت وليس دائماً. لأنّ الآية الكريمة عبّرت ﴿ٱقۡتَتَلُواْ﴾ ولم تُعبّر «**يقتتلون**».
2. لا بـدّ إذاً أن يتحمّـل الناس جميعـاً مسؤولية الحفاظ علـى السلام ووقف نزيف الدم.ولا فرق في المسؤولية بين أحد منهم وذلك لقوله ﴿فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا﴾.
3. ينبغـي عدم تأخير الصلح بين المتنازعين والمبادرة الفورية إلى الإصلاح مهما أمكن وذلك لوجود حرف الفاء في قوله ﴿فَأَصۡلِحُواْ﴾.
4. إذا لـم توافق الأطـراف المتنازعة (النزاع المسلح) علـى الصلح أو طائفة من الطائفتيـن فينبغي على المسلمين قتالهـم، وقد أشرنا أنّ قتال الفئة الباغية في حـال انطبـاق الآية عليهم تكون تحت إمـرة وقيادة الإمام المعصـوم أو الحاكم العادل المتمثّل في وقتنا الحاضر بالولي الفقيه ﴿فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي﴾.
5. مـن أجـل الحفاظ علـى أمـان وسلامة ووحـدة المجتمـع الإيمانـي ينبغي على المسلميـن إعـلان الحرب على هؤلاء البغاة حتى لـو أدّى ذلك إلى قتلهم أي قتل البغـاة، فإنّهـم مهدوري الدم أي لا قيمة لدمائهم فـلا يلزم أي دية لقتلهم سواء حكمنـا بكفـر البغاة أم لـم نحكم بذلك، فهـم في حال اختيارهـم الحرب على الصلح مهدورو الدم.
6. إنّ القتـال والحـرب لا يوقفها إلا القتال والحرب، وإن كـان لا فرق بين الحربين ظاهـراً إلا أنّ لكـل واحد منهما أهـداف خاصة، فهدف البغاة هـو الإفساد في

(1) الفرقان فى تفسير القرآن بالقرآن، ج27، ص 237.

الأرض وهدف المقاتلين لهم من المسلمين هو الإصلاح في الأرض، لأنّه قد يتعذّر الإصلاح بالوسائل السلمية فلا بد من إعمال القوّة العسكرية ﴿فَقَٰتِلُواْ﴾.

7. ينبغي عدم التهاون مع البغاة وعدم إمهالهم والمبادرة الفورية إلى قتالهم بعد رفضهم الصلح، لأنّ التقاعس أو التمهّل في ذلك قد يزيد من خطرهم على الأمة، فيجب محاربتهم فوراً. وذلك لوجود حرف الفاء في قوله: ﴿فَقَٰتِلُواْ﴾.

8. لا يوجد في الإسلام حرب أهدافها ودوافعها حزبية أو قومية أو انتقامية، إنّما الحرب في الإسلام لها هدف مقدّس واحد وهو قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ﴾.

9. إذا قمنا بتحليل لقوله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾. نستنتج الأمور التالية:

- في حال وقوع الاقتتال يجب الإصلاح وبشكل فوري وهدف هذا الإصلاح إطفاء الفتنة المشتعلة.
- في حال عدم قبولهم للصلح (والظاهر أنه بعد إبرامه وخرقهما أو خرق أحدهما للصلح) يجب قتالهم أو قتال الفئة الباغية وبشكل فوري وهدف هذا القتال هو ﴿حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ أي ترجع الفئة الباغية إلى حكم الله تعالى منكسرة وضعيفة.
- بعد مرحلة«**الفيء**» الرجوع الذي فيه انكسار وذلة تأتي مرحلة الصلح الثانية ﴿فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ﴾ وهذا الصلح أهدافه ومنهجه وأساليبه مختلفة، ولكن يتفق مع المرحلة الأولى أنّه صلح وفوري ولكن الهدف الأساس هو إحقاق العدل في الخارج وإيصال الحقوق إلى مستحقّيها بشكل

كامـل أي صلح تام يمنع أي شكل من أشكال الفســاد ويوصل إلى المظلومين والمستضعفيــن حقوقهم من الظالمين والمستكبرين وهو معنى ﴿وَأَقۡسِطُوٓاْۖ﴾ ولم يستعمل هنا الفورية، لأنّ نار الفتنة قد أنطفئت بل قد يكون المطلوب في هــذه المرحلة هو الهــدوء والدقة في العمل والمفاوضــات الجادة حتى تصل الحقــوق إلى أهلها، وهــذا يحتاج إلى وقت عادة، ولذا لــم يأمر به الله تعالى علــى نحو الفورية. ويمكن القول باختصــار أنّ الصلح في المرحلة الثانية هو بنود الاتفاق بين الطرفين بالعدل أي إرجاع الحقوق إلى أهلها. والإقساط هو تطبيق بنود الصلح في الخارج.

10. إنّ على المؤمن أن يضع نصب عينه أنّه مهما تعرّض لصعوبات في مجال إرساء الصلــح والعــدل بيــن المتنازعين فإنــه سيكون محطــاً لعناية وحــب الله تعالى: ﴿يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾.

﴿ **للمطالعة:**

وصايا أمير المؤمنين عليه السلام في الحرب

وفي وصايا أمير المؤمنين عليه السلام في حروبه (الجمل، وصفين، والنهروان) مسائل كثيرة نُلخّص منها ما يرتبط بالمقام:

- لا تقاتلوا القوم حتى يبدأوكم فإنّكم بحمد الله على حجة وترككم إياهم حتى يبدأوكم حجة أخرى لكم عليهم.
- انهدوا إليهم وعليكم السكينة ووقار الإسلام، استشعروا الخشية وتجلببوا السكينة.
- لا تُمثّلوا بقتيل إذا قاتلتموهم وهزمتموهم بإذن الله.
- فلا تقتلوا مدبراً، ولا تجهزوا على جريح أي لا تقتلوهم سريعاً.
- وإذا وصلتم إلى رحال القوم فلا تكشفوا عورة والعورة كل ما يستحيي منه إذا ظهر.
- ولا تهتكوا ستراً.
- ولا تأخذوا شيئاً من أموالهم إلا ما وجدتم في عسكرهم.
- لا تتبعوا مولّياً ولا تطلبوا مدبراً.
- ولا تقتلوا أسيراً.
- ولا تصيبوا معوراً، من أعور الفارس إذا بدأ فيه موضع خلل.
- ولا يطلب المبارزة إلا بإذن الإمام.
- ومن ألقى إليكم السلم فاقبلوا منه.
- قال عليه السلام للأشتر: إياك وأن تبدأ القوم بقتال إلا أن يبدأوك حتى تلقاهم وتسمع منهم ولا يجرمنّكم شنآنهم على قتالهم قبل دعائهم والإعذار إليهم مرّة بعد مرّة.
- وعليك بالتأنّي في حربك وإياك والعجلة إلا أن تمكنك فرصة.

7

الأخوة الإيمانية

مفاهيم محورية:

- الأخوة في القرآن الكريم والروايات الشريفة.
- أهمية التآخي في بناء المنظومة الاجتماعية.
- دور التآخي في بناء المجتمع.
- كيفية معرفة الإخوان.
- الدروس المستفادة من الآية.

النص القرآني

قــال الله تعالــى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

تمهيد

هــذه الآيــة تعقيب علــى الآية السابقــة، وعلى ما دعــت إليه المؤمنيــن من حسم الخلاف الذي يقع بين جماعاتهم، ثم هو إلفات إلى أنّ الأخوّة القائمة بين المؤمنين لا تتغيّر صفتها، ولا تنقطع آثارها بتلك العوارض التي تعرض لهم فى حياتهم، فإنّما هــى موجــات من ريح عابرة، لا تلبــث أن تفتر، ثم يعود إلى البحــر سكونه، وصفاؤه، وجلالــه... ومن جهــة أخرى، فإنّ الفئــة الباغية، لا يزال لها مكانهــا فى المؤمنين، ولا تــزال لها أخوّتهــا فيهم، وإذن فلا يجــار عليهم لأنّهم جــاروا، ولا يعتدى عليهم، لأنّهم اعتدوا، وإنّما يُقبل منهم قبولهم لما قضى به المؤمنون عليهم، ثم إنّ لهم بعد هــذا حقهم كاملاً لا ينقص منه شيء.. فالمعتدون والمعتدى عليهم إخوان للمؤمنين جميعاً[1]..

---

(1) التفسير القرآني للقرآن، ج13، ص 447.

مفردات الآية

- **إِخْوَةٌ**: الأخ وهو المشارك آخر في الولادة، من الطرفين أو من أحدهما أو من الرضاع، ويُستعار في كلّ مشارك لغيره في القبيلة أو في الدين أو في صنعة أو فـي معاملة أو في مودّة أو في غير ذلك من المناسبات... والفرق بين الإخوة والإخوان: أنّ استعمال الإخوة في ابتداء مراحل الأخوّة، ولمّا تحقّقت المحبّة بينهـم وكملت الألفة وخلصـت المودّة تطلق كلمة الإخـوان، وكذلك إذا أُريد تحقّـق المحبّة وجلب الألفـة وإيجاد الأخوّة بينهم. ويؤيّـده وجود حرف المدّ واللّيـن فيه. هذا ما يظهـر ويستكشف من تحقيق مـوارد استعمال الكلمتين. ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾. نزلـت فـي مـوارد حـدوث الاختلاف والبغض بينهم، فيشار إلى دفعه بالاشتراك في الإيمان[1].
- **وَاتَّقُوا: وقى: الوِقَايَةُ**: حفظُ الشيءِ ممّا يؤذيه ويضرّه. والتَّقْوَى جعل النّفس فـي وِقَايَةٍ ممـا يخاف، هذا تحقيقه، ثـمّ يسمّى الخوف تارة تَقْـوًى، والتَّقْوَى خوفـاً حسب تسميـة مقتضى الشـيء بمقتضيه والمقتضـي بمقتضاه، وصار التَّقْـوَى في تعـارف الشّرع حفظ النّفس عمّا يؤثـم، وذلك بترك المحظور[2]. هـو حفظ الشيء عن الخـلاف والعصيان في الخارج وفـي مقام العمل، كما أنّ العفّـة حفـظ النفس عـن تمايلاته وشهواتـه النفسانيّـة. والتقوى تختلف خصوصيّاتـه باختلاف المـوارد، والجامع هو صيانة الشـيء عن المحرّمات الشرعيّـة والعقليّـة، والتوجّـه إلـى الحقّ والى تطهيـر العمل والـى الجريان الطبيعـيّ المعروف. ويقابلـه الفجور: وهو انشقاق حالـة الاعتدال والجريان الطبيعيّ المعروف وخروج أمر مخالف يوجب فسقاً وطغياناً[3].

---

(1) التحقيق في كلمات القرآن الكريم، حسن المصطفوي، ج1، أخو، ص 49.

(2) مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، وقى، ص 881.

(3) التحقيق في كلمات القرآن الكريم، ج13، وقى، ص 184.

- **تُرْحَمُـونَ: رحـم:** أصل واحـد يدلّ على الرقّة والعطـف والرأفة. ولكلّ واحد منهـا خصوصية: فإنّ النظر فـي الرقّة إلى ما يقابل الغلظة، وفي اللطف إلى الدقّـة والتوجّه إلى الخصوصيّات، وفي العطوفة إلـى التمايل وجلب التوجّه، وفـي الرأفة إلى شفقة شديدة، وفي الحبّ إلى مطلق المحبّة، وفي الحنّة إلى رقّة مخصوصة كما سبق في مادّتها. فالرقّة توجد في القلب أوّلاً، ثمّ يحصل اللطـف، ثـمّ العطوفة، ثـمّ الحنّة، ثـمّ المحبّة، ثـمّ الشفقة، ثـمّ الرأفة، ثمّ الرحمـة. فالرحمة: إنّما هي تجلّي الرأفة وظهـور الحنّة والشفقّة، وفي مقام التعلُّق والإظهار، ويلاحظ فيها الخير والصلاح، ولو أوجدت كراهة أو ألماً أو ابتلاء، كما في إسقاء الدواء المرّ للمريض[1].

المعنى التفصيلي

1. ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾: الآيـة استخدمت أداة الحصر «إنّما» وهي تدلّ على قصر المسنـد علـى المسند إليه فلا يوجـد بين المؤمنين إلا علاقـة الأخوة. «فالإيمان الذي لا يرفع المنتمين إليه إلى حالة الأخوة إيمان ضعيف ناقص، فها هنا تقاس التقوى، وتُمحّصـ النفوس للإيمان، ويستبين الصادقـون عن المنافقين. هناك عشـرات الأنظمة الاجتماعية، ومئـات الوصايا الأخلاقية توالـت في الدين ليبلغ المسلمون حالة الأخوة الإيمانية، ومتى ما خالفنا بعضها انماث الإيمان في القلوب كمـا تنماث حبة الملـح في كفّ المحيـط.. وجاءت الروايات تتـرى وهي توصينا بحقوق إخوتنا في الإيمان»[2].
2. ﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾: حينمـا اختـار الغرب مبـدأ المواطنة لبيان العلاقـة بين أبنائه انطلـق مـن فكرة تقديس الأرض وربـط النـاس بها وبالمصالـح المشتركة التي

(1) التحقيق في كلمات القرآن الكريم، رحم، ج4، ص 92.
(2) من هدى القرآن، ج13، ص 402.

تشـدّ مجموعة من البشر ببعضهم، وحينما انتخـب بعض الشرق كلمة«**الرفيق**» فقـد اعتمد علـى دور المسيرة النضالية في علاقاتـه الاجتماعية. أمّا الإسلام فقـد اجتبـى لنا كلمة «**الأخ**» لنعلـم أنّ صلتنـا ببعضنا ليست ماديّـة قائمة على أسـاس تقديـر الأرض والمصالـح، كمـا أنّها لا تخصّ حالة النضـال ورفاقة المسيـرة، وإنّما هي مبدئيـة ناشئة من صلة كل واحد منّـا بدينه، حتى ليصبح الديـن كالأب الذي هو أصل وجود الابـن، وكلّما قويت واشتـدّت صلتنا بالأصل كلّما قويت وتنامت صلتنا ببعضنا. وإنّما نسب الوحي الأخوة إلى الإيمان (وليس الإسلام) لأنّ الإسلام مجرّد التسليم للدين بينما الإيمان وقر في القلب يفيض علـى كل جوانب حيـاة الإنسان، والـذي يرفع النـاس إلى مستـوى الأخوة ليس مجـرّد التصديق المبدئي بالدين وإنّمـا تطبيق تلك التعاليم القيمة التي تسقط الحواجـز المادّية والمصلحية التـي تفصلهم عن بعضهم [1]. وهنـاك وجه آخر لأخـوة المؤمنين هو انتسابهم إلـى النبيّ ﷺ والوصيّ عليه السلام فقد ورد أنّه ﷺ قـال: «**يا علـي، أنت أخـي، وأنا أخوك، أنـا المصطفـى للنبوة، وأنـت المجتبى للإمامـة، وأنـا صاحـب التنزيـل، وأنـت صاحب التأويـل، وأنا وأنـت أبوا هذه الأمـة...**»[2].

3. وممّا يترتّب على هذه الأخوة- في الآية- أو القاعدة الإيمانية ما يلي:

- أن يكون الحبّ والسـلام والتعاون والوحدة هي الأصل في الجماعة المسلمة، وأن يكـون الخلاف أو القتال هو الاستثنـاء الذي يجب أن يرد إلى الأصل فور وقوعه.

---

(1) (م.ن)، ص 403.

(2) الأمالي، الصدوق، فضائل علي عليه السلام، ص 411.

- ومـع قيام هذا الأصل فإنّ النص القرآني يمكن إعماله في جميع الحالات- بمـا في ذلـك الحـالات الاستثنائيـة التي يقـوم فيهـا إمامـان أو أكثر في أقطـار متفرّقة متباعدة من بـلاد المسلمين، وهي حالة ضـرورة واستثناء من القاعـدة- فواجب المسلمين أن يحاربـوا البغاة مع الإمام الواحد، إذا خـرج هـؤلاء البغـاة عليـه. أو إذا بغت طائفة علـى طائفة فـي إمامته دون خـروج عليه. وواجب المسلمين كذلك أن يقاتلوا البغاة إذا تمثّلوا في إحدى الإمامـات المتعـدّدة في حالات التعـدّد الاستثنائيـة، بتجمّعهـم ضدّ الفئة الباغيـة حتـى تفيء إلى أمـر اللّه. وهكذا يعمـل النص القرآنـي في جميع الظـروف والأحوال. وواضـح أنّ هذا النظـام، نظام التحكيـم وقتال الفئة الباغيـة حتى تفـيء إلى أمر اللّه، نظام له السبق مـن حيث الزمن على كل محاولات البشرية في هذا الطريق. وله الكمال والبراءة من العيب والنقص الواضحيـن فـي كل محاولات البشريـة البائسة القاصرة التـي حاولتها في كـلّ تجاربهـا الكسيحة! وله بعـد هذا وذاك صفة النظافـة والأمانة والعدل المطلـق، لأنّ الاحتكـام فيـه إلى أمر اللّه الـذي لا يشوبـه غرض ولا هوى، ولا يتعلّـق به نقص أو قصـور.. ولكن البشرية البائسـة تطلع وتعرج، وتكبو وتتعثّـر. وأمامهـا الطريـق الواضـح الممهّـد المستقيـم[1].

4. استئنـاف مؤكّد لما تقدّم من الإصـلاح بين الطائفتين المتقاتلتين من المؤمنين، وقصـر النسبة بين المؤمنين في نسبة الأخـوة مقدّمة ممهّدة لتعليل ما في قوله: ﴿فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْۚ﴾ مـن حكـم الصلـح فيفيـد أنّ الطائفتيـن المتقاتلتيـن لوجود الأخـوة بينهما يجب أن يستقر بينهما الصلـح، والمصلحون لكونهم إخوة للمتقاتلين يجب أن يسعوا في إصلاح ما بينهما.

(1) في ظلال القرآن، ج6، ص 3344.

5. وقوله: ﴿فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡ﴾ ولم يقل: فأصلحوا بين الأخوين من أوجز الكلام وألطفه، حيث يفيد أنّ المتقاتلتين بينهما أخوة فمن الواجب أن يستقر بينهما الصلح وسائر المؤمنين إخوان للمتقاتلتين فيجب عليهم أن يسعوا في الإصلاح بينهما[1].

بحث حول آية

الأخوة الأخوة في القرآن الكريم والسنة الشريفة:

1. معنى الأخوة:

الأخوة: هي جعل تشريعي لنسبة الأخوة بين المؤمنين لها آثار شرعية وحقوق مجعولة، كالأبوة والبنوة وسائر أنواع القرابة، ومنها ما هو اعتباري مجعول يعتبره الشرائع والقوانين لترتيب آثار خاصة عليه كالوراثة والإنفاق وحرمة الازدواج وغير ذلك، ومنها ما هو طبيعي بالانتهاء إلى صلب واحد أو رحم واحدة أو هما. والاعتباري من القرابة غير الطبيعي منها فربما يجتمعان كالأخوين المتولّدين بين الرجل والمرأة عن نكاح مشروع، وربما يختلفان كالولد الطبيعي المتولّد من زنا فإنه ليس ولداً في الإسلام ولا يلحق بمولده وإن كان ولداً طبيعياً، وكالدعي الذي هو ولد في بعض القوانين وليس بولد طبيعي.

واعتبار المعنى الاعتباري وإن كان لغرض ترتيب آثار حقيقته عليه كما يؤخذ أحد القوم رأساً لهم ليكون نسبته إليهم نسبة الرأس إلى البدن، فيدبّر أمر المجتمع ويحكم بينهم وفيهم كما يحكم الرأس على البدن.

لكن لمّا كان الاعتبار لمصلحة مقتضية كان تابعاً للمصلحة، فإن اقتضت ترتيب جميع آثار الحقيقة ترتّبت عليه جميعاً، وإن اقتضت بعضها كان المترتّب على

(1) الميزان في تفسير القرآن، ج18، ص 317.

الموضـوع الاعتبـاري ذلك البعض، كمـا أنّ القراءة مثلاً جزء مـن الصلاة والجزء الحقيقي ينتفي بانتفائه الكلّ مطلقاً، لكن القراءة لا ينتفي بانتفائها الصلاة إذا كان ذلك سهواً وإنما تبطل الصلاة إذا تُركت عمداً.

ولذلـك أيضاً ربما اختلفت آثار معنى اعتبـاري بحسب الموارد المختلفة كجزئية الركـوع حيث تبطـل الصلاة بزيادته ونقيصته عمداً وسهـواً بخلاف جزئية القراءة كما تقدم فمـن الجائز أن يختلف الآثار المترتبة على معنى اعتباري بحسب الموارد المختلفة، لكن لا تترتّب الآثار الاعتبارية إلا على موضوع اعتباري، كالإنسان يتصرّف في ماله لكن لا بما أنه إنسان بل بما أنه مالك، والأخ يرث أخاه في الإسلام لا لأنّه أخ طبيعـي يشارك الميت في الوالد أو الوالدة أو فيهما- فولد الزنا كذلك ولا يرث أخاه الطبيعي- بل يرثه لأنّه أخ في الشريعة الإسلامية.

والأخـوة من هذا القبيل فمنها أخوة طبيعية لا أثر لها في الشرائع والقوانين وهي اشتـراك إنسانيـن في أب أو أم أو فيهما، ومنها أخوة اعتبارية لها آثار اعتبارية وهي في الإسلام أخوة نسبية لها آثار في النكاح والإرث، وأخوة رضاعية لها آثار في النكاح دون الإرث، وأخـوة دينية لها آثار اجتماعية ولا أثـر لها في النكاح والإرث، كما يقول الصـادق عليه السلام : المؤمـن أخو المؤمن، عينه ودليله، لا يخونـه، ولا يظلمه ولا يغشّه، ولا يعده عدة فيخلفه.

2. الإيمان علاقة اجتماعية:

الإيمان ليس علاقة شخصية بين المؤمن وربّه فقط، بل علاقة أخوية جماعية أيضاً بينه وبين سائر المؤمنين، بل وليست بينهم أيّة علاقة ورباط إلّا أخوة إيمانية، كلّ ذلك بدافع الإيمان وسناده، يلمح له الحصر: «**إِنَّمَا**» كما تقدّم التي تحصر كافة المناسبات بين المؤمنين بالأخوَّة ولذا قالت الآية: ﴿**إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ**﴾لا «**إنّما الأخوة المؤمنون**» فإنّ هناك أُخـوَّات أخرى بين سائر الناس ليست بالتي

تحصر مناسباتهم بالأخوة الألفة الخلة، بل وتتبدلّ وعلى أقصى الحدود بعد الموت بالعداوة: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾[1] وإذ كانت هذه حالة الخلّة غير الإيمانية، فما هي حالة سائر الأُخوّات التي لا تستلزم الخلّة؟.

إنّ أخــوَّة الإيمان تشريعيــة، وواقعية بدافع الإيمان، يؤمر المؤمــن أن يؤصّلها في حياتــه الجماعيــة لحد لا تبقى بين المؤمنين إلا الأخــوة، وليست هي الأخوة الخلقية كمــا بيــن الناس أجمعيــن، ولا أخوة القرابــة الشرعية التي تحرم فقــط النكاح، ولا الإقليميــة أو العنصريــة أو الحزبية أو غير ذلك من أُخوَّات غير إيمانية، فإنّها ليست لزامــاً بين هكذا أخوة الإيمان. عَنْ أَبِي بَصِيرٍ قَــالَ سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللّه عليه السلام يَقُولُ «**الْمُؤْمِـنُ أَخُـو الْمُؤْمِـنِ كَالْجَسَدِ الْوَاحِـدِ إِنِ اشْتَكَى شَيْئاً مِنْه - وَجَـدَ أَلَمَ ذَلِكَ فِي سَائِـرِ جَسَـدِه وأَرْوَاحُهُمَـا مِنْ رُوحٍ وَاحِـدَةٍ وإِنَّ رُوحَ الْمُؤْمِنِ لأَشَـدُّ اتِّصَالاً بِرُوحِ اللَّه مِنِ اتِّصَالِ شُعَاعِ الشَّمْسِ بِهَا**» [2].

وعــن الإمام الصادق عليه السلام :«**الْمُؤْمِـنُ أَخُو الْمُؤْمِنِ عَيْنُـه ودَلِيلُه لَا يَخُونُه ولَا يَظْلِمُه ولَا يَغُشُّه ولَا يَعِدُه عِدَةً فَيُخْلِفَه**»[3].

فالقاعــدة التي يأسّسها القرآن في هذا المجال هي أنّ «**النسب الصحيح بالدين لا بالطيــن**» والأخوّة التي يريدها القرآن الكريم هي أخوة الصفة، وهي أحقّ مراتب الأخــوة، فإنّ بها يقــع التوارث، فبأخوّة الإيمان ترث، فلا تأسف على أخوّة النسب ولا تكترث، المؤمن أخو المؤمن لا يسلمه، وما ترك فهو يتسلّمه.

وروي عن الإمام زيــن العابدين عليه السلام في رسالة الحقوق: «**وحقُّ أخيكَ، أن تعلمَ أنَّـه يـدكَ الّتـي تبسطُهـا، وظهرُك الّـذي تلتجىءُ إليـهِ، وعزُّك الّذي تعتمـدُ عليهِ، وقوَّتك الّتي تصولُ بها، فلا تتّخذْهُ سلاحًا على معصيةِ اللهِ، ولا عُدَّةً للظلمِ لخلقِ**

---

(1) سورة الزخرف، الآية 67.

(2) الكافي، الكليني، ج2، باب أخوة المؤمنين بعضهم لبعض، ح4، ص 166.

(3) الكافي، الكليني، ج2، باب أخوة المؤمنين بعضهم لبعض، ح3، ص 166.

اللّهِ، ولا تدعْ نصرتَه على نفسِه ومعونَتَه على عدوِّه، والحؤولَ بينَه وبينَ شياطينِه، وتأديـةَ النصيحـةِ إليهِ، والإقبالَ عليهِ في اللّهِ، فـإنِ انقادَ لربِّهِ وأحسنَ الإجابةَ لهَ، وإلَّا فليكُن اللّهُ آثرَ عندَكَ وأكرمَ عليكَ منهُ»[1].

والإمام عليه السلام هنا يريد أنّ الأخ هو الذي اتحد بأخيه اتحاداً تاماً، حتى أصبحت يد أحدهما يد الآخر، وعزّ أحدهما عزّ الآخر. فالأخ للإنسان يد تبسط، وظهر يستند إليـه، وقوة يستعين بها على مناهضة الأيام ومغالبة الخطوب، لا أن يتخذ سبيلاً إلى معصية اللّه أو يتخذ عدة للظلم لخلق اللّه. ومن حق الأخ أن يحال بينه وبين الشيطان، وأن تؤدّى إليه النصيحة وليس حقّ الأخ بمقدّم على حقّ اللّه، بل اللّه آثر منه وأكرم.

3. الوحدة من أركان المجتمع الإيماني:

واعلـم أنّ اللّه قـد واخى بيـن المؤمنين كما واخى بيـن أعضاء جسـد الإنسان، فالمؤمـن إذا أصيب أخوه المؤمن بمصيبة فكأنّه هو الذي أُصيب بها، فيتألّم لتألّمه، ومتـى لـم يفعل ذلـك المؤمن مع المؤمنيـن، فما ثبتت أخـوة الإيمان بينـه وبينهم، والمؤمـن أخـو المؤمن لا يسلمـه ولا يخذله، فالمؤمن لا يبغض المؤمن، والمؤمن لا يقتـل المؤمن لإيمانه، فآية الأخوة جعلت أباهم الإيمان، فهم أخوة لأب واحد، بنص هذه الآية.

وللإمام الخميني قدس سره توجيهات كثيرة تبيّن أهميّة الوحدة في المجتمع الإيماني وأنّ المجتمـع مبنـي على فكرة وقاعـدة واضحة وهي «**الأخوة**» ننقـل بعضاً من هذه الكلمات المباركة.

«نحـن إخوة فى الإسلام. واجب الدول الإسلاميـة حسب أحكام الإسلام وتوحد الكلمة تحت راية التوحيد»[2].

---

(1) تحف العقول عن آل الرسول صلى الله عليه وآله، ابن شعبة الحراني، رسالته عليه السلام في جوامع الحقوق، ص 263.

(2) صحيفة الإمام، ج10، ص 355.

«إنّ بعض المسلمين شيعة وبعضهم سنة وهذا حنفي وذلك حنبلي والآخر إخباري. فى الواقع إنّ طرح هذه الأمور ليس صحيحاً ولا يجب أن نشير إلى أمور كهذه فى ظل مجتمع يسعى جميع أفراده لخدمة الإسلام وعزّته. فالجميع إخوة فى الدين والفرق الوحيد بينهم هو أنّ البعض عمل بفتوى معيّنة فصار حنفياً والآخر شافعيياً والثالث شيعياً وهذا كله ليس مسوّغاً للاختلاف، فنحن إخوة ولا يجب أن نختلف فيما بيننا. وعلى كل الإخوة من شيعة وسنة أن يحترزوا من وقوع الاختلاف... فالجميع مسلمون والكل يؤمن بالقرآن والتوحيد ويجاهد فى سبيل القرآن ويخدم الإسلام»[1].

«لا يُفرق الإسلام أبداً بين الشيعة والسنة، فلا ينبغى التفريق بين الشيعة والسنة، عليكم الحفاظ على وحدة الكلمة. لقد أوصانا الأئمة الأطهار بأن نتعاضد فيما بيننا وأن نحفظ مجتمعنا وأنّ من يسعى إلى بثّ الاضطراب فى هذا المجتمع إمّا جاهل أو مغرض ولا ينبغى الاستماع لكلامه... وهذه البلاد للجميع، للاقليات الدينية، ولإخواننا من أهل السنة، لنا جميعاً»[2].

«مسألة السنة والشيعة غير مطروحة فى الإسلام، فى الإسلام الجميع أخوة فلا أنتم أعداؤنا ولا نحن أعداؤكم، لأن الإسلام دين الأخوة والمساواة» [3].

4. آثار الأخوّة الإيمانية:

وتُبرز بعض الروايات عنصراً مهماً في موضوع التآخي هو السكينة والاطمئنان، لأنّ المؤمن يشعر شعورًا صادقًا براحة نفسيّة مع أخيه المؤمن. السكينة التي أنزلها الله تعالى على المؤمنين: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾[4]. ﴿فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ

(1) صحيفة الإمام، ج13، ص 49.
(2) صحيفة الإمام، ج6، ص 72.
(3) صحيفة الإمام، ج9، ص327.
(4) سورة الفتح،الآية 4.

عَلَيۡهِمۡ وَأَثَٰبَهُمۡ فَتۡحٗا قَرِيبٗا ﴾[1]. وقـال بعضـ المفسّرين بـأنّ السَّكِينَـةَ وهي الرحمة التي تسكـن إليها النفس ويزول معها الخوف[2]. وهي تدلّ في بعض استعمالاتها على الثبات والطمائنية. على كلٍّ وصفت الروايات علاقة المؤمن مع أخيه المؤمن بالسكن وهو تعبير يدلّ على أهمية التآخي. عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّه عليه السلام «**قَالَ إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيَسْكُنُ إِلَـى الْمُؤْمِـنِ كَمَا يَسْكُنُ الظَّمْـآنُ إِلَى الْمَاءِ الْبَارِدِ**»[3]. كمـا أنّ للظمآن اضطراباً في فراق الماء وكمال ميل إلى طلبه وسكوناً واستقراراً عند وجدانه وانتفاعاً به في حياة روحـه، كذلك للمؤمن بالنسبة إلى المؤمـن، وفيه تشبيه للمعقول بالمحسوس لزيادة الإيضاح...

أهمية التآخي في بناء المنظومة الاجتماعية:

مـن أكبـر النعم التـي أنعم اللّه تعالى بها علـى عباده نعمة الأخـوة في اللّه، التي سببها الإيمـان، فهي قائمة علـى أوثق عرى الإيمان كمـا في الحديث عَـنْ أَبِي عَبْدِ اللَّه عليه السلام قَـالَ: «**مِـنْ أَوْثَقِ عُرَى الإيمان أَنْ تُحِبَّ فِي الله وتُبْغِضَ فِي الله وتُعْطِيَ فِـي الله وتَمْنَـعَ فِـي الله**»[4] العروة الكوز ونحـوه والمراد بها هنـا الأحكام والأخلاق والآداب اللازمـة للإيمـان علـى سبيل المكنيـة والتخييلية أي كل عـروة يتمسّك بها متمسّـك رجاء نجاة من مهلكة أو ظفر بغنيمـة ونعمة ومنزلة، فأوثقها الحبّ في اللّه والبغض فـي اللّه والإعطاء في اللّه والمنع في اللّه، لأنّ مـن تمسّك بها تكامل إيمانه واستقام لسانه واستقرّ جنانه، وبه يتحقّق التودّد والتآلف بين المؤمنين، ويتمّ ويكمل نظـام الدنيا والديـن، فهذه العلاقة هي أسمـى علاقة وأقوى رابطـة يمكن أن تكون فـي مجموعـة من البشر، لأنّ لها سببًا سماويًّا رفيعًـا، وما دونها من علاقات النسب

(1) سورة الفتح،الآية 18.

(2) التبيان في تفسير القرآن، الطوسي، ج5، ص 199.

(3) الكافي، الكليني، ج2، باب في سكون المؤمن إلى المؤمن، ح1، ص 247.

(4) الكافي، الكليني، ج2، باب الحب في الله والبغض في الله، ح2، ص 125.

والمصاهــرة قد لا تبلغ معشار ما فيها من خير؛ فهي علاقات جبرية تنقصها أحيانًا الرابطة الإيمانية التي تهزّ القلب وتغيّر توجهاته.

إنّ للأخـوّة الدينيّة دورًا رائدًا في بناء الشخصيّـة المؤمنة، حيث تساعدها على الاتّصــاف بمجموعة من الفضائل وتشعرها بمسؤوليّة ولو على نطاق خاصّ، انطلاقًا مــن معرفــة ما لها مــن مدلول وعمق في الإســلام، فيعرف الإنســان قدره من خلال معرفة قدر أخيه وما له من حقّ عليه.

ويكون الالـتزام بـآداب العلاقة بالآخرين باعثًا على إنتاج صورة متكاملة ومسلك مستقيم، أوّل المستفيدين منه صاحب هذا الدور مع ما يتركه من ذكر حسن وسمعة طيّبة، إن هو بقي على ما بدأ به في بداية الطريق. لذلك من وُصِفَ بأنّه أخٌ حقًّا وصِدقًا، بحيث إنّه أقام حدود الأخوّة وراعى حقوقها والتزم آدابها، فهو على الصعيد الفرديّ في سعادة وتقدّم دائمين، كما أنّ النجاح في هذه المدرسة الأخويّة سيفتح له نجاحًا في مدارس ومجالات أخرى، ربما اتّسعت ميادينها إلى ساحة حياته جمعاء، وأمّا إذا لم يوفّق لاكتساب الإخوان وفشل في هذه المهمّة الّتي تعتبر مفصلًا في دورة حياته، فإنّ ذلك سيترك عوامل سلبيّة ونتائج غير مرضية سرعان ما تظهر في كثير من قضاياه وربما حوّلتها إلى مشاكل مستعصية، لا سيّما وأنّ هذا العجز ليس بالشيء الّذي يُمكن التغاضي عنه، وقد اعتبره أمير المؤمنين عليه السلام خطيرًا ووصف صاحبه بأعجز الناس، يقول عليه السلام: «**أعجزُ الناسِ من عجزَ عن اكتسابِ الإخوانِ، وأعجزُ منهُ من ضيّعَ من ظفرَ بهِ منهُم**»[1].

---

(1) نهج البلاغة، خطب الإمام علي عليه السلام (تحقيق صالح)، حكم أمير المؤمنين عليه السلام، رقم 12، ص 470.

حقوق الإخوة الإيمانية:

وضع الإسلام للأخوة الدينية حقوقاً ألزم المسلمين بمراعاتها، وتطبيقها، وقد تظافرت الروايات في بيانها ومن أجمعها ما ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حيث يقول:

«للمسلم على أخيه ثلاثونَ حقًّا، لا براءةَ لهُ إلّا الأداءُ أو العفوُ: يغفرُ زلّتَه، ويرحمُ عبرتَه، ويسترُ عورتَه، ويُقيلُ عثرتَه، ويقبلُ معذرتَه، ويردُّ غيبتَه، ويُديمُ نصيحتَه، ويحفظُ خلّتَه، ويرعى ذِمّتَه، ويعودُ مرضَتَه، ويشهدُ ميتتَه، ويجيبُ دعوتَه، ويقبلُ هديّتَه، ويكافئُ صِلتَه، ويشكرُ نعمتَه، ويُحسنُ نصرتَه، ويحفظُ خليلتَه، ويقضي حاجتَه، ويشفعُ مسألتَه، ويُسمِتُ عطستَه، ويُرشِدُ ضالَّتَه، ويردُّ سلامَه، ويطيبُ كلامَه، ويبرُّ أنعامَه، ويصدِّقُ أقسامَه، ويوالي وليَّه ويعادي عدوَّه، وينصرُه ظالمًا أو مظلومًا ـ فأمّا نصرتُه ظالمًا فيردُّه عن ظلمِه، وأمّا نصرتُه مظلومًا فيُعينُه على أخذِ حقِّه ـ ولا يسلمُه، ولا يخذلُه، ويحبُّ له من الخيرِ ما يحبُّ لنفسِه... ويكرهُ له من الشرِّ ما يكرهُ لنفسِه، ولا يبرأُ المسلمُ يومَ القيامةِ من هذهِ الحقوقِ إلّا إذا أدّاها أو نالَ من صاحبِه العفوَ» [1].

كيفية معرفة الإخوان:

يُمكننا أن نعرّف إخوان الثقة بخصلتين هامّتين، من خلالهما نرى من هو الأخ حقًّا:

الأولى: الإصلاح، وهو أن يلتزم الأخ سبيلًا بنّاءً في علاقته بأخيه من خلال مكاشفته بعيوبه، وعدم مداهنته وكثرة إطرائه مع ما يراه من أعماله غير المرضية، ومعاونته على التغيير ليكون على أحسن ما يرام، فيحبّ له أن تجتمع الأوصاف الحميدة فيه بأجمعها.

---

(1) وسائل الشيعة (آل البيت)، الحر العاملي، ج12، 122 - باب وجوب أداء حق المؤمن، ص 203.

الثانيـة: الإخلاص، بمعنى أن يكون صادقًـا معه مخلصًا له في باطنه وسريرته، فلا يُظهر له خلاف ما يُضمره، ولسانه ترجمان قلبه على الدوام. فإذا توفّرت هاتـان الخصلتان في رجل كـان لا محيصَ عن معاشرته، هـذا ما أوصانا به مولانـا الإمام الكاظم عَلَيْهِ السَّلَامُ وهـو يعرّفنا إخوان الثقة من خـلال الركيزتين المتقدّمتيـن قائـلًا: «**اجتهـدوا فـي أنْ يكـونَ زمانُكـم أربـعَ ساعـاتٍ: ساعـةً لمناجاةِ اللهِ، وساعةً لأمرِ المعاشِ، وساعةً لمعاشرةِ الإخوانِ والثقاتِ الّذين يعرّفونَكُـم عيوبَكُم ويُخلصونَ لكُم في الباطنِ، وساعةً تخلونُ فيها للذّاتِكم في غيرِ محرّمٍ**».

لقـد جمع الإمام الحسن عَلَيْهِ السَّلَامُ أوصاف إخوان الصدق وخلّان الوفاء في وصيّته لجنادة قبيل شهادته، حيث قال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**اصحبْ من إذا صحِبْتَه زانَك، وإذا خدمْتَه صانَـك، وإذا أردتَ منـهُ معونةً أعانَك، وإنْ قُلْتَ صدّقَ قولَك، وإن صُلْتَ شدَّ حولَك، وإنْ مـدَدْتَ يـدَكَ بفضـلٍ مدَّهـا، وإن بـدَت عنكَ ثلْمَـةٌ سدَّهـا، وإن رأى منك حسنةً عدَّهـا، وإن سألْتَـه أعطـاكَ، وإن سكـتَّ عنْـهُ ابتـداكَ، وإنْ نزلْت إحـدى المُلمّاتِ به ساءَك**»[1].

الدروس المستفادة من الآية

1. إن رابطة الأخوة بين أفراد المجتمع الإيماني هي رابطة عميقة وقوية ومتينة بين أبنائه.
2. إنّ رابطة الأخوة بين أبناء المجتمع هي علاقة متبادلة من الطرفين.
3. إنّ رابطة الأخوة هي رابطة طبيعية وفطرية وتقوم على أسس معنوية لا مادية من عرق ولون وما شابه ذلك.

---

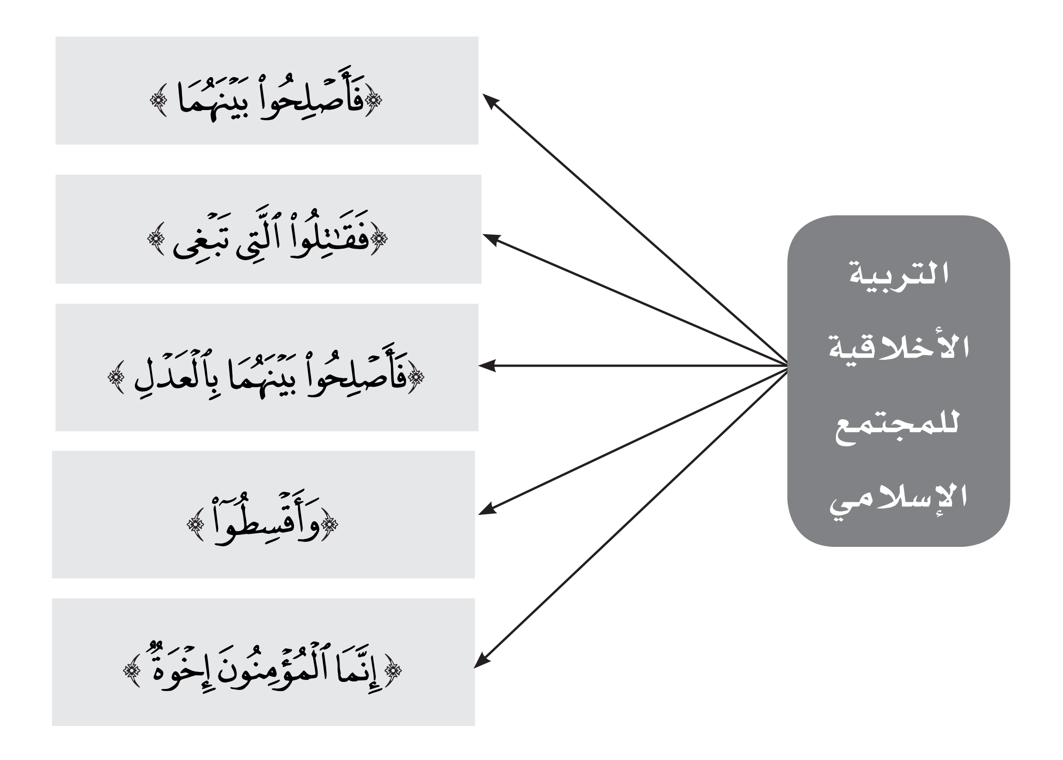
(1) بحار الأنوار، ج44، فيما قاله جنادة بن أبي أمية وكان عائدا لمولانا الإمام المجتبى عَلَيْهِ السَّلَامُ في مرضه الذي توفي فيه، وما قال عَلَيْهِ السَّلَامُ له في الموعظة، ص 138.

4. الأخـوة جسد واحد متماسك تمنـع أي خرق من الآخرين لهذا الجسد، وفي حال حصوله تتداعى أعضاء هذا الجسد لمواجهة هذا الخطر.
5. الإصلاح بين أبناء المجتمع مرتبط بحقيقة هذه الأخوة، فالخلافات والنزاعات هي تضعيف أو إعدام لهذه الأخوة الإيمانية، وعلى المصلحين إرجاع المتنازعين إلى أسس هذه الأخوة.
6. إنّ رابطـة الأخوة تنطلق من الإيمـان فلذا نوصّفها بالأخّوة الإيمانية أي المنبثقة مـن حقيقـة الإيمان فلا تحكمنا فـي العلاقة مع الآخرين الحـدود الجغرافية أو السياسيـة أو القوميـة ومـا شابه ذلك فعلاقـة الأخوة مبنية علـى أسس إيمانية تتعدّى كل هذه الحواجز المادية.
7. لا فـرق بين أفـراد المجتمع مـن ناحية الأخوة، فالكـل أخوة نعم الفـوارق التي طرحهـا الإسلام كالعلاقة بين الأب والابن، العالـم والمتعلِّم، والقائد والرعية، لها آدابها وأحكامها الخاصة تفرضه طبيعة هذه المواقع في المجتمع، ولكن هذا لا يعني تفاوت حقيقة الأخوة فالمجتمع بكل أفراده وطبقاته متساوي في الأخوة.

رسالة الآية (الإصلاح والأخوة):

إنّ واقعنا المعاصر مليء بالنزاعات والاختلافات سواء بين الشعوب أم بين أبناء الشعب الواحد بل البلد الواحد بل القرية والحي والجيران والأقرباء إلى أن نصل إلى خلافـات الأزقة، ولا بـدّ أن نعلم أنّ كلّ خلاف مهما صغر أو كبـر هو نهش وإضعاف لجسـد الأمـة. وإذا نظرنـا إلى جذور الصراعـات والخلافات الكبيـرة أو الصغيرة سنجـد أن جذورهـا الأساسيـة ترجـع إلى تحكيـم الأهـواء والمصالـح الشخصية والضيقـة، وهـذا إن دلّ علـى شيء فإنّما يـدلّ على ضعف الحالـة الإيمانية وانعدام الضوابـط الأخلاقية بين هؤلاء المتنازعين، وإنّ هذه الظواهر لا تُعالج إلا من خلال إرساء الأخلاق الإيمانية في المجتمع حتى يتمكّن أفراده من حلّ هذه النزاعات بتلك

الروحية الأخلاقية العالية. فعلينا أن نربّي المجتمع تربية أخلاقية تجعلهم يستبدلون روح العـدوان والاقتتـال إلى روح المحبّـة والوئام والسلام وكل ذلـك على ضوء هذه الآيات المباركة من سورة الحجرات.



للمطالعة:

كيف تؤدّي حقّ أخيك المؤمن؟

للمؤمن على المؤمن مجموعة من الحقوق منها بحسب الروايات:

1. **يغفرُ زلّتَه: الزلة:** استرسال الرجل من غير قصد، يقال زلّت رجل تزلّ. فمن حقّ أخيك عليك أن تغفر له زلّته وتتجاوز عن خطيئته. ومعنى الغفر هو محو الأثر ومن لوازم محو الأثر انّه يوجب ستر الخطأ الواقع من الأخ والصفح عنه والإصلاح.
2. **يستـرُ عورتَـه:** العـورة في القرآن هي الشيء الذي تجـب حمايته لأنّ عدم حمايته تستتبـع وقوع الضرر، فكل ما لا يحقّ لكلّ الناس هو عـورة لإنسان. والعورة بعامة تشمـل ما يسوء الإنسـان انكشافه أو نيله سواء كان من بدنـه أو من أسرار حياته الخاصـة أو علاقتـه بزوجه او من ماله ومـا يملك. فإنّه من واجـب الأخ إذا رأى بادرة سيّئة من أخيه أن يسترها.
3. **يُقيـلُ عثرتَـه:** إنّ من أخلاق المؤمـن أن يمتلك قلبًا كبيرًا وروحًا سامية، يستوعب بهمـا عثرات إخوانه، ولا يعطي الأمور أكثـر ممّا هي عليه، بل يتسامح ويقبل عذر الآخر، والأفضل أن يتغاضى دون الحاجة إلى الاعتذار «**شرُّ إخوانِكَ من أحوجَك إلى مداراةٍ وألجأَك إلى اعتذارٍ**»[1].
4. **يردُّ غيبتَه:** يظهر من الأخبار المستفيضة وجوب رد الغيبة: فعن المجالس بإسناده عـن أبي ذر (رض) عن النبي ﷺ: «**من اغتيب عنـده أخوه المؤمن وهو يستطيع نصـره فنصـره، نصـره الله تعالى في الدنيا والآخـرة، وإن خذله وهو يستطيع نصره، خذله الله في الدنيا والآخرة**»[2].

---

(1) عيون الحكم والمواعظ، علي بن محمد الليثي الواسطي، ص 294.
(2) بحار الأنوار، العلّامة المجلسي، ج74، ص90.

5. **يقبلُ معذرتَه:** من المهم أن يتحوّل الاعتذار إلى ثقافة مجتمعية، وأن يتحوّل قبول العذر إلى ثقافة أيضاً، فليس من الصواب ألاّ يعترف إليك أخوك بخطئه إذا كان، ولكن الأسوء أن لا تقبل معذرته حينما يأتيك نادمًا. يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «**واقبلْ عذرَ أخيكَ فإن لم يكن له عذرٌ فالتمس له عذرًا**»[1].

6. **يُديمُ نصيحتَه:** المراد بنصيحة المؤمن للمؤمن إرشاده إلى مصالح دينه ودنياه وتعليمه إذا كان جاهلاً وتنبيهه إذا كان غافلاً وعدم غشّه ودفع الضرر عنه وجلب النفع إليه، ولو لم يقبل نصيحته سلك طريق الرفق حتى يقبلها، ولو كانت متعلّقة بأمر الدين سلك به طريق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الوجه المشروع.

7. **يحفظُ خلّتَه: (حفظ الأخوَّة):** والخليل بمعنى الصديق: «الأصل فيه كون الشخص ذا انفراج، وهذا كناية عن كونه صاحب أسرار ورموز يلقى إليه ما يستر عن غيره. ومن لوازم هذا المعنى: المصادقة والمؤاخاة والاختصاص والمودّة، وهذا هو الفرق بينه وبين الصديق والرفيق والحبيب والمؤاخي وغيرها»[2].

8. **يعودُ مرضَتَه:** ورد عن الإمام موسى بن جعفر عن آبائه عليهم السلام عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «**يُعَيِّرُ اللهُ عزّ وجلّ عَبداً مِن عِبادِهِ يَومَ القِيامَةِ فَيقَولُ: عَبدي ما مَنَعَكَ إذ مَرِضتُ أن تَعودَني؟ فَيقَولُ: سُبحانَكَ! أنتَ رَبُّ العِبادِ لا تَألَمُ ولا تَمرَضُ. فَيَقولُ: مَرِضَ أخوكَ المُؤمِنُ فَلَم تَعُدهُ، وَعِزَّتي وجَلالي لَو عُدتَهُ لَوَجَدتَني عِندَهُ، ثُمَّ لَتَكَلَّفتُ بِحَوائِجِكَ فَقَضَيتُها لَكَ، وذلِكَ مِن كَرامَةِ عَبدِيَ المُؤمِنِ، وأنَا الرَّحمنُ الرَّحيمُ**»[3].

---

(1) كنز الفوائد، أبي الفتح الكراجكي، ص 34.

(2) التحقيق في كلمات القرآن الكريم، حسن المصطفوي، ج3، خلّ، ص 120.

(3) وسائل الشيعة (آل البيت)، الحر العاملي، ج2، باب استحباب عيادة المريض المسلم وكراهة ترك عيادته، ح10، ص 417.

9. **ويشهدُ ميتتَه**: إنّ من حقّ الأخ على إخوانه أن يحضروا جنازته ويشيّعوه إذا مات. عن الإمام علي عليه السلام قال: «**قال رسول الله** صلى الله عليه وآله وسلم: **إذا دعيتم إلى العرسات فأبطأوا، فإنّه يُذكّر الدنيا، وإذا دعيتم إلى الجنائز فأسرعوا فإنّها تذكرة الآخرة**»[1].

10. **يجيبُ دعوتَه**: يستحبّ للمؤمن أن يجيب دعوة أخيه المؤمن إذا دعاه إلى منزله، وأن يأكل عنده، وإنّ استحباب إجابة دعوة المؤمن مشهور بين الفريقين والظاهر عدم الخلاف بيننا في ذلك. نعم قد ورد في بعض الأخبار، التعبير بوجوب الإجابة كقوله عليه السلام: من الحقوق الواجبة: للمسلم أن يجيب دعوته. وفي آخر: من حقّ المسلم الواجب على أخيه إجابة دعوته[2].

11. **يقبلُ هديّتَه**: للهدية عظيم الأثر في استجلاب المحبة وإثبات المودّة وإذهاب الضغائن وتأليف القلوب. وقد حثّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأهل البيت عليهم السلام على التهادي وعلى قبول الهدايا ولذا إذا قدَّم لك أخوك هديّة فمن حقّه عليك أن تقبلها منه. ويستحبّ قبول الهديّة لقوله صلى الله عليه وآله وسلم: « **لَوْ أُهْدِيَ إِلَيَّ كُرَاعٌ**[3] **لَقَبِلْتُه**»[4]، كما يستحبّ فعلها لقوله صلى الله عليه وآله وسلم «**تهادوا تحابّوا تهادوا فإنّها تُذهب بالضغائن** »[5] أي الهدية تذهب العداوة والحقد.

---

(1) مستدرك الوسائل، ميرزا حسين النوري الطبرسي، ج2، ص 119.

(2) مستدرك الوسائل، ميرزا حسين النوري الطبرسي، ج16، ص 236. وسائل الشيعة (آل البيت)، الحر العاملي، ج24، 16 - باب تأكد استحباب إجابة دعوة المؤمن والمسلم، ح 9، ص 271. بحار الأنوار، ج72، الباب التاسع والثمانون، الحث على إجابة دعوة المؤمن، والحث على الاكل من طعام أخيه، ح1، ص 447. عيون أخبار الرضا عليه السلام، الصدوق، في فضل السخاء والصمت، ح26، ص 15.

(3) الكراع هو ما دون الركبة من ساق البقر والغنم. وقيل: كراع الغميم وهو اسم موضع بين مكة والمدينة على ثلاثة أميال من غسفان والأول مبالغة في القلة والثاني في البعد. ينظر: الوافي، الفيض الكاشاني، ج 17، ص 371.

(4) الكافي، الكليني، ج5، باب الهدية، ح 9، ص 143.

(5) الكافي، الكليني، ج5، باب الهدية، ح 14، ص 144.

8

حرمة المؤمن

السخرية

مفاهيم محورية:

- **تفسير الآية:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾.
- **مفهوم السخرية ومنشؤها.**
- **قواعد ثلاث في صيانة المجتمع الإسلامي.**
- **خطر السخرية على الأمة.**
- **الدروس المستفادة من الآية.**

النص القرآني

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

تمهيد

الآية الكريمة وما بعدها تُكرّس ثقافة احترام وتقديس المؤمن وأنّ لهذا المؤمن بلحاظ إيمانه - لا لشيء آخر - حرمة يُمنع انتهاكها تحت أي عنوان وذريعة، لكلّ إنسان في المجتمع المسلم احترامه، فليس للمؤمن أن يُسيء إلى حرمة مؤمن آخر، فيقول كلمات تُسيء إلى كرامته أو تؤذي مشاعره، سواء كان ذلك من خلال مضمونها، أم من خلال طريقة قولها، أو استخدام الإشارة بأسلوب يوحي بالإذلال والانتقاص. فالآية تحدّثت عن ثلاثة عوامل تؤدّي إلى هتك حرمة المؤمن والإساءة إلى شخصيته ما يؤدّي إلى انتهاك سور حرمة المؤمن كما تقدّم وهذه العوامل هي: السخرية، اللمز، التنابز بالألقاب.

شرح مفردات الآية

- يَسْخَرْ: هو الحكم والتقدير مع القهر تكويناً أو تشريعاً، يقال سخّر الله الشمس والقمر والسماء والأرض، إذ جعلها تحت حكمه وقهرها بتقديره

تكوينــاً. ومن لوازم هذا المعنــى الإطاعة، والاستذلال تحــت الأمر، والإرادة والتكليف بما يريده، والاستعمال مجّاناً وبلا أجرة[1].

- **قَومُ**: القاف والواو والميم أصلان صحيحان، يدل أحدهما على جماعة ناس، وربمــا استعير فــي غيرهم. والآخــر على انتصــاب أو عزم. فــالأول: القوم، يقولــون: جمع امرئ، ولا يكون ذلك إلا للرجال. قال الله تعالى: لا يسخر قوم مــن قوم (الحجرات 11)، ثم قال: ولا نساء مــن نساء. ويقولون قوم وأقوام، وأقــاوم جمع جمع. وأمّــا الآخر - قام قياماً، إذا انتصــب. ويكون قام بمعنى العزيمــة [2]. الأصــل الواحد في المــادّة: هو ما يقابل القعــود، أي الانتصاب وفعليّــة العمل، مادّيّاً أو معنويّاً. وتفسير القــوم بالرجال تغليب لا تخصيص. ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌۖ وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ﴾[3]. ﴿قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾[4]. ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ﴾[5]. فالإنــذار والقــرآن والسجــدة غير مختصّة بالرجال، بل تعمّ الرجال والنساء[6].

- **تَلۡمِـزُوا**: الغمــز هو إشــارة إلى شيء بجفن أو حاجب أو عيــن في مقام التعييب والتضعيــف. واللمــز كالغمــز فــي المواجهة، كمــا أنّ الهمز هو تعييــب في غير المواجهــة بل بالغيــب. والباعث في الهمــز واللمز: هو التعلُّق بالأمــور الدنيويّة والمحبّة الشديدة بالمال واللذّات المادّيّة والاضطراب والوحشة عن المحروميّة فيها كلّاً أو جزءاً: فعرّف الَّذين همزوا ولمزوا بقوله - الَّذي جمع مالاً وعدّده[7].

---

(1) التحقيق في كلمات القرآن الكريم، حسن المصطفوي، ج5، ص 76.
(2) معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، ج5، قوم، ص 43.
(3) سورة الرعد، الآية 7.
(4) سورة فصلت، الآية 3.
(5) سورة النمل، الآية 24.
(6) التحقيق في كلمات القرآن الكريم، حسن المصطفوي، ج9، قوم، ص 345.
(7) التحقيق في كلمات القرآن الكريم، حسن المصطفوي، ج10، لمز، ص 234.

- **تَنَابَـزُوا**: النبــز هــو الدعوة السيّئة، واللقــب أعم ليس هو نفســ النبز بل هو اســم يــدلّ على مدح أو ذمّ. فالسخر: حكم مع قهر وتذليل. واللمز: هو تعييب وتضعيــف شديــد. والنبز: هــو الدعــوة السيّئــة. والفُسوق: هــو الخروج عن مقرّرات دينيّة أو عقليّة أو عرفيّة.
- **بالْأَلْقَابِ**: اللقب اسم يدلّ على مدح أو ذمّ.
- **يَتُـبْ**: تــوب: كلمة واحدة تدلّ على الرجوع. يقــال تاب من ذنبه أي رجع عنه، يتــوب إلى الله توبة ومتاباً، فهو تائــب، والتوب التوبة، قال الله تعالى ﴿وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾[1].
- **الظَّالِمُونَ**: ظلم: أصلان صحيحان، أحدهما – خلاف الضياء والنور، والآخر – وضع الشيء غير موضعه تعدّياً. هو إضاعة الحقّ وعدم تأدية ما هو الحقّ، سواء كان في مورد نفسه أو غيره أو في حقوق الله المتعال، وبالنسبة إلى ذوي العقــلاء أو غيرهم، وفي حقوق مادّيّة ومعنويّــة أو روحانيّة. فالظلم في مورد النفســ أعظم أنواع الظلم، فــإنّ مرجع جميعها إلى هذا النوع، وهو التقصير في تأدية حقوق النفس وإضاعتها، والمنع عن سيره إلى جهة الكمال، بالتعلُّق بالأمور المادّيّة الدنيويّة [2].

المعنى الإجمالي

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ﴾ نهــى الله بهــذه الآيــة عــن عَيْب من لا يستحــقّ أن يُعــاب على وجه الاحتقار له؛ لأنّ ذلك هو معنــى السخرية، وأخبر أنّه وإن كــان أرفــع حالاً منه في الدنيا فعسى أن يكون المسخــور منه خيّراً عند الله. لا يسخر بعض الرجال من بعض ولا بعض النساء من بعض، فربما كان المسخور منه أتقى عند

(1) معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، ج1، ص 357.
(2) التحقيق في كلمات القرآن الكريم، حسن المصطفوي، ج7، ظلم، ص 170- 171.

اللّه وأبـرّ من الساخر، هذا إلى أنّ من سخر من الأبرياء فهو ظالم وسفيه، وقد هدده اللّه بأشدّ العقوبات، من ذلك: ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[1].

﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ﴾ لا يطعـن بعضكـم بعضـاً، ويذكره بمكـروه. ولأنّ المؤمنين كنفـس واحـدة قـال تعالـى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾[2] فكأنّه بقتله أخاه قاتل نفسه، وكقوله: ﴿فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ ﴾[3] يعني يسلّم بعضكم على بعض.

وفـي الآيـة الشريفة تـدرّج التعييـب وتنقيص عبـاد اللّه، ولا سيّما فـي الحضور والمواجهة من أعظـم الأعمال السيّئة وأشدّ الأخلاق الرذيلة الَّتي تنبعث عن صفات حيوانيّـة مختلفـة، كالكبر والبخل والحسد والطمع والغفلة عـن اللّه عزّ وجلّ والتعلُّق بالدنيـا، وقد قال تعالى في هـذا المعنـى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ﴾، ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ ﴾ السخر أعمّ مورداً ثمّ بعده اللمز، وبعده التنابز بالألقـاب، فإنه تصريح باللسان فـي التعييب حضوراً أو كالحضور، فانّ اللقب تثبيت العيب وإدامته، وليس كاللمز المحدود بمحيط اللمز زماناً ومكانا [4].

﴿وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ ﴾: التنابـز: التعايـر، أي لا يخاطـب أحدكـم أخـاه بلقـب يكرهــه، ولا بأس بلقب أعرج وأحـدب وما أشبه لمـن اشتهر بذلك مـع عدم قصد النقص والاستخفاف فلا تقل لأخيك المسلم يا فاسق يا منافق وما شابه ذلك.

﴿بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ﴾: مـن عاب آخر بما يكره يصير فاسقاً بعد أن كان مؤمنا. أو بئـس الذكر المرتفع للمؤمنين أن يذكروا بالفسق بعد دخولهم الإيمان واشتهارهم به.

---

(1) سورة التوبة، الآية 79.

(2) سورة النساء، الآية 29.

(3) سورة النور، الآية 61.

(4) التحقيق في كلمات القرآن الكريم، حسن المصطفوي، ج10، لمز، ص 234.

﴿وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ﴾ يعني من معاصيه ويرجع إلى طاعة الله ومات مصرّاً ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ الذين ظلموا نفوسهم بأن فعلوا ما يستحقّون به العقاب وظلموا الآخرين بما فعلوا بهم من سخرية ولمز ونبز، فالظالم من حيث هو إنّما يكون في قبال المتّقي، وهو من لا يبالي تضييع حقّ ولا يهتمّ برعاية حقوق الله وحقوق الناس وحقوق نفسه.

المعنى التفصيلي

لا تزال السورة تتحدّث عن إرساء قواعد المجتمع المثالي الذي ينشده الإسلام.

فيتحدّث القرآن الكريم عن بناء المجتمع الإسلامي على أساس المعايير الأخلاقية، فإنّه بعد البحث عن وظائف المسلمين في مورد النزاع والمخاصمة بين طوائف المسلمين المختلفة بيّن في الآيتين محل البحث قسماً من جذور هذه الاختلافات ليزول الاختلاف (بقطعها) ويحسم النزاع! ففي كلٍّ من الآيتين الآنفتين تعبير صريح وبليغ عن ثلاثة أمور يمكن أن يكون كلّ منها شرارة لاشتعال الحرب والاختلاف بين المؤمنين وهي: السخرية، اللمز، التنابز بالألقاب.

والآية (12) تحدّثت عن ثلاثة عوامل أخرى تؤدّي نفس مؤدّى الآية (11) ولكن بالإضافة إلى البعد الشخصي لها هناك بعدٌ اجتماعي كما سنبيّن وهذه العوامل هي: سوء الظنّ، التجسُّس، الغيبة.

ومن هنا، حرّم الإسلام السخرية التي يمارسها بعض الناس ضدّ بعضهم الآخر لشعورهم بالتفوّق عليهم في بعض الصفات، أو في بعض الأفعال، أو في بعض المناصب، ممّا يتفاضل به الناس في درجاتهم وأوضاعهم، الأمر الذي يجعل صاحب الصفة الجيّدة وبإيحاء شيطاني أن يتعالى على الآخرين ويحتقرهم باعتبارهم أقلّ منه درجة، وهذا ما يدفعه إلى السخرية والهزء به، وهذا ما تعالجه الآية (11) من السورة المباركة.

1. تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾:

الخطاب عام لكل المؤمنين فهو يعم الرجال والنساء وينذر الجميع أن يجتنبوا هذا الأمر القبيح.

الخطاب يؤكد أن من مقتضيات حقيقة الإيمان أن يتحوّل إلى سلوك أخلاقي في التعامل مع الآخرين مبني على احترامهم وتقديرهم فالمؤمن لا يقوم بأي سلوكيات تنافي حقيقة إيمانه.

- آداب علاقة المؤمن بالمؤمن. (حرمة المؤمن).

2. تفسير قوله تعالى: ﴿لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّ﴾:

أ. **مفهوم السخرية:** هي أن لا ينظر الإنسان إلى أخيه بعين الإجلال ولا يلتفت إليه، ويسقطه عن درجته، وحينئذٍ لا يذكر ما فيه من المعايب، وهذا كما قال بعض الناس تراهم إذا ذكر عندهم عدوهم يقولون هو دون أن يذكر، وأقل من أن يلتفت إليه، فقال لا تحقروا إخوانكم ولا تستصغروهم[1].

خاصة وأنّ بداية فساد العلاقة بين الإنسان ونظيره تضاؤل قيمة الإنسان كإنسان في عينه، وعندئذٍ لا يحترم الناس بعضهم، ويبحث كلٌّ عن منقصة في صاحبه يسخر بها منه، ويدّعي لنفسه مكرمة يفتخر بها.

ب. **منشأ السخرية:** إنّ أساس السخرية والاستهزاء هو الإحساس بالاستعلاء والغرور والكبر وأمثال ذلك. وهذا الاستعلاء أو التكبّر غالباً ما يكون أساسه القيم المادية والظواهر المادية. وإن الاستهزاء والسخرية بالآخرين هي من تسويلات الشيطان للإنسان ليقطع روابط الأخوة مع المؤمنين، فيدفع الإنسان ويحثّه على

(1) مفاتيح الغيب، فخر الدين الرازي، ج28، ص 108.

الاستهانـة بالآخريـن، وتصغير قدرهـم، والتصوير بأنّهم أقلّ منـه فيحقّ له إذا تجـاوز حقوقهـم بل والاعتداء عليهـم. ومن هنا يبدأ القـرآن بعلاج هذا المرض الاجتماعي بالنهي عن السخرية لتكريس قيمة المؤمن في المجتمع، لأنّه هو اللبنة الأساسية لبناء المجتمع ومن دونه لا يتحقّق المجتمع الإيماني على الإطلاق.

ج. **السخرية من الجهل**: والسخرية من شيم الجاهلين فلا يستهزأ المؤمن العارف ولـو بغيـر المؤمنين الذين هو خير منهم، فكيف بمـن ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّ﴾؟ ولهـذا إنّ السخرية من أي إنسان والهزء به جهل عارم: ﴿قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوٗاۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾[1]، وإنّـه ليسـت السخريـة على أية حال إلا جهالة حتى مع الكافر، لأنها تزيد في نفوره وكفره[2].

وفـي الروايات ما يـدلّ على أنّ السخرية دليل على الجهل وعدم العقل. في حديث مأثـور عن رسول الله ﷺ نقـرأ أنّ من علامات عقل المرء تركه التعالي على الناس، عـن أبي جعفر عليه السلام قال: «**قـال رسول الله ﷺ لم يعبد الله عزّ وجلّ بشيء أفضل مـن العقـل، ولا يكـون المؤمـن عاقلاً حتـى تجتمع فيـه عشر خصـال: الخير منه مأمـول، والشـر منه مأمـون، يستكثر قليـل الخير من غيره، ويستقـلّ كثير الخير مـن نفسـه، ولا يسأم من طلب العلم طول عمـره، ولا يتبرّم بطلّاب الحوائج قبله، الـذلّ أحـبّ إليه من العـزّ، والفقر أحبّ إليـه من الغنى. نصيبه مـن الدنيا القوت، والعاشرة لا يرى أحداً إلا قال: هو خير منّي وأتقى. إنّما الناس رجلان: فرجل هو خيـر منـه وأتقى، وآخر هو شرّ منـه وأدنى، فإذا رأى من هو خير منه وأتقى تواضع لـه ليلحـق به، وإذا لقي الـذي هو شرّ منه وأدنى قال: عسى خيـر هذا باطن، وشرّه ظاهـر، وعسى أن يُختم له بخير، فإذا فعل ذلك فقد علا مجده وساد أهل زمانه**»[3].

---

(1) سورة البقرة، الآية 67.

(2) الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، محمد الصادقي الطهراني، ج27، ص 244.

(3) بحار الأنوار، محمد باقر المجلسي، ج1، ص 108.

3. تفسير قوله تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ﴾:

تنكيـر قَوۡمٌ في الموضعين لإفادة الشياع، لئلّا يتوهّم نهي قوم معيّنين سخروا من قوم معيّنين. وإنّما أسند يَسۡخَرۡ إلى (قَوۡمٌ) دون أن يقول: لا يسخر بعضكم من بعض كمـا قال: ﴿وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ﴾. للنهي عما كـان شائعاً بين العرب من سخرية القبائل بعضها من بعض فوجّه النهي إلى الأقوام. ولهذا أيضاً لم يقل: لا يسخر رجل مـن رجـل ولا امرأة من امرأة. ويفهم منه النهي عـن أن يسخر أحد من أحد بطريق لحن الخطاب. وهذا النهي صريح في التحريم.

وخصّ النساء بالذكـر مع أنّ القوم يشملهم بطريـق التغليب العرفي في الكلام، كما يشمل لفظ المؤمنين والمؤمنات في اصطلاح القرآن بقرينة مقام التشريع، فإنّ أصلـه التساوي في الأحكام إلا ما اقتضـى الدليل تخصيص أحد الصنفين به، دفعاً لتوهّم تخصيص النهي بسخرية الرجال إذ كان الاستسخار متأصّلاً في النساء[1].

والتعبير بالجمع أي الرجال (بناءً على أن المراد من القوم الرجال) والنساء، إشارة إلـى أنّ هذه السخرية إنّما تكون على غايتها مـن الشناعة والسوء، حين تكون فى صورة جماعية، إذ أنّها تشدّ أعداداً كثيرة من الناس إلى هذا الشر، وتوقعهم فى هذا البلاء.

«لعـل التعبيـر القرآني هنـا يعكس طبيعـة الاستهزاء عنـد الرجال، حيـث إنّهم يفتخـرون عـادة بتجمُّعهم ويسخرون من سائر الناس، فتـرى أهل هذا الحي يقولون مـن مثلنـا؟ أو أهل هذا النادي أو ذلك الحزب أو هـذا المصر أو ذلك الإقليم، أنّهم يفتخـرون بما لديهم ويفرحـون بما أوتوا من نصيب الدنيـا فيسخرون ممّن لا يملك ذلك حتى ولو ملك ما هو أفضل منه. أما النساء فتجري مفاخرتهنّ في أمور شخصية كالجمال والزينة أو النسب أو السبب، وأساس الاستهزاء بالآخرين عجب كل قوم بما يملكون من ميّزات، وفرحهم بها، ثم تعاليهم على من سواهم بذلك»[2].

(1) التحرير والتنوير، ابن عاشور التونسي، ج26، ص 207.
(2) من هدى القرآن، محمد تقي المدرسي، ج 13، ص 411.

4. تفسير قوله تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ﴾:

إنّ الغرور والعجب ربما يسوق الإنسان أن يتصوّر أنّه أفضل من الجماعة الفلانية علماً وعبادة ومعنوية إلى السخرية منهم، في حين أنّ المعيار الواقعي عند الله هو «**التقوى**» التي تنسجم مع طهارة القلب وخلوص النيّة والتواضع والأخلاق والأدب!. كما سيأتي في الآية (13) ولا يصحّ لأيّ أحد أن يقول: أنا أفضل عند الله من سواي، ولذلك عُدّ تحقير الآخرين والتعالي بالنفس من أسوأ الأمور وأقبح العيوب الأخلاقية التي يمكن أن تكون لها انعكاسات سلبية في حياة الناس جميعاً.

5. تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾:

اللمز هو ذكر ما في الرجل من العيب في غيبته وهذا دون السخرية، لأنّ في السخرية لم يلتفت إليه ولم يرض بأن يذكره أحد وإنّما جعله مثل المسخرة الذي لا يغضب له ولا عليه[1]. وهو ذكر ما يعده الذاكر عيباً لأحد مواجهة فهو المباشرة بالمكروه. فإن كان بحق فهو وقاحة واعتداء، وإن كان باطلاً فهو وقاحة وكذب، وكان شائعاً بين العرب في جاهليتهم قال تعالى: ﴿وَيۡلٞ لِّكُلِّ هُمَزَةٖ لُّمَزَةٍ﴾[2] يعني نفراً من المشركين كان دأبهم لمز رسول الله ﷺ، ويكون بحالة بين الإشارة والكلام بتحريك الشفتين بكلام خفيّ يعرف منه المواجه به أنّه يذمّ أو يتوعد، أو يتنقّص باحتمالات كثيرة، وهو غير النبز وغير الغيبة[3].

وتعبير أنفسكم باعتبار أنّ من يلمز ويعيب أخاه المؤمن، هو لامز نفسه، لأنه منه أو هو هو، لا يفصل بينهم إلّا فاصل الجسم، والروح واحدة، فكيف يعيب مؤمن نفسه، اللهم إلا أن تحاول علاج أخيك كما تعالج نفسك، بكلّ حنان وأمان، ودون إيذاء وتشهير، وإنما كمرآة تريك مساويك دون أن تجاهر بها لسواك فإنّ «**المؤمن مرآة المؤمن**».

---

(1) مفاتيح الغيب، فخر الدين الرازي، ج28، ص 108.
(2) سورة الهمزة، الآية 1.
(3) التحرير والتنوير، ابن عاشور التونسي، ج26، ص 207.

وكمــا توحي «**أنفسكم**» بأنّ لمز البعض لمز للكل، فإنّه مسّ من كرامة الإيمان، فهل من عاقـل بعد يلمز أخاه بعـدُ أنّه نفسه حيث الوحدة الإيمانيــة، فلذلك تتركّز الاستجاشة هنا وهناك بروح الإيمان ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ..﴾ وشعور الاندماج في نفس واحدة[1].

6. تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَـٰبِ﴾:

- النبز وهو دون الثاني، لأنّ في هذه المرتبة يضيف إليه وصفاً ثابتاً فيه يوجب بغضه وحط منزلته، وأمّا النبز فهو مجرّد التسمية وإن لم يكن فيه، وذلك لأنّ اللقـب الحسن والاسم المستحسن إذا وضـع لواحد وعلّق عليه لا يكون معناه موجـوداً، فإنّ من يُسمّى سعداً وسعيداً قد لا يكون كذلك، وكذا من لُقّب إمام الديــن وحسام، الدين لا يُفهم منه أنــه كذلك وإنّما هو علامة وزينة، وكذلك النبــز بالمروان ومــروان الحمار لم يكن كذلك وإنّما كــان ذلك سمة ونسبة، ولا يكـون اللفظ مــراداً إذا لم يرد به الوصف، كمــا أنّ الأعلام كذلك، فإنّك إذا قلـت لمــن سُمّي بعبــد الله أنت عبد الله فلا تعبد غيــره، وتريد به وصفه لا تكـون قد أتيـت باسم علمه إشارة، فقــال لا تتكبّروا فتستحقــروا إخوانكم وتستصغروهــم بحيــث لا تلتفتوا إليهم أصــلاً، وإذا نزلتم عن هذا من النعم إليهم فــلا تعيبوهم طالبين حطّ درجتهم والغضّ عــن منزلتهم، وإذا تركتم النظــر في معايبهم ووصفهم بما يعيبهم فلا تُسمّوهم بما يكرهونه ولا تقولوا هذا ليس بعيب يذكر فيه إنّما هو اسم يتلفّظ به من غير قصد إلى بيان صفة.
- لــم يقل لا تنبزوا، وذلك لأنّ اللمّاز إذا لمز فالملموز قد لا يجد فيه في الحال عيبا يلمزه به، وإنّما يبحث ويتبعه ليطلع منه على عيب فيوجد اللمز من جانب، وأمــا النبز فلا يعجز كل واحد عن الإتيان به، فإن من نبز غيره بالحمار وهو ينبزه بالثور وغيره، فالظاهر أنّ النبز يفضي في الحال إلى التنابز ولا كذلك اللمــز. ولذا كانت الصياغة هي التنابز باب المفاعلة من النبز بأن يجعل كلّ

(1) الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، محمد الصادقي الطهراني، ج27، ص 245.

واحد منهما للآخر لقباً سيّئاً، وإنّما جاء بلفظ التنابز للدلالة على أنّ النبز لا بد وأن ينتهي الى المنابزة.

- ورد في الروايات الشريفة أنّه يُستحبّ أن ينادي الأخ أخاه بأحبّ الأسماء إليه.

7. تفسير قوله تعالى: ﴿بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ﴾:

قيل فيه إنّ المراد بئس أن يقول للمسلم يا يهودي بعد الإيمان أي بعد ما آمن، فبئس تسميته بالكافر، ويحتمل وجهاً أحسن من هذا: وهو أن يقال هذا تمامّ للزجر، كأنّه تعالى قال: يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم ولا تلمزوا ولا تنابزوا فإنه إن فعل يفسق بعد ما آمن، والمؤمن يقبح منه أن يأتي بعد إيمانه بفسوق فيكون قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾[1] ويصير التقدير بئس الفسوق بعد الإيمان، وبئس أن تسموا بالفاسق بسبب هذه الأفعال بعد ما سميتموهم مؤمنين.

8. تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[2]:

إنّ الآية الكريمة علّقت الوصف على عدم التوبة أي من لم يرجع إلى الله تعالى ويتوب من هذه الذنوب فهو من الظالمين الذين ظلموا أنفسهم بالمعصية وظلموا غيرهم بالسخرية والإساءة، ممّا يجعلهم في موقع العقوبة التى توعّد بها القرآن للظالمين.

والمعنى المحصّل من الآية: إذ كان كل من السخرية واللمز والتنابز معاصي فقد وجبت التوبة منها فمن لم يتب فهو ظالم: لأنّه ظَلَمَ الناس بالاعتداء عليهم، وظَلَمَ نفسه بأن رضي لها عقاب الآخرة مع التمكّن من الإقلاع عن ذلك فكان ظلمه شديداً جداً. فلذلك جيء له بصيغة قصر الظالمين عليهم كأنه لا ظالم غيرهم لعدم الاعتداد بالظالمين الآخرين في مقابلة هؤلاء على سبيل المبالغة ليزدجروا. والتوبة واجبة من كل ذنب وهذه الذنوب المذكورة مراتب وإدمان الصغائر كبيرة.

(1) سورة الأنعام، الآية 82.

(2) سورة الأنعام، الآية 82.

وتوسيط اسم الإشارة لزيادة تمييزهم تفظيعاً لحالهم وللتنبيه، بل إنّهم استحقّوا قصر الظلم عليهم لأجل ما ذكر من الأوصاف قبل اسم الإشارة[1].

الخلاصــة أن هذه الآية تحدّثت عن أربع مراتب في ما يرتبط بالتحقير والإيذاء من المؤمنين المعتقدين بالله عزّ وجلّ بالنسبة إلى قوم آخرين مؤمناً أو غير مؤمن.

فالأوّل: هو الأشدّ قبحاً وذمّاً، وهو السخر.

والثاني : بعده وليس فيه قهر وتذليل.

والثالث: مخصوص بالدعوة فقط وليس فيه تعقيب شديد.

والرابع: ما فيه خروج عن المقرّرات المضبوطة.

فالآية الكريمة فيها جميع ما يتعلَّق بآداب المعاشرة بين المؤمنين. ولا يخفى أنّ منشأ هذه الأمور: هو العجب والأنانيّة والمحروميّة عن مقام العبوديّة الحقيقيّة الباطنيّة[2].

بحث حول الآية

قواعد ثلاث في صيانة المجتمع الإسلامي:

القاعدة الأولى: عدم السخرية بين طوائف المجتمع الإسلامي:

فقــد لعبــت السخريــة والاستهــزاء بالآخريــن دوراً كبيــراً في تسقيــط الآخرين والتشهير بهم. قال الطبرسي في تفسير الآية: «**لمّا أمر سبحانه بإصلاح ذات البين ونهى عن التفرّق عقّب ذلك بالنهي عن أسباب الفرقة من السخرية والازدراء بأهل الفقر والمسكنة**»[3].

القاعدة الثانية: عدم الطعن بالآخرين:

عدم طعن بعضكم على بعض. ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾.«**المؤمن مرآة المؤمن**».

---

(1) ينظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور التونسي، ج26، ص 208.

(2) التحقيق في كلمات القرآن الكريم، حسن المصطفوي، ج12، نبز، ص 26.

(3) تفسير مجمع البيان، الطبرسي، ج9، ص 226.

القاعدة الثالثة: التعيير بالألقاب السيئة يدل على انحطاط المجتمع.

فمـا يرسيه القـرآن لتكوين المجتمع الإسلامي الفاضـل وصيانته عن الانحطاط والتخلّـف، هو مخاطبة الناس بعضهم مع بعض بالتقدير والاحترام والمحبة والمودّة؛ فينبغي أن يشيع فيما بينهم استعمال الألقاب الحسنة التي تدلّ على العقلانية والرفعة والتقـدّم وتكشف عن تمسّـك المجتمع بأصالته الإسلامية، وأمـا تخاطبهم بالألقاب السيئـة كما يُعبّر القـرآن الكريم بالتنابـز؛ فبالإضافة إلى أنّها مـن الأمور المحرّمة تكشف عن تخلّف ذلك المجتمع وانحطاطه، فيقول عزّ وجلّ: ﴿وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِ﴾.

تهديد المجتمع بالضعف والفوضى:

«إنّ من أفتك الآفات التي تغتال مشاعر الإخاء والمودّة بين المجتمعات، استخفاف جماعـة بجماعـة، والنظر إليها نظـراً ساخراً، فـإنّ ذلك من شأنـه أن يُغري هؤلاء المستخفّين المستهزئيـن بمن استخفّوا بهم، ونظروا إليهـم باستصغار واستهزاء، ثـم هو من جهـة أخرى يحمل الجماعة المستخفّ بهـا، المستصغر لشأنها -على أن تدافـع عن نفسهـا، وأن تردّ هذه السخرية، وهذا الاستهـزاء بالسخرية والاستهزاء، ممن سخروا منهم، وهزءوا بهم.. وهذا أول قدح لشرارة الحرب.. فإنّ الحرب أولها الكلام، كما يقولون.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإنّ هؤلاء المستهزئين الساخرين قد يكونون أقل عند الله شأناً، من هؤلاء الذين اتخذوهم غرضاً للهزء والسخرية.

فلا ينبغي الانخـداع بالظاهر، ووزن الأمور عليها، فكيف يكون الحال لو أنّ هؤلاء المستهزأ بهم كانوا عند الله أفضل وأكرم من هؤلاء المستهزئين؟

ألا يخافـون أن ينتقم منهـم الله لأوليائه؟ ألا يستحون أن يستخفّوا بمن هم أثقل منهم ميزاناً، وأكرم منهم معدناً؟ إنّ هذا أمر لو لم يؤثمه الدين، لأنكره العقل، ورفضته المروءة، وجفاه المنطق، ولفظه العدل والإنصاف. ومن الآفات التي تُهدّد كيان المجتمع، وتقوّض

بنيانه، شيوع الاستخفاف بأنفسهم، وعدم التحرُّج من ذكر بعضهم بعضاً بالمقابح والمساوئ، فهذا إنّما يكون من إفرازات الجماعات المتحلّلة من القيم الخلقية، التي تتبادل المنكرات كما تتبادل السلع الرخيصة في البيع والشراء»[1].

الدروس المستفادة من الآية

1. الإيمان بالله تعالى لا يجتمع مع السخرية بالآخرين. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ﴾.
2. السخرية بالآخرين هي مفتاح للفتنة والعدواة بين المؤمنين.
3. ينبغي في طريقة إعلان الأحكام أو الآداب الأخلاقية من ملاحظة تنوّع المخاطبين وهذا قد يقتضي التكرار ﴿قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ ... وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ﴾.
4. إنّ القضاء على الظواهر المنحرفة والعادات السيئة يكون بالقضاء على جذورها، وهكذا فعل القرآن الكريم فإنّ جذور السخرية على الآخرين هو التعالي عليهم والاعتقاد بأنّنا أفضل منهم.
5. وبما أنّ الإنسان لا يعرف بواطن الآخرين، فعليه أن لا يبني أحكامه على الظاهر، فلعلّ من اسُتهزء به هو ولي عند الله تعالى ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا﴾.
6. إنّ العيب الذي يصدر منّا تجاه الآخرين هو في الحقيقة يرجع إلى أنفسنا باعتبار وحدة الأخوة بين المؤمنين. ﴿وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾.
7. إنّ نقل عيوب الآخرين هو من العوامل لكشف عيوبنا باعتبار الوحدة المشار إليها. ﴿وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾.
8. إنّ السخرية بالآخرين واللمز والتنابز بالألقاب هي من الذنوب التي تستوجب التوبة ﴿وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.
9. في حال عدم التوبة من هذه المعاصي، سيكون الإنسان ظالماً وتترتّب عليه كل أحكام الظالم. ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

(1) التفسير القرآني للقرآن، ج13، ص 448.

🙞 للمطالعة:

جذور ومناشىء السخرية بالآخرين

1. إن من جذور الاستهزاء والسخرية بالآخرين هو امتلاك الثروة كما يقول القرآن: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾[1].

2. أحياناً يكون جذر الاستهزاء بالآخرين هو امتلاك بعض الأفراد للعلم والمعرفة كما يقول تعالى: ﴿فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾[2].

3. أحياناً يكون جذر الاستهزاء هو القوة الجسمانية يقول تعالى: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾[3].

4. أحياناً تكون جذور ذلك، الألقاب والمواقع الاجتماعية التي يكتسبها بعض الأفراد في المجتمع فينطلق من خلالها لتحديد علاقته مع الآخرين كما صوّر القرآن موقفهم من اتباع الأنبياء. ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾[4].

5. أحياناً تكون الدوافع التي تدفع الآخرين بالاستهزاء والسخرية بالمؤمنين هو محض التسلية واللهو.

6. أحياناً يكون السبب والدافع هو الطمع بالمال والمنصب فهذه الدوافع قد تجعل بعض الناس ينتقد الأشخاص الأتقياء والعلماء في المجتمع بل قد تصل الجرأة إلى انتقاد الرسول كما حصل فعلاً من بعض السفهاء. ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾[5].

---

(1) سورة الهمزة، الآية 1.

(2) سورة غافر، الآية 83.

(3) سورة فصلّت، الآية 15.

(4) سورة هود، الآية 27.

(5) سورة التوبة، الآية 58.

7 . أحيانــاً وفي الغالب تكــون جذور الاستهزاء والسخرية هو الجهل. ﴿أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[1].

8.أحياناً يكــون مصدر الاستهزاء والسخرية هو نفس الأعمال التي يقوم به الآخرون فيستهــزؤون بأعمالهــم. ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾[2].

(1) سورة البقرة، الآية 67.

(2) سورة التوبة، الآية 79.

9

حرمة المؤمن

سوء الظن والتجسّس

مفاهيم محورية:

- معنى سوء الظنّ.
- أقسام سوء الظن.
- بحث حول التجسُّس.
- القاعدة الكلية فيما بين المسلمين أنّهم سواسية.
- كشف عورات المؤمنين.
- متى يجوز التجسُّس؟

النص القرآني

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ﴾.

تمهيد

ثلاثة أمور من المحرّمات وتؤدّي إلى مفاسد اجتماعية كثيرة ومخاطر كبيرة وهي: سوء الظنّ، التجسُّس، الغيبة.

الأمر الأول: اجتناب سوء الظنّ، والمراد بالظنّ المأمور بالاجتناب عنه ظنّ السوء، فإنّ ظنّ الخير مندوب إليه كما يستفاد من قوله تعالى: ﴿لَّوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ ظَنَّ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمۡ خَيۡرٗا﴾[1].

الأمر الثاني: ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾ التجسُّس: تتبُّع العورات والعثرات والبحث عنها في الخفاء - غالباً - وهو محرّم كتاباً وسنة وعقلاً وإجماعاً. وقوله: ﴿لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ﴾ إلى قوله ﴿حَتَّىٰ يُؤۡذَنَ لَكُمۡۖ﴾[2].

(1) سورة النور، الآية 12.

(2) سورة النور، الآيتان 27- 28.

الأمر الثالث: الغيبة. وسيأتي بحث الغيبة بالتفصيل.

«**يا كميل ذُبّ عن المؤمن فإنّ ظهره حمى الله، ونفسه كريمة على الله، وظالمه خصم الله، وأحذّركم من ليس له ناصر إلا الله**»[1].

شرح مفردات الآية

- **اجْتَنِبُوا:** جنب هو الميل والتنحية، بمعنى جعل الشيء في جنبه وانصرافه عنه، والجنب هو ما يلي الشيء من غير انفصال، أي الخارج الملاصق، كما أنّ الطرف هو منتهى الشيء داخلاً فيه[2].
- **الظنّ:** هو اعتقاد ضعيف غير جازم ليس فيه يقين مستند إلى دليل قاطع، والأغلب فيه مخالفته للواقع وبهذا اللحاظ يكون اتّباعه مذموماً، وإن صادف موافقة للواقع [3].
- **تَجَسَّسُوا:** جسّ: أصل واحد وهو تُعرّف الشيء بمسّ لطيف. يقال جسست العرق وغيره جسّاً. والجاسوس فاعول من هذا لأنّه يتخبّر ما يريده بخفاء ولطف. أنّ الجسّ هو التعرّف والتخبّر بتدبير ولطف[4].
- **يَغْتَبْ:** والغِيبةُ: أَن يتكلّم خَلْفَ إنسان مستور بسوء، أَو بما يَغُمُّه لو سمعه وإن كان فيه، فإن كان صدقاً، فهو غِيبةٌ؛ وإن كان كذباً، فهو البَهْتُ والبُهْتانُ[5].

المعنى التفصيلي

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ﴾

- المراد بالظنّ المأمور بالاجتناب عنه ظنّ السوء فإنّ ظنّ الخير مندوب إليه.

(1) مصادر نهج البلاغة وأسانيده، عبد الزهراء الحسيني الخطيب، ج4، ص 11.
(2) التحقيق في كلمات القرآن الكريم، حسن المصطفوي، ج2، ص 114- 115.
(3) (م.ن)، ج7، ص 180.
(4) (م.ن)، ج2، ص 87.
(5) لسان العرب، ابن منظور، ج1، ص 656.

والظـنّ على قسمين: ظنٌّ حسن، وظنٌّ سـيّء، الظنّ الحسن: فمن أحسن الظنّ بأخيـه المؤمن فلا بأس عليه، وإن أخطأ بل هـو المطلوب حسب الروايات. عن أمير المؤمنين عليه السلام: «**ضَعْ أَمْرَ أَخِيكَ عَلَى أَحْسَنِه حَتَّى يَأْتِيَكَ مَا يَغْلِبُكَ مِنْه وَلَا تَظُنَّنَّ بِكَلِمَةٍ خَرَجَتْ مِنْ أَخِيكَ سُوءاً وأَنْتَ تَجِدُ لَهَا فِي الْخَيْرِ مَحْمِلًا**»[1].

- **ظـنّ السـوء**: ومن أساء به الظنّ أيضـاً لا بأس عليه وإن كان مخطئاً في ظنّه حيـث لا حرية للإنسان في ظنونه وتصوّراتـه، أجل عليه أن لا يعوّل على سوء الظـنّ ولا يرتّب عليـه أيّ أثر في قول أو فعل وإلا استحـقّ الذمّ والعقاب.فعن رسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**ثـلاث لا ينجـو منهـنّ أحد: الظـنّ، والطيـرة، والحسد، وسأُحدّثكـم بالمخـرج من ذلك: إذا ظننت فلا تُحقّق، وإذا تطيّرت فامض، وإذا حسدت فلا تبغِ**»[2].
- **الاجتنـاب عن الظـنّ**: يعني الاجتناب عن ترتيب الأثر عليه، كأن يظنّ بأخيه المؤمن سـوءً فيرميه به ويذكره لغيره ويرتّب عليه سائر آثاره[3]. ومعنى عدم ترتّب الأثر أي لا ينبغي الاعتناء به عمليّاً، ولا ينبغي تبديل أسلوب التعامل مع المؤمـن ولا تغيير الروابط معه، فعلى هـذا الأساس فإنّ الإثم هو تفعيل الأثر في الواقع والبناء عليه.
- **الظنّ بما هو نوع من الإدراك النفساني**: هو أمر يفاجئ النفس لا عن اختيار فـلا يتعلّق به النهي إلا إذا كان بعض مقدّماتـه اختيارياً. ويمكن للإنسان أن يُبـدّل ظنّ السوء بظنّ الخير من خلال طريقة ومنهج تفكيره، بمعنى أن يُبعد عـن نفسه سـوء الظنّ بالتفكير فـي المسائل المختلفة، بـأن يُفكّر في طريق الحمـل على الصحة، وأن يُجسّد في ذهنـه الاحتمالات الصحيحة الموجودة

(1) الكافي، الكليني، ج2، باب التهمة وسوء الظنّ، ح3، ص 362.
(2) البرهان في تفسير القرآن، هاشم البحراني، ج5، الحجرات، ص 113.
(3) الميزان في تفسير القرآن، ج18، ص 325.

فــي ذلك العمــل، وهكذا يتغلّب تدريجاً على سوء الظــنّ! فبناء على هذا ليس ســوء الظنّ شيئــاً خارج بالكليــة عن اختيــار الإنسان بل مقدّماتــه اختيارية فيمكن التدقيق بهذه المقدّمات قبل حصول سوء الظنّ في النفس.

- المــراد مــن ﴿كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ الظنّون السيّئة التي تغلــب على الظنّون الحسنة بين النـاس، لذلك عبّر عنها بـ «**الكثير**» وممّا يلفت النظر أنّه قد نُهي عن كثير من الظنّ، إلّا أنّه في مقــام التعليل تقول الآية: ﴿إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ﴾، ولعلّ هــذا الاختلاف في التعبير ناشئ من أنّ الظنّون السيّئة بعضها مطابق للواقع وبعضهــا مخالف له، فما خالف الواقع فهو إثــم لا محالة، ولذلك قالت الآية: ﴿إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ﴾، وعلى هذا فيكفي هذا البعض من الظنّون الذي يكون إثماً أن نتجنّب سائر الظنّون لئلّا نقع في الإثم!
- ســوء الظــنّ هو نقطــة وصل بين مــا تقدّم من لمــز واستهزاء ومــا سيأتي من تجسُّس وما شابه ذلك، فالظنّ هو السبب فيما تقدّم وعليه تُبنى القبائح، ومنه يظهر العدو المكاشح والقائل إذا أوقف أموره على اليقين فقلّما يتيقّن في أحد عيبــاً فيلمزه به، فإنّ الفعل في الصورة قد يكون قبيحاً وفي نفس الأمر لا يكون كذلــك، لجواز أن يكون فاعله ساهياً أو يكون الرائي مخطئاً، وهكذا سوء الظنّ باعث على التجسُّس، والتجسُّس باعث على كشف الأسرار الى آخره.
- روي عــن الامام الصادق عليه السلام: «**حسن الظنّ أصله من حسن إيمان المرء وسلامة صدره، وعلامته أن يرى كلّ ما نظر إليه بعين الطهارة والفضل، مــن حيــث ركــب فيه، وقــذف فــي قلبــه، مــن الحيــاء، والأمانــة، والصيانة والصــدق، قــال النبــي صلى الله عليه وآله وسلم: أحسنوا ظنونكم بإخوانكم، تغتنموا بها صفاء القلب، ونماء الطبع**»[1].

(1) مصباح الشريعة ومفتاح الحقيقة، المنسوب للإمام الصادق عليه السلام، في حسن الظنّ، ص 173.

فهذه هي عناصر الإيمان حقاً، فالمؤمن حييّ أمين يصون سرّ الناس ويتعامل معهم بالصدق، يصدق هذا فقط عند صلاح الزمان أو بين التجمع الصالح الذي تتسم علاقاتهم بالأخوة الإيمانية.

- إنّ المضاد لسوء الظنّ هو حسن الظنّ بالآخرين ويقصد به توجيه النظر إلى الجانب الإيجابيّ كاحتمال معقول يمنع عن الحكم المرتكز على الظنّ، كما ورد في الحديث المتقدّم: «**لا تظنَّنَّ بكلمة خرجت...**» ممّا يوحي بأنّ الاحتمال الواحد في المائة لا بدّ من أن يوقف المؤمن عن الحكم بنسبة التسعة والتسعين بالمائة، فلعلّ الحقّ في الواحد، ولكن ليس معنى ذلك أن يكون المؤمن ساذجاً لا يحذر من الاحتمالات المضادة.

بحث حول الآية

أقسام سوء الظنّ:

سوء الظنّ على ثلاثة أقسام:

1. **سوء الظنّ بالله تعالى:** هو الأمر الذي يقابل حسن الظنّ بالله تعالى. عَنْ أَبِي الْحَسَنِ الرِّضَا عليه السلام «**قَالَ أَحْسِنِ الظنّ بِالله فَإِنَّ الله عزّ وجلّ يَقُولُ أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِيَ الْمُؤْمِنِ بِي إِنْ خَيْراً فَخَيْراً وإِنْ شَرّاً فَشَرّاً**»[1]. ومعنى حُسن الظنّ بالله عزّ وجلّ هو اعتماد الإنسان المؤمن على ربِّه في أموره كلها، ويقينه الكامل وثقته التامة بوعد الله ووعيده، واطمئنانه بما عند الله، وعدم الاتكال المُطلق على تدبير نفسه وما يقوم به من أعمال. وكما أنّ حسن الظنّ بالله تعالى هو منشأ الخيرات فسوء الظنّ بالله هو منشأ الشرور، فقد جاء في كتاب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام الذي كتبه للأشتر النخعي لمّا ولّاه على مصر: «... **فَإِنَّ الْبُخْلَ والْجُبْنَ والْحِرْصَ غَرَائِزُ شَتَّى - يَجْمَعُهَا سُوءُ الظنّ بِالله...**»[2].

(1) الكافي، الكليني، ج2، باب حسن الظنّ بالله عزّ وجلّ، ح3، ص 72.

(2) نهج البلاغة، 53 ومن كتاب له عليه السلام كتبه للأشتر النخعي، ص 430.

وعلى كلّ حال فإنّ سوء الظنّ بالله ينشأ من عدم معرفته تعالى بما هو أهله، فالجاهل به لا يعرفه من جهة ما هو جواد فيّاض بالخيرات لمن استعدّ لذلك فيسوء ظنّه.

2 . **سوء الظنّ بالآخرين:** وهو مورد الآية الكريمة وقد تقدّم بحثه.

3 . **سوء الظنّ بالنفس:** وهي من الموارد الممدوحة في الروايات كما وصف الإمام أمير المؤمنين عليه السلام المتقين: «**فَهُمْ لِأَنْفُسِهِمْ مُتَّهِمُونَ وَمِنْ أَعْمَالِهِمْ مُشْفِقُونَ**»[1] والمراد أنهم يظنّون بأنفسهم التقصير أو الميل إلى الدنيا، أو عدم الإخلاص في النية أو الأعم، أو يشكّون في شأنها ونياتها، ويخافون أن يكون مقصودها في العبادات الرئاء والسمعة، وأن تجرها العبادة إلى العجب، فلا يعتمدون عليها. والإشفاق، الخوف، وإشفاقهم من السيئات وإن تابوا منها لاحتمال عدم قبول توبتهم، ومن الحسنات لاحتمال عدم القبول، لاختلال بعض الشرائط، وشوب النية، أو للأعمال السيئة وقد قال الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾[2] [3].

عندما ندرس ظاهرة «**سوء الظنّ**» من الناحيتين النفسية والاجتماعية بمجمل تأثيراتها على الفرد والمجتمع نكتشف أنها هي ذلك (المرض) الخطير الذي يُحطّم جهاز المناعة لدى المجتمعات والأفراد ليحوّل رياضها النضرة وجنانها الغنّاء إلى صحارى قاحلة تحرقها أشعة الشمس اللافحة والى خرائب تنعق فيها الغربان.

إنّ (سيّء الظنّ) يرصد كلّ تحرّك وكلّ همسة وكلّ نظرة ويحسب لها ألف حساب ثم تراه لا يحملها إلا على أسوأ المحامل. فيا ترى ما هو السبب الذي دعا (زيداً) لكي يؤسّس مدرسة بالقرب من مدرستي! أو مسجداً أو مكتبة أو متجراً أو غير ذلك؟

---

(1) نهج البلاغة، 193 ومن خطبة له عليه السلام يصف فيها المتقين، ص 304.

(2) سورة المائدة، الآية 27.

(3) ينظر: بحار الأنوار، ج64، ص 325.

إنّ هدفه واضح وضوح الشمس؛ لقد أراد أن ينافسني ويحطّم مدرستي! ولماذا - يا ترى - لم يقم (عمرو) لي، عندما دخلت المجلس؟ إنّ من الواضح أنه رآني وتعمّد أن لا يقوم لي استخفافاً بي وهدراً لكرامتي أمام الناس! وأرأيت كيف نظر (بكر) إليّ؟ وكيف تغامز مع (خالد)؟ ثم كيف عاملني صديقهما (أحمد) ببرود؟. ويمكن تلخيص قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾. بجملة واحدة هي: كلّ إنسان بريء حتى تثبت إدانته.

الأمن الاجتماعي الكامل[1]:

إنّ النهي عن سوء الظنّ بالآخرين هو من أهمّ الأمور لتكوين الأمن الاجتماعي للمجتمع المسلم فإنّ ما تحدّثت به هذه الآية والآية السابقة من النهي عن الأمور الستة، إذا نُفّذ ذلك النهي شعر المجتمع بالعزّة والكرامة والترابط الأخوي وساده المحبّة والمودّة والوئام (فإنّ سمعة وكرامة الأفراد في ذلك المجتمع تكون مضمونة من جميع الجهات، فلا يستطيع أحد أن يسخر من الآخرين -على أنه أفضل- ولا يمدّ لسانه باللمز، ولا يستطيع أن يهتك حرمتهم باستعمال الألقاب القبيحة ولا يحقّ له حتى أن يسيء الظنّ بهم، ولا يتجسّس عن حياة الأفراد الخاصة ولا يكشف عيوبهم الخفية (باغتيابهم)، وبتعبير آخر إنّ للإنسان رؤوس أموال أربعة ويجب أن تُحفظ جميعاً في حصن هذا القانون وهي: «**النفس والمال والناموس وماء الوجه**». والتعابير الواردة في الآيتين محل البحث والروايات الإسلامية تدلّ على أنّ ماء وجه الأفراد كأنفسهم وأموالهم بل هو أهم من بعض الجهات. الإسلام يريد أن يحكم المجتمع أمنٌ مطلق، ولا يكتفي بأن يكفّ الناس عن ضرب بعضهم بعضاً فحسب، بل أسمى من ذلك بأن يكونوا آمنين من ألسنتهم، بل وأرقى من ذلك أن يكونوا آمنين من تفكيرهم وظنّهم أيضاً... وأن يحسّ كل منهم أنّ الآخر لا يرشقه بنبال

---

(1) ينظر: الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ناصر مكارم الشيرازي، ج16، ص 551- 552.

الاتهامـات في منطقـة أفكاره. وهذا الأمن في أعلى مستـوى ولا يمكن تحقّقه إلّا في مجتمـع رسالي مؤمن. يقول النّبـي ﷺ في هذا الصدد: «**إنّ الله حـرّم من المسلم دمـه ومالـه وعرضـه وأن يظـنّ بـه السـوء**» إنّ سوء الظـنّ لا أنّه يؤثّـر على الطرف المقابـل ويسقـط حيثيّته فحسـب، بل هو بلاء عظيـم على صاحبه لأنّـه يكون سبباً لإبعاده عن التعاون مع الناس ويخلق له عالماً من الوحشة والغربة والانزواء، كما ورد فـي حديث عن أميـر المؤمنين علي عليه السلام أنّه قال: «**من لـم يُحسن ظنّه استوحش من كلّ أحد**» وبتعبير آخر، إنّ ما يفصل حياة الإنسان عن الحيوان ويمنحها الحركة والرونـق والتكامل هـو روح التعاون الجماعي، ولا يتحقّق هذا الأمـر إلّا في صورة أن يكـون الاعتماد علـى الناس (وحسن الظنّ بهـم) حاكماً... في حيـن أنّ سوء الظنّ يهدم قواعد هذا الاعتماد، وتنقطع به روابط التعاون، وتضعف به الروح الاجتماعية.

بحث حول التجسُّس:

1. التجسُّـس بالجيم تتبُّع ما استتر من أمور الناس للاطلاع عليها، ومثله التحسُّس بالحـاء المهملـة إلا أن التجسُّس بالجيـم يُستعمل في الشـر، والتحسُّس بالحاء يُستعمل في الخير، ولذا قيل: معنى الآية لا تتبعوا عيوب المسلمين لتهتكوا الأمور التـي سترهـا أهلهـا[1]. والتحسُّس كما ورد علـى لسان يعقوب فـي وصيته ولده! ﴿يَـٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾[2].
2. ﴿.. وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾ عـن معايب المؤمنيـن، وإنّما تحسّسوا عن محاسنهم، إظهاراً للجميـل وستراً للقبيح، فالتفتيش عمّـا استتر من أمور النـاس أو عيوبهم محظور جماعي عارم، يُعكّر جو الطمأنينة والراحة، ويبدله إلى الاضطراب والعاهة، وإنّ التجسُّس عن أسرار المؤمنين محظور بأي لون وعلى أية حال.

(1) الميزان في تفسير القرآن، ج18، ص 325.
(2) سورة يوسف، الآية 87.

فالآيــة نهت عن التجسُّس مطلقــاً، والبحث عن أسرار الآخريــن الخفية، ممّا لا يريدون اطلاع الناس عليها يشمل قضاياهم الذاتية أو الاجتماعية أو الاقتصادية أو العسكريــة وغيــر ذلك، لأنّ الله أعطى الحيــاة الخاصة حرمة شرعية لم يجز للغير اقتحامها، وجعل للإنسان الحق في منع غيره من الاعتداء عليها بأيّة وسيلة من وسائل المعرفة الظاهرة أو الخفية.

3. كمــا تُحرِّم الآيــة التجسُّس الفردي تُحــرِّم تجسُّس الدولة علــى رعاياها، إلا إذا اقتضت مصلحة الأمة، فلا بد أن يخضع ذلك للقضاء القائم على أساس أحكام الشريعة. كما سيأتي في الاستثناء.

4. القاعدة الكلية فيما بين المسلمين أنهم سواسية انطلاقاً من مبدأ ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾ فإنّ المسلمين سواسية فيما بينهم لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأبيض علــى أسود ولا لغني على فقيــر ولا لرئيس على مرؤوســ إلا بالتقوى، فالجميــع أمام القانون وفي الأحكام الشرعية على حدٍّ سواء، وقد دلت على ذلك الآيات التي خاطبت المؤمنين والمسلمين، والروايات والتشريعات للأحكام فهي شاملة للجميع على حدٍّ سواء.

فالإنســان المسلم محترم الكرامة ومصون العرض والمال والدم ومكفول الحرية في المجتمع الإسلامي الذي يتكافأ فيه الجميع ويعيشون فيه متساوين ولا يجوز لأحد أن يتعدّى على أحد بأي ذريعة كانت، فلا يجوز التجسُّس ولا سوء الظنّ ولا الغيبة ولا الإهانــة لبعض الأفراد أو الجماعات وكشــف عوراتهم وأسرارهم الفردية أو العائلية أو الزوجيــة أو الأخلاقيــة، وقد شدّد الإسلام على ذلك أيّمــا تشديد حتى في الأمور الصغيــرة التي يكرهها المسلم والمسلمة وحتى من أقــرب المقرّبين إليه فضلاً عن الأجانــب، وبهــذا يضع قاعــدة كلية عامّة وشاملــة لكلّ أفراد المجتمــع يتساوى فيها الضعيف والقوي والرجل والمرأة والرئيس والمرؤوس والعربي والأعجمي.

قال بعض المفسّرين: هذا مبدأ من مبادئ الإسلام الرئيسية في نظامه الاجتماعي، وفي إجراءاته التشريعيــة والتنفيذية. إنّ للناس حرياتهم وحرماتهم وكراماتهم التي لا يجوز أن تُنتهك في صورة من الصور، ولا أن تُمسّ بحال من الأحوال.

ففــي المجتمع الإسلامي الرفيع الكريــم يعيش الناس آمنين على أنفسهم، آمنين علــى بيوتهم، آمنين علــى أسرارهم، آمنيــن على عوراتهم. ولا يوجـد مبرّر - مهما يكن- لانتهاك حرمات الأنفس والبيوت والأسرار والعورات. حتى ذريعة تتبُّع الجريمة وتحقيقهـا لا تصلح في النظام الإسلامي ذريعــة للتجسُّس على الناس. فالناس على ظواهرهــم، وليســ لأحد أن يتعقّــب بواطنهم. وليس لأحــد أن يأخذهم إلا بما يظهر منهم من مخالفات وجرائم.

وليس لأحد أن يظنّ أو يتوقّع، أو حتى يعرف أنّهم يزاولون في الخفاء مخالفة ما، فيتجسَّــس عليهــم ليضبطهم! وكل ما لــه عليهم أن يأخذهــم بالجريمة عند وقوعها وانكشافها، مع الضمانات الأخرى التي ينصّ عليها بالنسبة لكل جريمة[1].

5. كشف عورات المؤمنين. العورة ليست هي مجرّد القبل والدبر للرجل والمرأة التي لا يجــوز أن تكشف للآخرين، ولا يجوز للأجنبي أن ينظر إليها، وهناك جملة من الروايات تُنبّه أنّ العورة أعمّ من ذلك وتشمل أسرار الآخرين.

عَــنْ عَبْــدِ اللَّه بْنِ سِنَــانٍ قَالَ «**قُلْــتُ لَه عَــوْرَةُ الْمُؤْمِــنِ عَلَــى الْمُؤْمِنِ حَـرَامٌ قَالَ نَعَـمْ قُلْـتُ تَعْنِـي سُفْلَيْـه قَـالَ لَيْسَ حَيْثُ تَذْهَـبُ إِنَّمَا هِـيَ إِذَاعَـةُ سِـرِّ**»[2]. والضمير فــي لــه للصادق عليه السلام ، وفــي النهاية العورة كل مــا يستحيي منــه إذا ظهر، انتهى. وغرضه عليه السلام أنّ المراد بهذا الخبر إفشاء السر لا أنّ النظر إلى عورته ليس بحرام، والمراد بحرمة العــورة حرمة ذكرها وإفشائها والسفلين العورتين، وكنّى عنها لقبح التصريح بهما[3].

(1) ينظر: في ظلال القرآن، ج6، ص 346.

(2) الكافي، الكليني، ج2، باب الرواية على المؤمنين، باب الرواية على المؤمنين، ح2، ص 359.

(3) مرآة العقول في شرح أخبار آل الرسول، محمد باقر المجلسي، ج11، ص 3.

والتجسُّس كما تقدّم هو تتبُّع عثرات المسلمين والقرآن يرفض هذا العمل الدنيء من الناحية الأخلاقية، لتطهير القلب من مثل هذا الاتجاه اللئيم لتتبُّع عورات الآخرين وكشف سوآتهم. وتمشّياً مع أهدافه في نظافة الأخلاق والقلوب. وقد وردت الروايات الكثيرة التي تُندّد بهذا العمل الإجرامي وتوضح أنّ التجسُّس هو تتبُّع عثرات المؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات وإحصاء زلّاتهم وسلبياتهم سواء لمجرّد الرغبة وتجميع المعلومات أو كان بقصد أخذ مستمسكات عليهم وقت الحوار والمخاصمة والتغلّب عليهم في القضاء وإثار النعرات الطائفية والمذهبية كل ذلك نهى عنه الدين الإسلامي ووخّمه وبيّن أن من يتصرّف مثل هذا التصرُّف فسوف يقع هو في نفس المحذور بمعنى إذا تتبّع عثرات الآخرين فإنّ الله سيتتبّع عثراته وسوف يفضحه عاجلاً أم آجلاً.

عَنْ إِسْحَاقَ بْنِ عَمَّارٍ قَالَ سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّه عليه السلام يَقُولُ قَالَ رَسُولُ اللَّه صلى الله عليه وآله وسلم **«يَا مَعْشَرَ مَنْ أَسْلَمَ بِلِسَانِه ولَمْ يُخْلِصِ الإِيمَانِ إِلَى قَلْبِه لَا تَذُمُّوا الْمُسْلِمِينَ ولَا تَتَبَّعُوا عَوْرَاتِهِمْ فَإِنَّه مَنْ تَتَبَّعَ عَوْرَاتِهِمْ تَتَبَّعَ اللَّه عَوْرَتَه ومَنْ تَتَبَّعَ اللَّه تَعَالَى عَوْرَتَه يَفْضَحْه ولَوْ فِي بَيْتِه»** [1].

و«العورة كل أمر قبيح يستره الإنسان أنفة أو حياء، والمراد بتتبُّعها تطلُّبها شيئاً بعد شيء في مهلة والفحص عن ظاهرها وباطنها بنفسه أو بغيره، والمراد بتتبُّع الله تعالى عورته إرادة إظهارها على خلقه ومن أراد الله تعالى إظهار عورته وإعلان بواطن ما يكره إظهاره يفضحه بإظهارها ولو في جوف بيته إذ لا مانع لإرادته تعالى ولا دافع لها»[2].

(1) الكافي، الكليني، ج2، باب من طلب عثرات المؤمنين وعوراتهم، ح2، ص 354.

(2) شرح أصول الكافي، محمد صالح المازندراني، ج10، ص 4.

ومـا يلفت النظر في هـذه الرواية أنّ من يتتبّع عثـرات المسلمين ويشوّه سمعتهم ولتفريـق كلمتهم وإسقاطهم من أعين النـاس لم يدخـل الإسلام ولا الإيمان في قلبه ولـم يتديّـن بإسلامه بل هو مسلم بالجنسية دون الواقـع مهما ادعى الإيمان أو اتباع أهل البيت عليهم السلام.

الحالات الاستثنائية في التجسّس:

حيـث إنّ حفـظ نظام المسلمين مـن أهمّ ما اهتـمّ به الشرع فـلا محالة وجبت مقدّماتـه بحكم العقل والفطرة. فعلى الدولـة الإسلاميّة أن تحصل على الاطلاعات الكافيـة حول أوضاع الـدول والأُمم الأجنبيـة وقراراتهم ضد الإسـلام والمسلمين، وتجمع الأخبار حول تحرّكاتهـم وتحرّكات عملائهم وجواسيسهم، ومؤامرات الكفّار وأهـل النفاق والبغـي والطغيان، وأن تراقب رجال الدولـة والموظّفين وأحوال النـاس وحوائجهم العامّة.

وهـذه المسؤوليـة تُفوّض لا محالة من قِبَل الدولة إلـى مؤسّسة عادلة صالحة من جميـع الجهات، ويطلق عليها في اصطـلاح عصرنا: «**إدارة الأمـن والاستخبارات**». والهدف من هـذا الجهاز ليس إلاّ حفظ مصالح الإسـلام والمسلمين وتحكيم نظام العـدل وإيجاد الاطمئنـان للنفوس لا الحفاظ على منافـع الرؤساء وتحكيم سلطتهم كيـف ما كانـوا وأرادوا ولـو بالإخافـة وكمّ أفـواه الأُمّـة المظلومة وسلـب حرياتهم المشروعـة، كمـا قد يتوهّم من سمـاع هذا اللفظ في أكثر البـلاد. وعلى هذا فيجب أن يفوّض هذه المسؤولية إلى أهلها، وأن يدقّق في انتخاب الأعضاء لها، واختيارهم من بين العقلاء الأذكياء الملتزميـن بالموازين الشرعية المهتمّين بمصالح الأفراد والمجتمـع، ويجب أن يتعرّف كلّ منهم على ما يجـب الاطّلاع عليه وما يحرم، ويميّز الخطّ الدقيق الفاصل بينهما، فإنّ الأمر في كثير من الموارد دائر بين الواجب المهمّ والحرام المؤكّد [1].

(1) نظام الحكم في الإسلام، حسين المنتظري، الاستخبارات العامة والهدف منها، ص 360.

«... ومن هذا المنطلق أيضاً يمكن للحكومة الإسلامية أن تتّخذ أشخاصاً يكونون عيوناً لها أو منظمة واسعة للإحاطة بمجريات الأمور، وأن يواجهوا المؤامرات ضدّ المجتمع أو التي يُراد بها إرباك الوضع الأمني في البلاد، فيتجسّسوا للمصلحة العامة حتى لو كان ذلك في إطار الحياة الخاصة للأفراد! إلّا أنّ هذا الأمر لا ينبغي أن يكون ذريعة لهتك حرمة هذا القانون الإسلامي الأصيل، وأن يسوّغ بعض الأفراد لأنفسهم أن يتجسّسوا في حياة الأفراد الخاصة بذريعة التآمر والإخلال بالأمن، فيفتحوا رسائلهم مثلاً، أو يراقبوا الهاتف ويهجموا على بيوتهم بين حين وآخر!!. والخلاصة: أنّ الحدّ بين التجسُّس بمعناه السلبي وبين كسب الأخبار الضرورية لحفظ أمن المجتمع دقيق وظريف جداً، وينبغي على مسؤولي إدارة الأمور الاجتماعية أن يراقبوا هذا الحدّ بدقّة لئلّا تهتك حرمة أسرار الناس، ولئلّا يتهدّد أمن المجتمع والحكومة الإسلامية!.»[1].

فهذا المبدأ الاجتماعي لا يشمل الحالات التي تمسّ فيها المصلحة العليا للإسلام والمسلمين والتي قد تستدعي الاطلاع على بعض الأوضاع الخفية للأشخاص والمواقع والأحداث المتعلّقة بالآخرين، ممّا يخاف ضرره، أو يُراد نفعه، فيجوز لوليّ أمر المسلمين اللجوء إلى هذا الأسلوب في نطاق الضرورة الأمنية والسياسية والاقتصادية، انطلاقاً من قاعدة التزاحم بين المهمّ والأهمّ، لتغليب المصلحة التي تقف في مستوى الأهمية القصوى على المفسدة الناشئة من التجسُّس، فإنّ حرمة المسلمين تتقدّم على حرمة الشخص أو الأشخاص في ذلك كله.

---

(1) الأمثل، ناصر مكارم الشيرازي، ج16، ص 554.

للمطالعة:

التجسُّس أقرب إلى الكفر

إنّ التجسُّس الذي يصدق عليه عنوان تتبُّع عثرات المسلمين هو أقرب إلى الكفر منه إلى الإيمان ففيما إذا تآخى مع أحد من المسلمين على الدين والإيمان ثم أحصى عليه عثراته وزلّاته حتى يجعلها مستمسكاً عليه ليُعنّفه بها ويُعيّره عليها ويلومه من أجلها في يوم من الأيام فإنّ هذا العمل الدنيء أقرب ما يكون إلى خط الباطل والانحراف. كما جاء في الحديث الصحيح عَنْ زُرَارَةَ عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ الباقر عليه السلام قَالَ: «**إِنَّ أَقْرَبَ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ إِلَى الْكُفْرِ أَنْ يُوَاخِيَ الرَّجُلُ الرَّجُلَ عَلَى الدِّينِ فَيُحْصِيَ عَلَيْهِ عَثَرَاتِهِ وَزَلَّاتِهِ لِيُعَنِّفَهُ بِهَا يَوْماً مَا**» [1].

حكم التجسُّس؟

الأصل هو حرمة التجسُّس ولا يجوز الخروج عن هذا الأصل إلا لعناوين ثبت من الشرع أهميتها القصوى والتي تمسّ بأمن المجتمع يقول بعض الفقهاء: «الأصل وهو عدم ولاية أحد على أحد؛ فمراقبة الغير والتجسُّس عليه وإذاعة عيوبه وأسراره نحو تصرّف في شؤون الغير والأصل يقتضي عدم جوازه. والآية الكريمة تدرّجت على هذا الشكل نهى الله تعالى **أوّلاً**: عن سوء الظنّ بالمؤمنين، **وثانياً**: عن التفتيش والتجسُّس على دخائلهم، **وثالثاً**: عن إذاعتها وإشاعتها على فرض الاطّلاع عليها، ولعلّ المستفاد من الآية أنّ حياة الإنسان إنّما هي بِعِرضِه وشخصيته الاجتماعية، والهتك لهما كأنه سلب لحياته هذه [2].

---

(1) الكافي، الكليني، ج2، باب من طلب عثرات المؤمنين وعوراتهم، ح6، ص 355.

(2) نظام الحكم في الإسلام، حسين المنتظري، وجوب حفظ أعراض المسلمين وأسرارهم، ص 357.

10

حرمة المؤمن

الغيبة

مفاهيم محورية:

- مفهوم الغيبة وضررها.
- بشاعة الغيبة.
- اتساع نطاق الغيبة.
- مستثنيات حرمة الغيبة
- آثار الغيبة.
- علاج الغيبة.
- الدروس المستفادة من الآية.

النص القرآني

قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ﴾.

تمهيد

إنّ حرمة الغيبة تُعدّ من بديهيات الفقه، وهي من المعاصي الكبيرة والموبقات المهلكة. وإنّ لهذه الخطيئة الكبيرة في عالم الغيب وراء حجاب الملكوت، صورة قبيحة وبشعة تفضح الإنسان في الملأ الأعلى أمام الأنبياء والمرسلين والملائكة المقرّبين. وهذه الصورة البشعة التي أشار إليها الآية: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ﴾ وإنّ لأعمالنا صوراً وأشكالاً تناسبها ستظهر بتلك الصور والأشكال لتعود إلينا في العالم الآخر،والمغتاب يضاهي الكلاب الجارحة في افتراسه لأعراض الناس ولحومهم، وسيظهر بهذه الصورة كلب ينهش لحم ميت في نار جهنّم.

والغيبة تُفسد أجزاء المجتمع واحداً بعد واحد فتسقطها عن صلاحية التأثير الصالح المرجو من الاجتماع وهو أن يخالط كلٌّ صاحبه ويمازجه في أمن وسلامة بأن يعرفه إنساناً عدلاً سوياً يأنس به ولا يكرهه ولا يستقذره، وأما إذا عرفه بما يكرهه ويعيبه به انقطع عنه بمقدار ذلك وضعفت رابطة الاجتماع فهي كالأكلة التي

تأكـل جثمان من ابتلي بها عضـواً بعد عضو حتى تنتهي إلى بطلان الحياة. والإنسان إنّمـا يعقـد المجتمـع ليعيش فيه بهويـة اجتماعية أعنـي بمنزلـة اجتماعية صالحة لأن يخالطـه ويمـازج فيفيد ويستفاد منه، وغيبته بذكر عيبـه لغيره تسقطه عن هذه المنزلـة وتبطل منه هـذه الهوية، وفيه تنقيص واحد من عـدد المجتمع الصالح ولا يزال ينتقص بشيوع الغيبة حتى يأتي على آخره فيتبدّل الصلاح فساداً ويذهب الأنس والأمن والاعتماد وينقلب الدواء داء [1].

شرح مفردات الآية

- **الغيبة**: ذكر العيب بظهر الغيب على وجه يمنع الحكمة منه [2] بكتابة أو إشارة أو لسـان أو أيا كان. بمعنى أن يذكر مـن الإنسان في ظهر الغيب ما يسوءه لو ذكر به ولذا لم يعدّوا من الغيبة ذكر المتجاهر بالفسق بما تجاهر به.
- **علة تحريم الغيبة**: الغيبة إساءة إلى المغتاب إذ تغضبه إذا سمع وتخلق فيه الضغينـة والعداء لمن اغتابـه، وإساءة إلى المجتمـع الإسلامي السامي، إذ تخلق فيه جوّ اللّا أمـن والفوضى كدراً قذراً، إفشاء للفاحشة في الذين آمنوا فجـرأة جماعية على فعل الفاحشـة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[3]. ففيها تضييع لحق فردي وآخر جماعي، فما أفحشها فاحشة وما أنكاها [4].

المعنى التفصيلي

صـوّر الأسلوب القرآنـي رفض هذا السلوك بطريقة تصويـر تخييلية فظيعة تثير النفور في النفس بصورة عفوية، باعتبارها تجسيداً حيّاً لوحشية هذا التصرُّف الذي يرفضـه الوجدان الإنساني على مستوى الفـرد والجماعة، لإثارة النفور في الوجدان

(1) تفسير الميزان، ج18، ص 324.
(2) تفسير مجمع البيان، الطبرسي، ج9، ص 228.
(3) سورة النور، الآية 19.
(4) الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج 27، ص 251.

العام من ذاك السلوك. ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ﴾. فحبّ الغيبة تفكهاً يضاهي حبّ أكل لحم أخيك الميت، فالنيل من عرضه كأكل لحمه، وهو في غيابه، كأكل لحمه ميتاً أفلا تكرهونه؟ «**فكرهتموه**»: ثالوث الكراهية العريقة في كل أحد وإن كان في أدنى درجات الإيمان، فلم يقل «**فتكرهونه**» كفعل مستقبل، وإنّما «**فكرهتموه**»، كماض، إيحاء بثبات هذه الكراهية: أن يأكل الإنسان لحم أخيه ميتاً، ثباتاً في الفطرة لكل أحد: «**فكرهتموه**»: عافته أنفسكم وإن كنتم جائعين غرثى[1].

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾: المراد بالتقوى هو التجنّب عن هذه الذنوب التي كانوا يقترفونها بالتوبة إلى الله سبحانه فالمراد بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾ أنّ الله كثير القبول للتوبة رحيم بعباده التائبين إليه اللائذين به. فالمراد بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾ أنّ الله كثير الرجوع إلى عباده المتقين بالهداية والتوفيق والحفظ عن الوقوع في مهالك الشقوة رحيم بهم. وذلك أن التوبة من الله توبتان: توبة قبل توبة العبد بالرجوع إليه بالتوفيق للتوبة كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾[2]، وتوبة بعد توبة العبد بالرجوع إليه بالمغفرة وقبول التوبة كما في قوله: ﴿فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ﴾[3].

بحث حول الآية

بشاعة الغيبة:

الغيبة من الأمراض الاجتماعية الفتّاكة التي تقضي على المجتمع وتحوّله إلى أحزاب وفئات متناحرة يأكل بعضها بعضاً، وقد عبّرت بعض الروايات أنّها الآكلة في دين الرجل كالآكلة في جسد الإنسان، ولذلك صوّر القرآن الكريم جريمة الغيبة بصورة بشعة ومقزّزة للنفس لم يصوّر غيرها من المحرّمات بهذه الصورة كما تقدّم.

---

(1) الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج 27، ص 251- 252.

(2) سورة التوبة، الآية 118.

(3) سورة المائدة، الآية 39.

1. الغيبة في الاصطلاح:

الغيبة هي ذكر الإنسان حال غيبته بما يكره نسبته إليه ممّا يعد نقصاً في العرف، بقصد الانتقاص والذم.

أو التنبيه على ما يكره نسبته إليه ممّا يُعدّ نقصاً في العرف، بقصد الانتقاص والذم وهو أعم من الأول، لشمول مورده اللسان والإشارة والحكاية وغيرها لعموم الأدلّة الشاملة للسان وغيره وهذا التعريف قد اختاره الشهيد الثاني وهو الأولى.

2. اتساع نطاق الغيبة:

مع الأسف الشديد إنّ سرطان الغيبة قد انتشر في مختلف طبقات المجتمع وصار يجري فيها كما يجري الدم في العروق، ولم تسلم منه حتى بيوت بعض العلماء ومجالسهم الخاصة فهؤلاء لم يمارسوا السرقة أو الزنا وشرب الخمر ولكن البعض منهم يمارس الغيبة بكل سهولة وبأي مبرّر، وأقصد من هؤلاء البعض الذين قد تلبّسوا بلباس الدين ويعيشون على تسقيط الآخرين؛ هذا الصنف الذين ألّف الشهيد الثاني زين الدين العاملي قدس سره المتوفى 965 هـ بسببهم كتابه (كشف الريبة عن أحكام الغيبة) وقال حول هؤلاء في مقدمة كتابه ما نصّه:

«فلمّا رأيت أكثر أهل هذا العصر ممّن يتّسم بالعلم ويتّصف بالفضل وينسب إلى العدالة ويترشّح للرئاسة يحافظون على أداء الصلوات والدّؤوب في الصيام وكثير من العبادات والقربات ويجتنبون جملة من المحرّمات كالزناء وشرب الخمر ونحوهما من القبائح الظاهرات ثم هم مع ذلك يصرفون كثيراً من أوقاتهم ويتفكّهون في مجالسهم ومحاوراتهم ويغذّون نفوسهم بتناول أعراض إخوانهم من المؤمنين ونظرائهم من المسلمين، ولا يعدّونه من السيئات ولا يحذرون معه من مؤاخذة جبّار السماوات في سبب إقدام الناس على الغيبة والسبب المقدم لهم على ذلك دون غيره من المعاصي الواضحة، إمّا الغفلة عن تحريمه وما ورد فيه من الوعيد والمناقشة

فـي الآيـات والروايات وهذا هو السبـب الأقل لأهل الغفلات، وإمّـا لأنّ مثل ذلك في المعاصـي لا يخـل عرفـاً بمراتبهـم ومنازلهم مـن الرئاسات لخفاء هـذا النوع من المنكر على من يرومون المنزلة عنده من أهل الجهالات، ولو وسوس إليهم الشيطان أن اشربـوا الخمـر أو زنوا بالمحصنات ما أطاعوه لظهـور فحشه عند العلة وسقوط محلّهم به لديهم بل عند متعاطي الرذائل الواضحات ولو راجعوا عقولهم واستضاؤوا بأنوار بصائرهم لوجـدوا بين المعصيتين فرقاً بعيداً وتفاوتاً شديداً بل لا نسبة بين المعاصـي المستلزمة للإخلال بحقّ الله سبحانه علـى الخصوص وبين ما يتعلّق مع ذلـك بحقّ العبيـد خصوصاً أعراضهم فإنّها أجل مـن أموالهم وأشرف ومتى شرف الشـيء عظم الذنـب في انتهاكه مع ما يستلزمه من الفسـاد الكلّي، كما ستقف عليه إن شاء الله، أحببت أن أصنع في هذه الرسالة جملة من الكلام على الغيبة وبما ورد فيها من النهي في الكتاب والسنة والأثر ودلالة العقل عليه وسمّيتها كشف الريبة عن أحكام الغيبة»[1].

3. أقسام الغيبة:

لمَّـا عرفـت أنَّ المراد منهـا ذكر أخيك بما يكرهــه منه لو بلغـه أو الإعلام به أو التنبيه عليه، كان ذلك شاملاً لما يتعلَّق بنقصان في بدنه أو نسبه أو خُلقه أو فعله أو قوله أو دينه أو دُنياه حتى في ثوبه وداره ودابَّته.

وقـد أشار الإمـام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى ذلك بقوله: «**وجوه الغيبة تقع بذكر عيب فـي الخلـق والفعـل والمعاملـة والمذهـب والجهـل وأشباهـه**»[2]. فالبدن كذكرك فيــه العَمَش و... وأمَّا النّسب بـأن يقول أبوه فاسـق أو خبيث أو... وأمـا الخلق بأن يقــول إنّه سيّئ الخلق محيل متكبّر... وأمَّا في أفعالــه المتعلِّقة بالدِّين كقولك سارق

(1) كشف الريبة عن أحكام الغيبة، الشهيد الثاني، في سبب اقدام الناس على الغيبة، ص 3-4.

(2) مستدرك الوسائل، ج9، ص117.

كـذَّاب، مُتهاون بالصلاة،... وأمَّا فعله المتعلِّـق بالدنيا كقولك: قليل الأدب، متهاونٌ بالناسـ،.... وأمَّا في ثوبه كقولـك: إنَّه وسخ الثياب،... واعلم أنَّ ذلك لا يقصر على اللســان بل التلفّظ بـه، إنَّما حُرِّم لأنَّ فيــه تفهيم الغير نقصان أخيـكَ، وتعريفه بما يكرهــه، فالتعريض بـه كالتصريح، والفعل فيــه كالقول، والإشــارة والرمز والإيماء والغمز واللمز والكتابة والحركة، وكلّ ما يُفهم المقصود داخل في الغيبة مساوٍ للسان في المعنى الذي حُرِّم التلفُّظ به لأجله. ومن ذلك المحاكاة بأن يمشي متعارجاً...

وكان رسول الله ﷺ إذا كرِهَ من إنسانٍ شيئاً قال: ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا، ولا يُعيِّــن، ومِن أضرِّ أنــواع الغيبة غيبــة المتّسمين بالفهم والعلــم المرائين، فإنّهم يفهمــون المقصود علــى صفة أهل الصــلاح والتقوى ليظهروا مــن أنفسهم التعفّف عــن الغيبة ويفهمون المقصــود ولا يدرون بجهلهم أنَّهم جمعوا بين فاحشتين: الرِّياء والغيبــة، وذلــك مثل أن يذكر عنــده إنسان فيقــول: الحمد لله الذي لـم يبتلنا بحبّ الرياسة أو حبِّ الدُّنيا، أو بالتكيّف بالكيفيَّة الفُلانيَّة أو بقول نعوذ بالله من قلَّة الحياء أو مــن ســوء التوفيق، أو نســأل الله أن يعصمنا من كذا، بل مجــرَّد الحمد على شيءٍ إذا عُلِــمَ منه اتّصــاف المحدَّث عنه بما ينافيه ونحو ذلك فإنّــه يغتابه بلفظ الدعاء وسمــت أهل الصلاح، وإما قصــده أن يذكر عيبه بضربٍ من الكــلام المشتمل على الغيبة والرياء ودعوى الخلاص من الرذائل، وهو عنوان الوقوع فيها، بل في أفحشها، ومــن ذلــك أنَّه قد يُقدّم مدح مــن يريد غيبته فيقول: ما أحســن أحوال فلان ما كان يُقصّــر في العبــادات ولكن قد اعتراه فتورٌ وابتُلِيَ بما يُبتلى بــه كلّنا وهو قلَّة الصبر، فيذكــر نفسه بالذمّ ومقصوده أن يذمّ غيره وأن يمدح نفسه بالتشبّه بالصالحين في ذمّ أنفسهــم فيكــون مغتاباً مرائيــاً مزكّياً نفسه فيجمع بين ثــلاث فواحش وهو يظنّ بجهله أنَّــه من الصالحين المتعفّفين عن الغيبة، هكــذا يلعب الشيطان بأهل الجهل إذا اشتغلوا بالعلم والعمل من غير أن يتقنوا الطريق فيتبعهم ويحبط بمكائده عملهم ويضحك عليهم ويسخر منهم.

ومـن أقسامهـا الخفيَّة الإصغاء إلى الغيبـة على سبيل التعجُّب، فإنّـه إنّما يظهر التعجُّب ليزيد نشـاط المغتاب في الغيبة فيزيد فيها فكأنّه يستخرج منه الغيبة بهذا الطريـق، فيقول: عجبت ممَّا ذكرته ما كنت أعلـم بذلك إلى الآن ما كنت أعرف من فلان ذلك، يريد بذلـك تصديق المغتاب واستدعاء الزيادة منه باللّطف والتصديق لها غيبة بل الإصغاء إليها بل السكوت عند سماعها [1].

4. حكم المستمع للغيبة:

عن رسول الله ﷺ: «**السامع للغيبة أحد المغتابين**»[2].

ومـراده السَّامع علـى قصد الرِّضا والإيثار لا على وجه الاتّفاق، أو مع القدرة على الإنكار ولم يفعل. ووجه كون المستمع والسامع على ذلك الوجه مغتابين لمشاركتهما للمغتـاب في الرضا وتكيّف ذهنهما بالتصوّرات المذمومـة التي لا تنبغي وإن اختلفا في أنَّ أحدهما قائل والآخر قابل.

عن رسول الله ﷺ: «**مَن رَدَّ الخلائق عن عرض أخيه بالغيب كان حقًّاً على الله أن يَردَّ عن عرضه يوم القيامة**»[3].

مستثنيات حرمة الغيبة:

إذا كان الله قد حرّم الغيبة للأضرار الناجمة عنها على مستوى الفرد والمجتمع، فقـد ذكر الفقهاء بعض الاستثناءات لحرمـة الغيبة وذلك في الموارد التي قد تكون المصلحة فيها في جانب الغيبة أكثر من المفسدة التي تختزنها الحرمة.

ويذكـر الفقهاء نمـاذج من ذلك، منهـا: النصيحة للناس، فقـد يحتاج كثير من الأفـراد والجماعات إلى النصيحة في القضايا المتصلة بالعلاقات العامة والخاصة

(1) ينظر: كشف الريبة عن أحكام الغيبة، ص 13– 15.
(2) مستدرك الوسائل، حسين النوري الطبرسي، ج9، ص 199.
(3) (م.ن).

فــي مسائل الزواج والمشاركــة والمسؤولية، ما قد يفرض الحاجــة إلى التعرف على مواصفــات الأشخاص المعنيين بالموضــوع في عيوبهم الشخصيــة ونقاط ضعفهم العامــة، لتفــادي الوقوع في المشاكــل المستقبلية إذا قــدّر للعلاقــة أن تنشأ معهم، ليكتشفوا العيوب بعد ذلك، فتكون الغيبة في هذه الدائرة أسلوباً وقائياً يمنع المشاكل قبل حدوثها، ويجنّب المجتمع من الوقوع في المهالك المرتقبة.

ومنهــا: حالــة الظلم التي يحتــاج فيها المظلوم إلــى الحديث عــن ظالمه بعيوبه الخفيــة المتصلة بمسألة الظلــم، على رأي بعض، ليرفع الظلم عــن نفسه بذلك، أو فــي مطلق عيوبه، على رأي بعض آخــر، ليملك فرصة الدفاع عن نفسه بالهجوم على ظالمه والضغط على سمعته في نقاط ضعفه، ليتراجع عن ظلمه، أو ليضغط الآخرون فــي ذلــك، وهذا ما نستوحيه من قوله تعالى: لا يُحِبُّ اللّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ، في ما استثناه من كلام المظلوم بالسوء ضد ظالمه.

ومنهــا: الحالات التي قد يكون فيها التستُّر على عيب الشخص مصدر خطر على المجتمــع، لأنّ العيــب قد يؤثّر تأثيراً سلبياً على سلامتــه، كما إذا كان هذا الشخص جاسوســاً خفياً للأعــداء الذين يكيدون للأمــة أو للشخص البــريء، ممّا يجعل من إخفــاء صفته خطراً محقّقاً على سلامة الفــرد أو المجتمع، أو لأنّ إخفاء العيب يؤثّر علــى نفســ صاحبه، باعتبــار أن ظهوره قد يدفعــه إلى إصلاحه، وإلــى تغيير موقفه أو شخصيتــه، فتكــون الغيبة مصدر خيــر له، كما تكون مصــدر سلامة وخير للفرد والمجتمع في الفرضية الأولى.

فمــوارد الاستثنــاء لا تنحصــر في عدد. نعــم، الظاهر استثنــاء موضعين لجواز الغيبة من دون مصلحة:

أحدهمـا: ما إذا كــان المغتاب متجاهراً بالفسق، فإن مــن لا يبالي بظهور فسقه بين النـاس لا يكره ذكره بالفسق. نعم، لو كان في مقام ذمّه كرهه من حيث المذمّة، لكن المذمّة على الفسق المتجاهر به لا تحرم، كما لا يحرم لعنه.

الثاني: تظلُّم المظلوم وإظهار ما فعل به الظالم وإن كان متستّراً به – كما إذا ضربه في الليل الماضي وشتمه، أو أخذ ماله – جاز ذكره بذلك عند من لا يعلم ذلك منه[1].

آثار الغيبة:

إنّ الآثار الوضعية للغيبة تظهر في عالم الدنيا وفي البرزخ ويوم القيامة، ومنها:

1. **إنّ المغتاب يأكل من لحمه يوم القيامة:** روي عن الإمام علي عليه السلام: «**اجتنب الغيبة فإنّها إدام كلاب النار، ثم قال: يا نوف (السائل) كذب من زعم أنه وُلد من حلال وهو يأكل لحوم الناس بالغيبة**»[2]، ولا منافاة بين أن يأكل لحم الميتة أو أن يأكل لحم جسده.
2. **الفضيحة يوم القيامة على رؤوس الأشهاد:** عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**... ومن مشى في غيبة أخيه وكشف عورته كانت أول خطوة خطاها وضعها في جهنّم وكشف الله عورته على رؤوس الخلائق**»[3].
3. **حال المغتاب في عالم البرزخ:** عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**مررت ليلة أسري بي على قوم يخمشون وجوههم بأظافيرهم، فقلت: يا جبرئيل! من هؤلاء، قال: هؤلاء الذين يغتابون الناس ويقعون في أعراضهم**»[4].
4. **الفضيحة في الدنيا:** إنّ بعض مراتب الغيبة يدفع بصاحبها إلى الفضيحة في عالم الدنيا، عن إسحاق بن عمّار، قال: «**سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: يا معشر من أسلم بلسانه ولم يخلص الإيمان إلى قلبه لا تذمّوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم فإنّ من تتبّع عوراتهم تتبّع الله عورته، ومن تتبّع الله عورته يفضحه ولو في بيته**»[5].

---

(1) ينظر: كتاب المكاسب، الشيخ مرتضى الأنصاري، الأمر الثالث: مستثنيات الغيبة، ص 342– 348.
(2) وسائل الشيعة، ج12، ص 283.
(3) كشف الريبة، ص15.
(4) بحار الأنوار، ج 72، ص222.
(5) الكافي، ج2، ص354.

علاج الغيبة[1]:

إنّ علاج هذا المرض الأخلاقي الخطير يحتاج إلى مجاهدة كبيرة، ومتابعة دقيقة، ولا بد من رعاية الأمور التالية للوقاية من الوقوع في هذا المرض أو علاجه:

- أن يُفكّر في الآثار المفيدة التي تترتّب على معالجة هذه الموبقة، ويقارنها مع الآثار السيئة التي تترتب على الغيبة.
- أن يُفكّر ويتأمّل في الروايات التي تحدّثت عن الآثار الغيبية لهذه المعصية.
- أن يُفكّر في الآثار الدنيوية للغيبة كسقوط الإنسان من أعين الناس.
- من الناحية العملية فلا بد من كفّ النفس عن هذه المعصية لبعض الوقت مهما كان صعباً، ولجم اللسان، والمراقبة الكاملة للنفس، ومعاهدة النفس بعدم اقتراف هذه الخطيئة، ومراقبتها، والحفاظ عليها ومحاسبتها.
- معالجة العوامل والأسباب والجذور التي تؤدّي بالشخص أن يرتكب الغيبة، كالحسد والحقد والأنانية وحبّ الانتقام والتكبّر والغرور وأمثال ذلك.
- أن يُفكّر ويستحضر دائماً هذه الحقيقة وهي أنّ الغيبة حقّ الناس لأنها تتسبب في هدم سمعتهم والذهاب بماء وجوههم.

الدروس المستفادة من الآية

1. الإيمان الحقيقي يقتضي أن يتجنّب الإنسان الأفكار السيئة تجاه الآخرين وكل ما من شأنه هتك حرمة المؤمن ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ ...﴾ (سوء الظنّ- التجسُّس-الغيبة).
2. من أجل الابتعاد وعدم الوقوع بالمعصية حتماً، ينبغي الابتعاد والتجنُّب عن كلّ

(1) راجع: الأربعون حديثاً، روح الله الخميني، ص 290، (بتصرّف)، الأخلاق في القرآن، ناصر مكارم الشيرازي، ج 3، ص 91-93 (بتصرّف).

مـا يُحتمل أنــه معصية فينبغي الاجتنــاب عن الكثرة الإفراديــة للظنّ المحتملة المعصيــة بلحــاظ كلّ الأفراد، لكي لا نقــع في بعض أفرادهــا القطعي الحرمة. ﴿ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا .. إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ﴾.

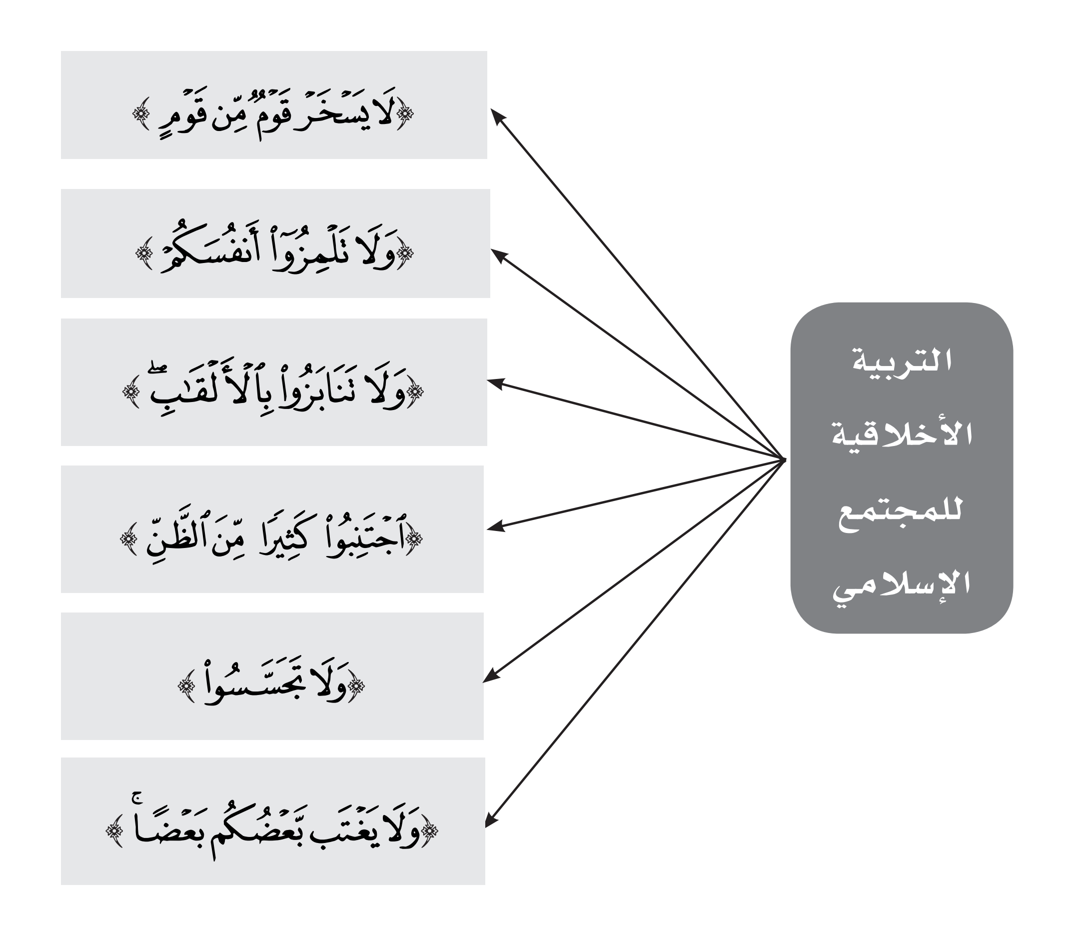
3. في المجتمع الإيماني، الأصل هو الثقة والاعتماد على الآخرين وبرائته حتى يثبت بالدليل القاطع خلاف ذلك ﴿إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ﴾.
4. من أجل الابتعاد عن الغيبة لا بدّ من سدّ كلّ أبواب الغيبة، أيّ كلّ ما يُمهدّ الأرضية لهذه المعصية. ﴿ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ ... وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب﴾.
5. المعصيــة في ظاهرها قد تبدو جميلة ولذيذة ويلتــذّ بارتكابها الإنسان كالغيبة، ولكنّهــا في الباطن والصورة الملكوتية هي من أخبــث الصور ومن أنتن الروائح ومن أبشع الأعمال ﴿يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا﴾.
6. مــن طرق الأمر بالمعروف والنهي عــن المنكر الاستفادة من الأمثلة التي تُحرّك العواطف. ﴿وَلَا يَغۡتَب ... أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ﴾.
7. الغيبــة حــرام لكلّ الأفراد من غير فرق بين صغيــر وكبير ولا بين عرق وعرق ولا بين مقام ومقام فالكلّ حرام. «**لا يَغْتَبْ...أَحَدُكُمْ**» هو شامل للجميع.
8. كما أنّ الميت لا يمتلك قدرة الدفاع عن نفسه فالمستغَاب هكذا من هذه الناحية «**مَيْتاً**».
9. الغيبــة نــوع من الافتراس الذي هو مــن علامات الحيوانــات وبالفعل الذي يقوم بهــذه المعصية فهو يُغلّب قــواه الحيوانية على قواه العقلية. ﴿يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا﴾.
10. طلب التوبة والمعذرة من الله يترافق دائماً مع الرحمة الإلهية. ﴿تَوَّابٞ رَّحِيمٞ﴾.
11. إن قبول التوبة من الله تعالى هو مظهر من مظاهر الرحمة. ﴿تَوَّابٞ رَّحِيمٞ﴾.

ربط الآية (11) و (12) بالمحور:

هـذا المقطع من سورة الحجرات يتضمّن المنهيـات التي لا تتناسب مع أخلاقية المجتمع الإسلامي فينبغي على أفـراد المجتمع اجتناب هذه الرذائل الأخلاقية من سخريـة، ولمز، وتنابـز بالألقاب، وسوء الظنّ، وتجسُّس، وأخيـراً الغيبة. ودعى اللّه تعالى المؤمنين إلى التوبة من هذه الأعمال الشنيعة والموجبة لانفصام عُرى الأخوة بيـن المؤمنيـن وبالعمل بهـذه المنهيات يجانب التقـوى، والابتعاد عنهـا هو التقوى بعينهـا وكمـا هو واضح كل ذلك لا يتم إلا من خـلال التربية الأخلاقية للمجتمع على ضوء سورة الحجرات.

رسالة الآية:

إنّ واقـع أمتنـا الإسلامية هي في أمسّ الحاجة لهـذه الأخلاق الفاضلة والحفاظ علـى حرمات المؤمنيـن، لأنّه في رصد بسيط للأفـراد المجتمع الإسلامي، نرى كم يعانـي هـذا المجتمع من أمراض أصبحـت وللأسف من عاداتـه السلوكية والتي قد لا يستنكرهـا أغلب أفـراده بل يمارسونها على أنّها أمـور مألوفة وطبيعية فالسخرية والاستهـزاء والهمز واللمز والغيبة هي مواد سفرنا واجتماعاتنا ومحادثاتنا وهذا إنْ دلّ علـى شيء فيـدلّ على مدى الانحطاط الأخلاقي فـي المجتمع ممّا يجعله بحاجة إلى علاج هـذه الأمراض المزمنة من خلال التزامه بالمبادىء العظيمة التي جاءت في سورة الحجرات.


التربية الأخلاقية للمجتمع الإسلامي
﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ﴾
﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾
﴿وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ﴾
﴿ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾
﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾
﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾

للمطالعة

رواية جامعة في الغيبة

روي عن الإمام الصادق عليه السلام الغيبة حرام على كلّ مسلم، مأثوم صاحبها في كلّ حال، وصفة الغيبة: أن تذكر أحداً بما ليس هو عند الله عيب أو تذمّ ما تحمده أهل العلم فيه، وأمّا الخوض في ذكر الغائب بما هو عند الله مذموم وصاحبه فيه ملوم فليس بغيبة، وإن كره صاحبه إذا سمع به وكنت أنت معافاً عنه وخالياً منه ويكون في ذلك مبيّناً للحقّ من الباطل ببيان الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم ولكن على شرط أن لا يكون للقائل بذلك مراد غير بيان الحقّ والباطل في دين الله عزّ وجلّ، وأمّا إذا أراد به نقص المذكور بغير ذلك المعنى فهو مأخوذ بفساد مراده وكان صواباً، وإن اغتبت مبلغ المغتاب فاستحلّ منه، فإن لم تبلغه ولم تلحقه فاستغفر الله له. والغيبة تأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب، أوحى الله عزّ وجلّ إلى موسى بن عمران عليه السلام المغتاب هو آخر من يدخل الجنة، إن تاب وإن لم يتب فهو أول من يدخل النار، قال تعالى: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ ووجوه الغيبة تقع بذكر عيب في الخلق والعقل والفعل والمعاملة والمذهب والجهل وأشباهه. وأصل الغيبة متنوّع بعشرة أنواع: 1 - شفاء غيظ. 2 - ومساعدة قوم. 3 - وتهمة. 4 - وتصديق خبر بلا كشفه. 5 - وسوء ظن. 6 - وحسد. 7 - وسخرية. 8 - وتعجّب. 9 - وتبرّم.. 10 - وتزيّن. فإنْ أردت الإسلام فاذكر الخالق لا المخلوق فيصير لك مكان الغيبة عبرة ومكان الإثم ثواباً [1].

(1) مصباح الشريعة ومفتاح الحقيقة، المنسوب للإمام الصادق عليه السلام، في الغيبة، ص 204- 205.

11

التقوى معيار التفاضل

مفاهيم محورية:

- نفي التفاخر في الإسلام.
- نفي العنصرية في الإسلام.
- قيمة التسابق في العمل الصالح.
- وظيفة التقوى في الإسلام.
- تلازم العمل والتقوى.
- موارد التقوى في القرآن.
- الدروس المستفادة من الآية.

النص القرآني

قال الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾.

تمهيد

قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾، والآية استئناف مبيّن لما فيه الكرامة عند الله سبحانه، وذلك أنّه نبّههم في صدر الآية على أنّ الناس بما هم ناس يساوي بعضهم بعضاً لا اختلاف بينهم ولا فضل لأحدهم على غيره، وأنّ الاختلاف المترائي في الخلقة من حيث الشعوب والقبائل إنّما هو للتوصّل به إلى تعارفهم ليقوم به الاجتماع المنعقد بينهم إذ لا يتمُّ ائتلاف ولا تعاون وتعاضد من غير تعرّف، فهذا هو غرض الخلقة من الاختلاف المجعول، لا أن تتفاخروا بالأنساب وتتفاضلوا بأمثال البياض والسواد، فيستعبد بذلك بعضهم بعضاً، ويستخدم إنسان إنساناً، ويستعلي قوم على قوم، فينجرّ إلى ظهور الفساد في البر والبحر وهلاك الحرث والنسل فينقلب الدواء داء. نبَّه سبحانه في ذيل الآية بهذه الجملة أعني قوله: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ على ما فيه الكرامة عنده، وهي حقيقة الكرامة.

شرح مفردات الآية

- **النَّاسُ**: اسـم للجمع من بني آدم، واحـده: إِنْسَانٌ من غيـر لفظه، وقد يراد بـه الفُضلاء دون غيرهـم، مراعاةً لمعنـى الإِنسانيّة، وفـي التنزيل العزيز: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ﴾[1]. إذا راجعنا المعاجم اللغوية نجدها ذكرت استعمالات ومعاني متعدّدة لكلمة «**الناس**». فمن معاني الناس في اللغة الحركـة. كقول أم زرع «**أناسَ من حلي أذني**» يعنـي: أنّ زوجها أكرمها بحلي حتى أنّ هذه الحلي قد ملأت أذنيها فأصبحت هناك حركة لهذه الحلي قالت: أناس يعني: ظهرت حركة من هذه الحلي. ومنها: النسيان. ومنها: الأنس لأنّ بعضنـا يأنس ببعض. منها: الظهور والبروز لأنّنـا نبرز ونظهر، قال عزّ وجلّ عن موسى: ﴿إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾[2] يعني أبصرت ورأيت ناراً قد ظهرت[3].
- **خَلَقْنَاكُمْ**: هو إيجاد شيء على كيفيّة مخصوصة وبما أوجبته إرادته واقتضته الحكمـة. والفرق بين الخلق والإيجـاد والأحداث والإبـداع والتقدير والجعل والاختـراع والتكويـن: أنّ النظر فـي الإيجاد إلـى جهة إبـداع الوجود فقط، وفـي الأحداث إلى الإيجـاد من جهة الحدوث وكونه حادثـاً، وفي الإبداع إلى الإيجاد على كيفيّة لم يسبقها غيرها، وفي الخلق إلى كون الإيجاد على كيفيّة مخصوصـة، وفي الاختراع إلى جهة الاشتقاق بسهولة، وفي التقدير إلى جهة التحديد وتعيين الحدود فقط، وفي التكوين إلى الإيجاد ومن جهة حالة الكون والبقاء إجمالاً، وفي الجعل إلى جهة إحداث تعلُّق وارتباط[4].
- **جَعَلْنَاكُمْ**: إضفـاء حالة وهيئة وتقدير وصيرورة معيّنة على الخلق. ثانياً: تحويل المخلوق من هيئة لأخرى. فالمعنى المحصّل من الجعل هو ما يقرب من التقدير

---

(1) سورة البقرة، الآية 13.
(2) سورة النمل، الآية 31.
(3) التحقيق في كلمات القرآن، ج1، أنس، ص 158، 163.
(4) التحقيق في كلمات القرآن، ج3، خلق، ص 115.

والتقرير والتدبير (ويجمعها تصيير الشيء على حالة) بعد الخلق والتكوين[1].

- **شُعُوبًا وقَبَائِلَ**: الشعوب هو ما ينشعب من أصل نوع الإنسان، كالأسود والأحمر والأبيض والأصفر. الشعوب باعتبار الامتيازات الطبيعيّة الخارجيّة، والقبائل باعتبار الخصوصيّات الحاصلة بالنسب، وهذه الامتيازات لا توجب فضيلة ولا شرفاً في مقاماتهم المعنويّة - ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[2].
- **أَكْرَمَكُمْ**: الأصل في الكرم هو ما يقابل الهوان، كما أنّ العزّة ما يقابل الذلّة، والكبر ما يقابله الصغر. والذلّة هو هوان بإذلال من هو أعلى منه، بخلاف الهوان، فيعتبر في العزّة مفهوم الاستعلاء والتفوّق، بخلاف الإكرام[3].
- **أَتْقَاكُمْ**: وقى: كلمة واحدة تدلّ على دفع شيء عن شيء بغيره، ووقيته أقيه وقياً، والوقاية: ما يقي الشيء. واتّق الله: توقّه، أي اجعل بينك وبينه كالوقاية[4].

المعنى التفصيلي

نفي التفاخر:

التفسير الأول: الآية مسوقة لنفي التفاخر بالأنساب، وعليه فالمراد بقوله: «**من ذكر وأُنثى**» آدم وحوّاء.

على التفسير الأول معنى الآية: أَنَّا خلقناكم من أب وأُمّ تشتركون جميعاً فيهما من غير فرق بين الأبيض والأسود والعربي والعجمي وجعلناكم شعوباً وقبائل مختلفة لا لكرامة لبعضكم على بعض بل لأن تتعارفوا فيعرف بعضكم بعضاً ويتم بذلك أمر اجتماعكم فيستقيم مواصلاتكم ومعاملاتكم فلو فرض ارتفاع المعرفة من بين

(1) التحقيق في كلمات القرآن، ج2، جعل، ص 89.
(2) التحقيق في كلمات القرآن، ج6، شعب، ص 68.
(3) التحقيق في كلمات القرآن، ج10، كرم، ص 47.
(4) التحقيق في كلمات القرآن، ج13، وقى، ص 184.

أفـراد المجتمع انفصم عقـد الاجتماع وبادت الإنسانية، فهـذا هو الغرض من جعل الشعوب والقبائل لا أن تتفاخروا بالأنساب وتتباهوا بالآباء والأمهات.

التفسير الثاني: وقيل: المراد بالذكر والأنثى مطلق الرجل والمرأة، والآية مسوقة لإلغـاء مطلق التفاضل بالطبقات كالأبيض والأسـود والعرب والعجم والغني والفقير والمولى والعبد والرجل والمرأة.

وعلـى الثاني معنى الآية: يـا أيها النـاس إنا خلقناكم من رجـل وامرأة فكل واحد منكـم إنسان مولـود من إنسانين لا تفترقـون من هذه الجهـة، والاختلاف الحاصل بالشعـوب والقبائل – وهو اختـلاف راجع إلى الجعل الإلهي – ليـس لكرامة وفضيلة وإنّما هو لأن تتعارفوا فيتمّ بذلك اجتماعكم.[1]

1. قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾:

فيـه تأكيـد لمضمون الآية وتلويح إلـى أنّ الذي اختاره الله كرامـة للناس كرامة حقيقيـة اختارها الله بعلمه وخبرته بخلاف ما اختاره الناس كرامة وشرفاً لأنفسهم فإنّها وهمية باطلة فإنّهـا جميعاً من زينة الحياة الدنيا قال تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾[2]. وفـي الآيـة دلالـة على أن من الواجـب على النـاس أن يتّبعوا في غايات الحيـاة أمر ربّهم ويختـاروا ما يختاره ويهدي إليه وقـد اختار لهم التقوى كما أنّ من الواجب عليهم أن يختاروا من سنن الحياة ما يختاره لهم من الدين [3].

2 . قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾:

النـداءات التي تكرّرت في الآيات السابقة كانت بلفظ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وفي هذه الآية الكريمة جاء الخطاب بلفظ (أيها الناس). والسبب في تبديل الخطاب هو:

(1) تفسير الميزان، ج18، ص 226.

(2) سورة العنكبوت، الآية 64.

(3) تفسير الميزان، ج18، ص 227.

أوّلاً: هـو تعقيـب عام على هذه الأحكـام وتلك الآداب، التي كانـت خطاباً للذين آمنــوا، ليرتّلوهــا، ويأخذوا أنفسهم بها.. وليس هــذا فحسب، بل إنّ عليهم أن يراعـوا هــذه الأحكام وتلك الآداب مع غير المؤمنيــن.. مع الناس جميعاً، من كـلّ أمّـة، ومن كلّ دين.. إنّهـا أخلاق إنسانية، يجب أن تكـون طبعاً وجبلّة فى المؤمــن، يعيش بها فى الحياة كلّها، ومــع الناس جميعاً، فلا تكون ثواباً يلبسه مــع المؤمنين، حتى إذا كان مع غير المؤمنين نزعه فإنّه بهذا إنما ينزع كمالاً خلعه اللّه عليه، و يتعرّى من جلال كساه اللّه إياه..[1]

ثانيـاً: الخطـاب هو للإنسانية جمعــاء، فإنّ كلّ الناس لهـم مرجعية واحدة وهم خلقــوا من ذكر وأنثى ولا تفاضل بينهم مــن هذه الجهة أصلاً، وهذا يدلّ على الوحـدة الإنسانية وهي قاعدة مهمة في فهم كـل التشريعات الإسلامية فأنتم أيّهــا الناس- مؤمنين وغير مؤمنين- إخوة فــى الإنسانية. كما كان المؤمنون إخوة في الإيمــان. بناء على هذه القاعدة فإنّ علاقة المؤمنين بغيرهم ينبغي أن تقــوم علــى أساس هذه الوحدة الإنسانية، فلا يجــوز أن يتعالى العرب على العجــم منهم بلغتهم أو عنصرهم، لأن هذه العقيدة الجاهلية ستُشكّل حاجزاً دون دخول سائر الشعوب في دين اللّه.

تنفي العنصرية:

هذه الآية الكريمة تهدينا إلى الأمور التالية:

أوّلاً: إلــى مشروعية هذه التقسيمات الطبيعية وأنّها- في الأساس- نافعة، وعلينا أن نُعيدهــا الى طهرها، بعيداً عن كل ألــوان العصبية والتعالي لنجني ثمارها الطيبة. وهذا ما يدعو اليه الإسلام كما جاء في النصوص الدينية من ضرورة صلة الرحم والتواصل مع العشيرة وما شابه ذلك.

(1) التفسير القرآني للقرآن، ج13، ص 454.

ثانياً: أنّ التعارف بين الناس واحد من أهم مقاصد الشريعة الغرّاء، لماذا؟. لأنّه لـولا معرفـة الناس لما اكتملت حكمة الابتلاء في الخلق؟ أو لأنّ الابتلاء لا يتم إلا بالحرية والمسؤوليـة فلو اختلط الناس ببعضهم كيف يميز الصالح فيثاب عـن المجـرم فيعاقب؟ أم كيف تتراكـم مكاسب المحسنيـن وتحصّن من أن يسرقهـا الكسالى والمجرمون؟ كلا. لا بـدّ أن يُميَّز الناس عن بعضهم تمييزاً كافيـاً ليأخذ كلّ ذي حقٍّ حقّه، فيشجعه ذلـك على المزيد من العطاء، ويأخذ التنافس دوره في دفع عجلة الحياة قدماً الى الامام.

ثالثاً: إنّ حكمة الاختلاف هو التكامل- بعد التنافس على الخيرات- وليس الصراع والتطاحن، وقد قال ربنـا سبحانه: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾[1] ومن دون التعارف كيف يتمّ التعاون، إنّ على الناس أن يكتشفوا إمكانات بعضهم ليتبادلوا الخيرات، أما إذا تقوقعت كلّ طائفة في حدودها الجغرافية أو الاجتماعية ولم يتعارفوا فكيف يمكن التعاون بينهم؟.

قيمة التسابق على العمل الصالح:

ونفهـم من هذه الآيـة: إنّ التنافس على العمل الصالـح والتسابق في الخيرات هو هدف اختلاف الشعوب، وإن لكلٍّ منهم شرعة ومنهاجاً، بل إنّ هذا الاختلاف والتنوّع مطلـوب إذا كـان وسيلة للتنافس البنّـاء، والتعارف والتعاون، كمـا أنّ الاختلاف بين الناس في مجتمع واحد هدفه التسارع الى الخيرات، والتعاون فيها، كذلك التفرع بين الشعوب والمجتمعات المتنوّعة أليـس يقول ربّنا سبحانه: ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾[2]. وإذا كـان الهـدف مـن هـذا التنـوّع التسارع في الخيرات، فإنّ أكرم الخلق عند الله من استبق إليها، فالأقرب إلى

(1) سورة المائدة، الآية 2.

(2) سورة الزخرف، الآية 32.

الصراط المستقيم، والأسبق في الصالحات هو الأكرم، لأنّه الذي يُحقّق الهدف دون غيره، وإلى هذه تشير كلمة التقوى.. أليست التقوى هي المعرفة بالله والعلم بشريعته، والاجتهاد في تنفيذها؟. وأصل الكلمة من الوقاية، أي التحصّن ضدّ أسباب الهلاك ولا تحصل هذه الوقاية من دون معرفة الطريق والاستقامة عليه، بعيداً عن أمواج الفتن، وضغوط الهوى ورياح الشهوات، لذلك كانت التقوى أرفع درجة من الإيمان، كما إنّ الإيمان أرفع درجة من الإسلام كما سيأتي. وإنّما رفع الإسلام قواعد المجتمع الفاضل على أساس التقوى، لأنّه من دونها تُمزّق العصبيات الجاهلية التجمّع البشري، ولا تدعه يتكامل، بل في كثير من الأوقات يتقابل مع بعضه، ويسير في طريق الهدم.

قال الله سبحانه: ﴿ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾[1].

إنّ كلمة التقوى هي صبغة التجمّع الإيماني ومحوره، وعماد تماسكه، ومبعث قوّته، بينما العصبيات الجاهلية هي صبغة سائر المجتمعات غير الإيمانية.. وحين حارب الإسلام هذه العصبيات استطاع أن يصهر المجتمع الجاهلي المتشرذم في بوتقة التوحيد، ويبني منه تلك الحضارة التي لم يشهد التاريخ لها مثيلاً[2].

وظيفة التقوى في الإسلام:

1. **حقيقة التقوى:** التقوى من الوقاية بمعنى: التوقّي. وفي عرف المتشرّعة يقصد بها: التوقّي من عذاب الآخرة، أو من غضب الرحمن، أو من الابتعاد عن الله تعالى أو ما إلى ذلك.

ويستفاد من مجموع الآيات القرانية أنّ التقوى هي الإحساس بالمسؤولية والتعهّد

(1) سورة الفتح، الآية 26.

(2) ينظر: من هدى القرآن، ج13، ص 436 - 437 - 438.

الذي يحكم وجود الإنسان وذلك نتيجة لرسوخ إيمانه في قلبه حيث يصدّه عن الفجور والذنب ويدعوه إلى العمل الصالح والبرّ ويغسل أعمال الإنسان من التلوّثات ويجعل فكره ونيته في خلوص من أية شائبة. وحين نعود إلى الجذر اللغوي لهذه الكلمة نصل إلى هذه النتيجة أيضاً لأنّ «**التقوى**» مشتقة من «**الوقاية**» ومعناها المواظبة والسعي على حفظ الشيء، والمراد في هذه الموارد حفظ النفس من التلوّث بشكل عام، وجعل القوى تتمركز في أمور يكون رضا الله فيها.

2. **مراتب التقوى:** وقد قسّمها العلامة المجلسي (رض) إلى ثلاث مراتب:

- حفظ النفس من «**العذاب الخالد**» عن طريق تحصيل الاعتقادات الصحيحة.
- تجنُّب كلّ إثم وهو أعمّ من أن يكون تركاً لواجب أو فعلاً لمعصية.
- التجلُّد والاصطبار عن كلّ ما يشغل القلب ويصرفه عن الحقّ، وهذه تقوى الخواص بل خاص الخاص.

واستظهر أن يكون المقصود بالتقوى في الروايات التي جعلتها فوق الإيمان وجعلت اليقين أعلى منها: المعنى الثاني؛ إذ لو كان المقصود هو الأوّل لمّا صحّ جعلها فوق الإيمان، ولو كان المقصود الثالث لأشكل الفرق عن اليقين وكون اليقين فوقه. ثمّ قال: لكن درجات المرتبة الأخيرة ـ أيضاً ـ كثيرة، فيمكن حمل اليقين على أعلى درجاتها، فيجتمع مع تفسير التقوى بالمعنى الثالث أيضاً.

نماذج من موارد التقوى في القرآن:

إنّ القرآن جعل التمايز الأكبر بين البشر هو للتقوى، وعدّها معياراً لمعرفة القيم الإنسانية فحسب!.والعناوين التي تحدّثت عنها الآيات عن التقوى كثيرة منها:

1. **خير الزاد:** عدها خير الزاد إذ يقول: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[1].

---

(1) سورة البقرة، الآية 197.

2. **اللباس:** فقد عبّر عنها باللباس: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾[1].

3. **أسس الدعوة:** كما أنّه عبّر عنها في آيات آخرى بأنّها واحدة من أول أسس دعوة الأنبياء.

4. **نسبها الله الى نفسه:** ويسمو بها في بعض الآيات إلى أن يُعبّر عن الله بأنه أهل التقوى فيقول: ﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾[2].

5. **التقوى باب العلم:** والقرآن يعدّ التقوى نوراً من الله، فحيثما رسخت التقوى كان العلم والمعرفة إذ يقول: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[3].

6. **التقوى والبر:** ويقرن التقوى بالبر في بعض آياته فيقول: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰۖ ﴾. أو يقرن العدالة بالتقوى فيقول: ﴿ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۖ ﴾[4].

يعدّ القرآن كلّ عمل ينبع من روح الإيمان والإخلاص والنية الصادقة أساسه التقوى، كما جاء في وصفه في شأن «**مسجد قبا**» في المدينة حيث بنى المنافقون في قباله «مسجد ضرار» فيقول: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ ﴾[5].

تلازم العمل والتقوى:

عَنْ مُفَضَّلِ بْنِ عُمَرَ قَالَ كُنْتُ عِنْدَ أَبِي عَبْدِ الله عليه السلام فَذَكَرْنَا الأَعْمَالَ فَقُلْتُ: أَنَا مَا أَضْعَفَ عَمَلِي فَقَالَ: «**مَه اسْتَغْفِرِ الله ثُمَّ قَالَ لِي إِنَّ قَلِيلَ الْعَمَلِ مَعَ التَّقْوَى**

(1) سورة الأعراف، الآية 26.
(2) سورة المدثر، الآية 56.
(3) سورة البقرة، الآية 282.
(4) سورة المائدة، الآية 8.
(5) سورة التوبة، الآية 108.

خَيْـرٌ مِـنْ كَثِيرِ الْعَمَلِ بِلَا تَقْوَى، قُلْتُ: كَيْفَ يَكُـونُ كَثِيرٌ بِلَا تَقْوَى؟ قَالَ: نَعَمْ مِثْلُ الرَّجُلِ يُطْعِمُ طَعَامَه ويَرْفُقُ جِيرَانَه ويُوَطِّئُ رَحْلَه» كناية عن كثرة الضيافة وقضاء حوائـج المؤمنين بكثرة الوارديـن إلى منزله «**فَإِذَا ارْتَفَعَ لَه الْبَابُ مِـنَ الْحَرَام دَخَلَ فِيه فَهَذَا الْعَمَلُ بِلَا تَقْوَى ويَكُونُ الآخَرُ لَيْسَ عِنْدَه فَإِذَا ارْتَفَعَ لَه الْبَابُ مِنَ الْحَرَامِ لَمْ يَدْخُلْ فِيه**»[1].

وقد بيّن القرآن الكريم هذه الحقيقة وهي أنّ العمل يُتقبّل من المتقين، ومن يسلب صفة التقوى لا يُقبل عمله قلّ أم كثر فلا عبرة بذلك قال تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِ قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾[2].

واعلـم أنّ الصــادق عَلَيْهِ السَّلَامُ سُئل عن تفسير التقوى فقال عَلَيْهِ السَّلَامُ: أن لا يفقدك الله حيث أمرك ولا يراك حيث نهاك. وهذا هو بعينه قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ في أول الباب: ولكن ذكر الله عندما أحلّ وحرّم، فإن كان طاعة عمل بها، وإن كان معصية تركها. وهذا هو حدّ التقوى وهي العدّة الكافية في قطع الطريق إلى الجنة، بل هي الجنة الواقية من متالف الدنيا والآخرة، وهي الممدوحة بكل لسان. والمشرِّفة لكلّ إنسان، ولقد شُحن بمدحها القـرآن، وكفاهـا شرفـاً قولـه تعالـى: ﴿وَلَقَدۡ وَصَّيۡنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَإِيَّاكُمۡ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ﴾[3] ولـو كان في العالم خصلة أصلح للعبد وأجمع للخير وأعظم فــي القدر، وأنجـح للآمال من هذه الخصلة التي هي التقوى لكان الله سبحانه أوصى بهــا عباده لمكان حكمتــه ورحمته، فلما أوصــى بهذه الخصلة الواحــدة جمع الأولين وآخرين واقتصر عليها علم أنها الغاية التي لا يتجاوز عنها ولا مقتصر دونها.

---

(1) الكافي، ج2، باب الطاعة والتقوى، ح 7، ص 76.

(2) سورة المائدة،الآية27.

(3) سورة النساء، الآية 131.

الدروس المستفادة من الآية

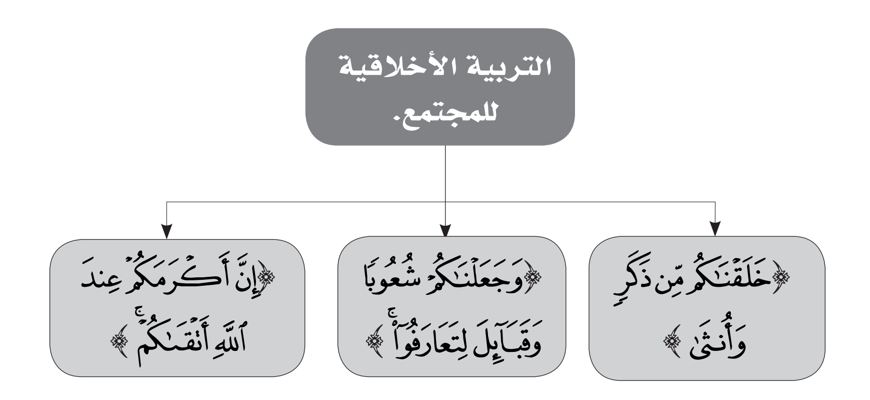
1. الذكـورة والأنوثة والأعـراق والقبائل وما شابه ذلك ليست مـورد افتخار وتفاضل بين الناس «**خلقنا، جعلنا**».
2. إنّ الحكمـة مـن خلق البشر مختلفين في الأجناس والأعـراق والألوان واللغات هو التعارف لا التفاخر. ﴿لِتَعَارَفُوٓاْۚ﴾.
3. إنّ الكرامة الظاهرية التي يكتسبها الإنسان في المجتمع من خلال بعض العناوين الاجتماعيـة هي زائلة لا محالة ولا ثبات لها، إنّما العبرة بالكرامة الحقيقية التي يكتسبها الإنسان عند الله تعالى ومدى قربه منه. ﴿أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ﴾.
4. القرآن الكريم لا يعترف بأي تميُّز عنصري أو قبلي أو اقتصادي أو ثقافي أو اجتماعي أو فكري أو سياسي بل يعتبر كل هذه الأمور وغيرها ليست مورداً للتمايز والتفاضل، إنّما ملاك التمايز والتفاضل عنده هو التقوى. ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾.
5. إنّ التمايـز موجود في الفطرة الإنسانية والقرآن الكريم حدّد المسار التصاعدي لهذا التمايز الفطري بالتقوى. ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾.
6. لا يمكن ادعاء التقوى لأنّه حالة باطنية تتجسّد بالأعمال الصالحة، لأنّ الله ﴿عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾.

ربط آية التقوى بالمحور:

إنّ المقطع السابق تضمّن المنهيات التي لا تتناسب مع أخلاقية المؤمن والمجتمع الإيمانـي، وهذه الآية الكريمة دعت إلى التقوى وجعلته المعيار الأساس للتفاضل بين البشـر، وبيّنت أنّ أصل البشر واحد وهـو الإنسانية، فترك المنهيات السابقة والعمل يمـا يوجب التقوى هو الذي يُجسّد الأخـلاق في مجتمعنا الإسلامي وهذا ما دعت له سورة الحجرات في كلّ آياتها.

رسالة آية التقوى:

إنّ على الناس أن يتقرّبوا إلى اللّه تعالى كما يريد وذلك من خلال العمل الصالح في المجتمع وأن يسارعوا إلى عمل ما يُقرّبهم من اللّه تعالى وأن يعلموا أنّ الأساس في علاقتهم مع بعضهم بعضاً هو تقوى اللّه وأن لا يتفاخروا ويتفاضلوا بالأعراق والأجناس والألوان والتي لا قيمة لها عند اللّه تعالى لأن ﴿أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾.



℘ للمطالعة:

أهمية التقوى

قد لاحظت من خلال التدبّر في القرآن والروايات أخيراً أنّ المعيار الذي تؤكّد عليه الآيات والروايات أكثر من أيّ شيء آخر -حتّى من الإسلام نفسه- هو مسألة التقوى، فالتقوى هي التي تُرشد الناس- منذ بداية تديُّن الفرد أو المجتمع- إلى قبول دين الحقّ والاستجابة للأوامر الإلهية؛ ولذا يصف الباري عزّ وجلّ القرآن الكريم بأنّه ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

ومن البديهي أنّ الإنسان عندما يريد الاجتناب عن شيء ما فإنّ اجتنابه ذلك مستند على أصول ومعايير معيَّنة ومرتكز على مبنى فكرياً يؤمن به؛ ولهذا قد تجد إنساناً آخر -واستناداً إلى مبنى فكري آخر- لا يكتفي بعدم الاجتناب عن ذلك الشيء بل يمارسه وينجذب إليه، إذن فالمبنى الذي تستند إليه التقوى عند الإنسان المتديّن هو الدين. والتقوى الدينية تعني أنّ الإنسان أينما حلّ يجب عليه أن يكون مراقباً لنفسه لكي يصونها من الانحراف عن الطريق الصحيح، ويجب أن تكون تلك المراقبة شاملة لجميع الأعمال التي يمارسها الإنسان ولا سيّما الأعمال المهمة والأمور التي تعتبر معالِمَ في حياة الناس، وبالإخص لمسؤولي الدولة فيما يمارسونه من أمور ترتبط بإدارة شؤون البلاد.

فيجب على الإنسان رعاية الموازين الدينية في جميع تلك الشؤون، أن يرى ما هي الأمور التي تنسجم مع الأسس الدينية وتجلب رضا الله سبحانه وتعالى، فيأخذ بها من دون أي مجاملة، ويلاحظ الأمور المخالفة لرضا الباري عزّ وجلّ فيتركها، هذا هو المعيار الأساس[1].

---

(1) من كلمة للإمام الخامنئي دام ظله، ألقاها بتاريخ 22 ربيع الأول 1415هـ.ق.

12

الأعراب والصادقون

مفاهيم محورية:

- حقيقة الإيمان والإسلام.
- الفرق بين الإيمان والإسلام.
- تحقيق حول مراتب الإسلام والإيمان.
- من هم الأعراب؟
- قيمة العلاقة بالصادقين.
- اتباع الصادقين وبناء المجتمع الفاضل.

النص القرآني

قال الله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾.

تمهيد

كان الكلام في الآية المتقدّمة عن معيار القيم الإنسانية أي التقوى، وحيث إنّ التقوى ثمرة لشجرة الإيمان، الإيمان النافذ في أعماق القلوب، ففي الآيتين الآنفتين بيان لحقيقة الإيمان إذ تقول الآية الأولى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ﴾.

وطبقاً لمنطوق الآية فإنّ الفرق بين «**الإسلام**» و«**الإيمان**» في أنّ: الإسلام له شكل ظاهري قانوني، فمن تشهّد بالشهادتين بلسانه فهو في زمرة المسلمين وتجري عليه أحكام المسلمين. أمّا الإيمان فهو أمر واقعي وباطني، ومكانه قلب الإنسان لا ما يجري على اللسان أو ما يبدو ظاهراً! الإسلام ربّما كان عن دوافع متعدّدة ومختلفة بما فيها الدوافع الماديّة والمنافع الشخصية، إلّا أنّ الإيمان ينطلق من دافع معنوي،

ويسترفـد من منبـع العلم، وهو الذي تظهر ثمرة التقـوى اليانعة على غصن شجرته الباسقة!.

﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ﴾ إذ الإيمان تصديق مع ثقة وطمأنينة قلب، ولم يحصـل لكـم وإلا لمّا مننتم على الرسول بالإسلام وتـرك المقاتلة كما دلّ عليه آخر السـورة ﴿وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا﴾ فـإن الإسلام - الَّـذي هو انقياد - دخـول في السلم وإظهار الشهادة. وترك المحاربة يشعر به.

شرح مفردات الآية

- **الْأَعْرَابُ: العـرب**: اسـم جنـس كالعجـم، وإذا نسب اليه بيـاء النسبة يقال عربـيّ كالعجميّ والأعجمـيّ، فيدلّ على الإفراد. والأعـراب: في الأصل جمع عـرب، ثـمّ يطلق على البدويّين، فـإنّ الجمع فيه دلالة علـى التكثير والأفراد المختلفـة المجتمعـة، وهـذا يـلازم تحقيـراً وتعميماً فـي قبـال التشخّص والتعـزّز والاختصاص. وفي الواحد يلحقه ياء النسبة، فيقال أعرابيّ، أي من ينسـب إلى الأعراب. فالمراد هنا من الأفراد معنـاه اللغوي لا الاصطلاحيّ. ﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾[1]. ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾[2]. ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾[3]. ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا﴾[4]. يراد الأفـراد العامّة الَّتى لا امتياز لهم ولا خصوصيّة ولا شخصيّة، وليس مخصوصاً بالبدويّين[5].

---

(1) سورة التوبة، الآية 9.
(2) سورة التوبة، الآية 97.
(3) سورة التوبة، الآية 98.
(4) سورة التوبة، الآية 120.
(5) التحقيق في كلمات القرآن، ج8، عرب، ص 75.

- **أَمَنَّـا: الأصـل الواحـد في مـادة «أمن» فـي أي معنى استخدمـت هو«الأمن والسكـون ورفـع الخوف والوحشة والاضطراب. يقـال: أمن يأمن أمنا، أي اطمـأنّ وزال عنـه الخوف، فهـو آمن، وذاك مأمون، ومأمـون منه، والأمانة مصـدر ويطلق على العيـن الخارجيّ الّذى يتعلّق بـه الأمن كالوديعة فهي مـورد الأمن والمأمون عليهـا. والآمن هو المطمئنّ وبلدة آمنة إذا لم تكن فيها خوف ولا وحشة.»**[1].

- **أَسْلَمْنَا:** الإسلام عبارة عن جعل شيء سلمًا أي موافقاً متلائماً لا يبقى خلاف ولا تـرى جهة مغايـرة ومنافرة. وللإسلام مراتـب: الأوّل إسلام في الأعمال الظاهريّـة وفي الأركان البدنيّـة والجوارح والأعضـاء الجسمانيّة، كما في:. ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾[2].

- **قُلُوبِكُـمْ: قلب:** أصلان صحيحـان، يدلّ أحدهما على خالص شيء وشريفه، والآخر على ردّ شيء من جهة إلى جهة، فالأوّل - القلب، قلب الإنسان وغيره، لأنّـه أخلص شيء فيه وأرفعه، وخالص كلّ شيء وأشرفه قلبه. والأصل الآخر - قلبـت الثوب قلبا. والقلب: انقلاب الشفة، وهي قلبـاء، وصاحبها أقلب [3]. الأصـل الواحد في المادّة: هو التحوّل المطلق في مـادّيّ أو معنويّ، زمانيّ أو مكانيّ أو في حالة أو في صفة أو في موضوع [4].

- **لَا يَلِتْكُـمْ: ليـت يقـال:** لَاتَه عن كذا يَلِيتُه: صرفه عنـه، ونقصه حقّاً له، لَيْتاً. قـال تعالـى: ﴿لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَـٰلِكُمْ شَيْـًٔا﴾ أي: لا ينقصكم من أعمالكم، لات وألَاتَ بمعنى نقص، وأصله: ردّ اللَّيِت، أي: صفحة العنق [5].

---

(1) راجع: التحقيق في كلمات القرآن الكريم، حسن المصطفوي،ج1، ص 151.
(2) التحقيق في كلمات القرآن الكريم، حسن المصطفوي،ج5، سلم، ص 187- 188.
(3) معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكريا (ابن فارس)،ج5، ص 17.
(4) التحقيق في كلمات القرآن الكريم، ج9، قلب، ص 303.
(5) مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، ليت، ص 749.

- **يَرْتَابُوا**: ريب: أصيل يدلّ على شكّ، أو شكّ وخوف [1]. الفرق بين الشكّ والارتياب: أنّ الارتياب شكّ مع تهمة، والشاهد أنّك تقول إنّى شاكّ اليوم في المطر، ولا يجوز أن تقول إنّى مرتاب بفلان: إذا شككت في أمره واتّهمته[2]. الأصل الواحد في هذه المادّة: هو التوهّم مع الشكّ، والتوهّم هو التخيّل والتصوّر والتمثّل مأخوذاً من أمور مشاهدة محسوسة أو معقولة، وهو يلازم الشكّ أو الظنّ، وعلى هذا فهو لا يقبل الاعتماد والاستناد إليه. ومن يطمئنّ عليه: يذمّ عند العقلاء. والتوهّم في مقابل اليقين والتصديق والتحقيق، ولا ينتج من الحقّ شيئاً. وبناء على هذا، فلا توجد الريبة في الله عزّ وجلّ وفي أسمائه وصفاته وأفعاله، ولا في مراتب تكوينه وخلقه، ولا في ما يظهر من جانبه كالوحي والإلهام والرسالة والأحكام الالهيّة والكتب المنزلة[3].
- **وَجَاهَدُوا**: هو بذل الطاقة والسعي البليغ إلى أن ينتهي النهاية الممكنة ويبلغ غاية وسعه. ثمّ إنّ الاجتهاد إمّا بالمال أو بالبدن والأعضاء أو بالفكر، وكلّ منها إمّا في سبيل الله تعالى أو في طرق دنيويّة وأغراض شخصيّة. فالمجاهدة هو إدامة الجهد، والاجتهاد هو الجهد بالطوع والرغبة. ﴿يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[4]، ﴿وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِۦ﴾[5]، ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾[6]، ﴿وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾[7] [8].

(1) معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكريا (ابن فارس)، ج2، ص 463.
(2) الفروق، أبو هلال العسكري، الفرق بين الشكّ والارتياب، ج1، ص 107.
(3) التحقيق في كلمات القرآن الكريم، ج4، ريب، ص 292. (بتصرف).
(4) سورة المائدة، الآية 54.
(5) سورة التوبة، الآية 24.
(6) سورة النساء، الآية 95.
(7) سورة الأنفال، الآية 72.
(8) التحقيق في كلمات القرآن الكريم، ج2، جهد، ص 128.

- **سَبِيلِ: سبل:** هو إرسال شيء بالتطويل، كما في إسبال المرأة ذيلها، وإسبال الثوب، وإسبال الشعر، وإسبال الماء، وإسبال الستر، وإسبال السحاب، وإسبال المطر. والسبيل هو ما يمتدّ ويرسل ويسبل من نقطة، فهو الطريق السهل الطبيعيّ الممتدّ الموصل إلى نقطة مقصودة، ماديّة أو معنويّة[1].
- **الصَّادِقُونَ: صدق:** أصل يدلّ على قوّة في شيء قولاً وغيره. من ذلك الصدق: خلاف الكذب، سمّي لقوّته في نفسه، ولأنّ الكذب لا قوّة له، هو باطل، وأصل هذا من قولهم – شيء صدق أي صلب ورمح صدق. الأصل الواحد في هذه المادّة: هو التماميّة والصحّة من الخلاف والكون على حقّ[2].

المعنى التفصيلي

الإيمان:

1. **الإيمان والإسلام:** الآية الكريمة نفت الإيمان عنهم وأوضحت بأنّه لم يدخل في قلوبهم بعد وأثبت لهم الإسلام، ويظهر من خلال هذه المقارنة أنّه هناك فرق بين الإيمان والإسلام، بأنّ الإيمان معنى قائم بالقلب من قبيل الاعتقاد، والإسلام أمر قائم باللسان والجوارح، فإنّه الاستسلام والخضوع لساناً بالشهادة على التوحيد والنبوة وعملاً بالمتابعة العملية ظاهراً سواء قارن الاعتقاد بحقية ما شهد عليه وعمل به أو لم يقارن، وبظاهر الشهادتين تُحقن الدماء وعليه تجري المناكح والمواريث، وسيأتي تفصيل البحث حول الإيمان والإسلام.
2. **إطاعة الله ورسوله قوام حقيقة الإيمان:** المراد بالإطاعة الإخلاص فيها بموافقة الباطن للظاهر من غير نفاق، وطاعة الله استجابة ما دعا إليه من اعتقاد وعمل، وطاعة رسوله تصديقه واتباعه فيما يأمر به فيما له الولاية عليه

---

(1) التحقيق في كلمات القرآن الكريم، ج5، سبل، ص 44.
(2) التحقيق في كلمات القرآن الكريم، ج6، صدق، ص 215.

مــن أمور الأمة، والمراد بالأعمال جزاؤها المراد بنقص الأعمال نقص جزائها. والمعنى: وإن تطيعوا الله فيما يأمركم به من اتباع دينه اعتقاداً، وتطيعوا الرسول فيما يأمركم به لا ينقص من أجور أعمالكم شيئاً، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ تعليل لعدم نقصه تعالى أعمالهم إن أطاعوه ورسوله[1].

3. **صفات صادقي الإيمان:** قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ تعريف تفصيلي للمؤمنين بعد ما عرفوا إجمالاً بأنّهم الذين دخل الإيمان في قلوبهم كما هو لازم قوله: ﴿لَّمْ تُؤْمِنُواْ﴾ و ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْۖ﴾. فقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ فيه قصر المؤمنين في الذين آمنوا بالله ورسوله إلخ، فتفيد تعريفهم بما ذكر من الأوصاف تعريفاً جامعاً مانعاً فمن اتصف بها مؤمن حقاً، كما أنّ من فقد شيئاً منها ليس بمؤمن حقاً. والإيمان بالله ورسوله عقد القلب على توحيده تعالى وحقية ما أرسل به رسوله وعلى صحة الرسالة واتباع الرسول فيما يأمر به. وقوله: ﴿ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ﴾ أي لم يشكوا في حقية ما آمنوا به وكان إيمانهم ثابتاً مستقراً لا يزلزله شك، والتعبير بثم دون الواو- كما قيل- للدلالة على انتفاء عروض الريب حيناً بعد حين كأنّه طري جديد دائماً، فيفيد ثبوت الإيمان على استحكامه الأوّلي ولو قيل: ولم يرتابوا كان من الجائز أن يصدق مع الإيمان أولاً مقارناً لعدم الارتياب مع السكوت عما بعد. وقوله: ﴿وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ المجاهدة بذل الجهد والطاقة وسبيل الله دينه، والمراد بالمجاهدة بالأموال والأنفس العمل بما تسعه الاستطاعة وتبلغه الطاقة في التكاليف المالية كالزكاة وغير ذلك من الإنفاقات الواجبة،

---

(1) تفسير الميزان، ج18، ص 328 - 329.

والتكاليف البدنية كالصلاة والصوم والحج وغير ذلك. والمعنى: ويجدون بإتيان التكاليف المالية والبدنية حال كونهم أو حال كون عملهم في دين الله وسبيله. وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ تصديق في إيمانهم إذا كانوا على الصفات المذكورة [1].

4. **الإيمان شرط قبول الأعمال**: الآية تشير إلى أصل قرآني مسلّم به وهو أنّ شرط قبول الأعمال «**الإيمان**»، إذ مضمون الآية أنّه إذ كنتم مؤمنين بالله ورسوله إيماناً قلبياً وعلامته طاعتكم لله والرّسول فإنّ أعمالكم مقبولة، ولا ينقص من أجركم شيء، ويثيبكم الله، وببركة هذه الأعمال يغفر ذنوبكم لأنّ الله غفور رحيم. وحيث إنّ الحصول على هذا الأمر الباطني أي الإيمان ليس سهلاً، فإنّ الآية التالية تتحدّث عن علائمه، العلائم التي تميّز المؤمن حقّا عن المسلم والصادق عن الكاذب، وأولئك الذين استجابوا لله وللرسول رغبة وشوقا منهم عن أولئك الذين استجابوا طمعاً أو للوصول إلى المال والدنيا فتقول: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾! أجل، إنّ أوّل علامة للإيمان هي عدم التردّد في مسير الإسلام، والعلامة الثانية الجهاد بالأموال، والعلامة الثالثة التي هي أهم من الجميع الجهاد بالنفس. وهكذا فإنّ الإسلام يستهدف في الإنسان أجلى العلائم «**ثبات القدم وعدم الشك والتردّد من جهة، والإيثار بالمال والنفس من جهة أخرى**». فكيف لا يرسخ الإيمان في القلب والإنسان لا يقصّر عن بذل المال والروح في سبيل المحبوب!؟ ولذلك فإنّ الآية تختتم بالقول مؤكّدة: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾[2].

(1) تفسير الميزان، ج18، ص 328 – 329.
(2) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج16، ص 573.

حقيقة الإيمان والإسلام:

تطلق كلمة «**الإسلام**» تارة ويراد منها المعنى المصدري، أي اعتناق الإسلام والدخول فيه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ﴾، وقولهم: إسلام الكافر يتحقّق بإظهار الشهادتين.

وتطلق تارة أخرى ويراد منها اسم المصدر، وهي الحالة الحاصلة من تحقُّق المصدر، فيقال مثلاً: الإسلام يحقن به الدم والمال، أي حالة كون الإنسان مسلماً تجعل لدمه وماله حرمة تمنع من التعرّض لهما إلا بسبب مبيح، أو الخروج عن الإسلام موجب للكفر وهدر الدم إجمالاً، أو يقال: الإسلام شرط في صحة العبادات.

وتطلق ثالثة ويراد منها الدين والشريعة السماوية التي جاء بها النبي محمد ﷺ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾، ومنه قولهم: «**الإسلام يعلو ولا يُعلى عليه**». والإسلام بكل هذه المعاني تترتّب عليه أحكام فقهية.

وقد يطلق الإسلام أو مشتقاته على الأديان السماوية السابقة كما في قوله تعالى – حكاية عن إبراهيم عليه السلام ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾.

الفرق بين الإسلام والإيمان:

- الإسلام – بالمعنى الثاني من المعاني الاصطلاحية المتقدّمة – غير الإيمان. ويشهد لذلك قوله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾.
- الإسلام أسبق – من حيث التحقُّق – من الإيمان.

- الإسـلام يتحقّق بمجرّد الإقرار باللسـان، وإن لم يقترن بالعمل. لكن الإيمان هو إقرار باللسان واعتقاد بالقلب وعمل بالجوارح.
- بعض الأعمال تتوقّف صحتها - من حيث إسقاط التكليف لا الثواب الأخروي - على الإسلام، وبعضها الآخر على الإيمان.

اتضح من خلال ما تقدّم: أنّ الإيمان قد يُطلق على الاعتقاد بالإسلام بالمعنى الثالث، وهو إرادة مجموعة الدين الذي جاء به النبي محمد ﷺ من عقيدة وشريعة.

الإيمان العام: الاعتقاد بالإسلام بالمعنى الثالث.

الإيمـان الخاص: الاعتقاد بما تعتقده الإمامية، وهو مجموع ما جاء به النبي ﷺ بما فيه الإمامة.

والآيـة الكريمة تتحدّث عن الإسـلام الظاهري للأعراب فالإسلام حسب المعنى القرآنـي كما يذهب بعض المحققين يقول: «الإسـلام عبارة عن جعل شيء سلماً أي موافقاً متلائماً لا يبقى خلاف ولا ترى جهة مغايرة ومنافرة.

والـذي يستفـاد من الروايات الواردة عن الأئمّـة الأطهار عليهم السلام هو وجود نوع من الاختلاف المفهومي والمصداقي بين الإيمان والإسلام؛ فالإيمان هو: التصديق القلبـي الـذي ينعقـد في قرارة النفـس، وهو أعلى رتبة مـن الإسلام، في حين أنّ الإسـلام هـو: التشهّـد بالشهادتيـن لسانـاً والعمل بالشرع ظاهـراً. وبالتالي ستختلـف الشروط والصفات لكل واحد منهمـا فصفات المسلم، مختلفة الى حد ما عن صفات المؤمن؛ وإن كانت تتداخل معها في الرتبة المحقّقة للأدنى منهما وتفترق فـي الرتبـة المختصة بأحدهمـا. وإنّ العلاقة بينهما قد تلحظ باعتبـار الصدق أي الانطبـاق على المصداق فالعلاقة بينهما هـي العموم والخصوص المطلق حسب ما يقـال في علم المنطـق أي أنّ أحدهما أعـم مطلقاً من الآخر والثانـي أخصّ مطلقاً منه. فالإسلام أعم مطلقاً من الإيمان وهو أخصّ مطلقاً من الإسلام؛ فكلّ مؤمن هو

مسلـم وليس كـل مسلم هو مؤمن، وقد تلحظ بلحاظات أخـرى. يقول الشيخ المفيد: «واتفقـت الإماميـة على أنّ الإسلام غير الإيمان، وأنّ كـل مؤمن فهو مسلم وليس كل مسلم مؤمناً، وأنّ الفرق بين هذين المعنيين في الدين كما كان في اللسان، ووافقهم علـى هذا القول المرجئـة وأصحاب الحديث. وأجمعت المعتزلـة وكثير من الخوارج والزيديـة علـى خلاف ذلك، وزعمـوا أنّ كل مسلـم مؤمن وأنّه لا فـرق بين الإسلام والإيمان في الدين»[1].

وهـذا مـا أشارت له بعض الروايـات كرواية، «**فُضَيْـلِ بْـنِ يَسَارٍ عَـنْ أَبِـي عَبْدِ اللَّه عليه السلام قَالَ الإيمان يُشَارِكُ الإسلام والإسلام لَا يُشَارِكُ الإيمان**»[2].

وعـن فُضَيْـلِ بْنِ يَسَارٍ قَالَ سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّه عليه السلام يَقُـولُ: «**إِنَّ الإيمان يُشَارِكُ الإسـلام ولَا يُشَارِكُـه الإسـلام إِنَّ الإيمـان مَـا وَقَـرَ فِي الْقُلُـوبِ والإسلام مَـا عَلَيْه الْمَنَاكِـحُ والْمَوَارِيـثُ وحَقْـنُ الدِّمَاءِ والإيمـان يَشْرَكُ الإسلام والإسـلام لَا يَشْرَكُ الإيمان**»[3].

تحقيق العلامة الطباطبائي (رض) حول مراتب الإسلام والإيمان:

الإسـلام والتسليم والاستسلام بمعنى واحد، من السلـم، وأحد الشيئين إذا كان بالنسبة إلى الآخر بحال لا يعصيه ولا يدفعه فقد أسلم واستسلم له، قال تعالى ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ ﴾[4]، وقال تعالى: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[5]، ووجـه الشـيء مـا يواجهـك به، وهو بالنسبـة إليه تعالـى تمام وجود الشيء فإسلام الإنسان لـه تعالى هو وصف الانقياد

(1) أوائل المقالات، الشيخ المفيد، القول في التوبة وقبولها، 48.

(2) الكافي،الكليني،ج2، بَابُ أَنَّ الإيمان يَشْرَكُ الإسلام والإسلام لَا يَشْرَكُ الإيمان، ح2، ص 25.

(3) الكافي،الكليني،ج2، بَابُ أَنَّ الإيمان يَشْرَكُ الإسلام والإسلام لَا يَشْرَكُ الإيمان، ح3، ص 25.

(4) سورة البقرة، الآية 122.

(5) سورة الأنعام، الآية 79.

والقبـول منـه لما يـرد عليه من الله سبحانه مـن حكم تكويني، من قـدر وقضاء، أو تشريعـي من أمر أو نهي أو غير ذلك، ومن هنا كان له مراتب بحسب ترتّب الواردات بمراتبها. وهي تقسم إلى أربعة مراتب:

المرتبة الأولى من مراتب الإسلام:

القبـول لظواهر الأوامر والنواهي بتلقّـي الشهادتين لساناً، سواء وافقه القلب، أو خالفه، قال تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّاۖ ..﴾.

المرتبة الأولى من الإيمان بعدالمرتبة الأولى من الإسلام:

ويتعقّب الإسـلام بهذا المعنى أول مراتب الإيمان وهـو الإذعان القلبي بمضمون الشهادتين إجمالاً ويلزمه العمل في غالب الفروع.

المرتبة الثانية من الإسلام ما يلي المرتبة الأولى من الإيمان:

ما يلـي الإيمان بالمرتبة الأولـى، وهو التسليم والانقياد القلبـي لجل الاعتقادات الحقـة التفصيليـة وما يتبعهـا من الأعمـال الصالحة وإن أمكـن التخطّي في بعض المـوارد، قـال الله تعالـى فـي وصـف المتقيـن: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ مُسْلِمِينَ ﴾[1]، وقال أيضاً: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِي ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً ﴾[2].

المرتبة الثالثة من الإسلام ما يلي المرتبة الثانية من الإيمان:

مـا يلي الإيمان بالمرتبة الثانية فإنّ النفـس إذا أنست بالإيمان المذكور وتخلّقت بأخلاقـه تمكّنت منها وانقادت لها سائر القوى البهيميـة والسبعية، وبالجملة القوى المائلـة إلى هوسات الدنيا وزخارفها الفانية الداثـرة، وصار الإنسان يعبد الله كأنّه يـراه فإن لم يكن يـراه فإنّ الله يراه، ولم يجد في باطنه وسـرّه ما لا ينقاد إلى أمره ونهيـه أو يسخـط مـن قضائه وقـدره، قـال الله سبحانـه: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ

(1) سورة الزخرف، الآية 69.
(2) سورة البقرة، الآية 208.

﴿حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾[1]، ويتعقّب هذه المرتبة من الإسلام المرتبة الثالثة من الإيمان، قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴾[2]، ومنه قوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[3] إلى غير ذلك، وربما عدت المرتبتان الثانية والثالثة مرتبة واحدة. والأخلاق الفاضلة من الرضا والتسليم، والحسبة والصبر في الله، وتمام الزهد والورع، والحب والبغض في الله من لوازم هذه المرتبة.

المرتبة الرابعة من الإسلام ما يلي المرتبة الثالثة من الإيمان:

الرابعة ما يلي: المرتبة الثالثة من الإيمان فإنّ حال الإنسان وهو في المرتبة السابقة مع ربه حال العبد المملوك مع مولاه، إذ كان قائماً بوظيفة عبوديته حقّ القيام، وهو التسليم الصرف لما يريده المولى أو يُحبّه ويرتضيه، والأمر في ملك ربّ العالمين لخلقة أعظم من ذلك وأعظم وإنه حقيقة الملك الذي لا استقلال دونه لشيء من الأشياء لا ذاتاً ولا صفة، ولا فعلاً على ما يليق بكبريائه جلّت كبريائه. فالإنسان - وهو في المرتبة السابقة من التسليم - ربما أخذته العناية الربانية فأشهدت له أنّ الملك لله وحده لا يملك شيء سواه لنفسه شيئاً إلا به لا رب سواه، وهذا معنى وهبي، وإفاضة إلهية لا تأثير لإرادة الانسان فيه، ولعل قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا ﴾[4] [5].

(1) سورة النساء، الآية 65.
(2) سورة المؤمنون، الآيات 1 - 3.
(3) سورة البقرة، الآية 131.
(4) سورة البقرة، الآية 128.
(5) تفسير الميزان، ج1، معنى الإسلام - مراتب الإسلام والإيمان، (بحث قرآني)، ص 301- 303.

ونحاول أن نوضح هذه المراتب الثمانية للإسلام والإيمان في الجدول التالي:

المرتبة الأولى: من الإسلام.
القبول لظواهر الأوامر والنواهي بتلقي الشهادتين لساناً ،سواء وافقه القلب، أو خالفه، قال تعالى: قالت الاعراب آمنا

المرتبة الأولى: من الإيمان.
الإذعان القلبي بمضمون الشهادتين إجمالاً ويلزمه العمل في غالب الفروع.

المرتبة الثانية: من الإسلام.
ما يلي الإيمان بالمرتبة الأولى، وهو التسليم والانقياد القلبي لجلّ الاعتقادات الحقّة التفصيلية وما يتبعها من الأعمال الصالحة وإن أمكن التخطي في بعض الموارد، قال الله تعالى في وصف المتقين: ﴿الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين﴾.

المرتبة الثانية: من الإيمان.
ويتعقب الإسلام بالمرتبة الثانية المرتبة الثانية من الإيمان وهي الاعتقاد التفصيلي بالحقائق الدينية، قال تعالى: ﴿إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون﴾.

المرتبة الثالثة: من الإسلام.
يلي الإيمان بالمرتبة الثانية تعبد الله كأنك تراه، ولا يجد في باطنه وسرّه ما لا ينقاد إلى أمره ونهيه أو يسخط من قضائه وقدره: فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليماً.

المرتبة الثالثة: من الإيمان.
ويتعقّب هذه المرتبة الثالثة من الإسلام المرتبة الثالثة من الإيمان، قال الله تعالى ﴿قد أفلح المؤمنون﴾إلى أن قال: ﴿والذين هم عن اللغو معرضون﴾. حال العبودية مع الله.

المرتبة الرابعة: من الإسلام.
تلي المرتبة الثالثة من الإيمان التي كان فيها الإنسان في حالة العبد المملوك مع مولاه وعند اشتداد تلك الحالة قد تأخذه العناية الإلهية وتشهده أن الملك لله وحده وهي حالة إفاضية: ربنا واجعلنا مسلمين لك...وأرنا مناسكنا.

المرتبة الرابعة: من الإيمان.
المرتبة الرابعة من الإيمان تلي الرابعة من الإسلام وهو استيعاب هذا الحال لجميع الأحوال والأفعال، قال تعالى: ﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، الذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾.

بحث حول الآية

من هم الأعراب؟

الأعراب: هي مجموعة أسلمت في الظاهر ولكنّها لم تؤمن في الواقع وفي باطنها، أي لـم يوافق ظاهرها باطنها. والآية لا تريـد أن تقول بأنّ الأعراب هم مجموعة من الباديـة أوصافهم كـذا وكذا وينتهي الأمر، بـل إنّها تريد أن تُحـذّر النبي والمجتمع الإيمانـي من خطر هؤلاء الأعراب المنافقين كما ذكرتهم الآية السابقة بل وصفتهم بأنهـم أشد كفراً ونفاقاً ممـا يؤكّد خطورة هذه المجموعة علـى الإسلام، ولذا الآية مـن الموارد التـي فضحهم الله ورسوله وبيّن نفاقهم وأنّهم لـم يؤمنوا وإن كانوا من المسلميـن بمعنى إظهار الشهادتين. وباقي الآيات توضـح حقيقة هؤلاء وأنّهم نخبة المنافقيـن أو أنهم مجموعة أخرى أشدّ خطراً مـن غيرهم على كيان الإسلام وعلى رسول الله ﷺ.

والأعرابـي، العرب: جيل من الناس، والنسبة إليهم عربي بين العروبة، وهم أهل الأمصار. والأعراب منهم سكان البادية خاصة. وجاء في الشعر الفصيح: الأعاريب. والنسبـة إلى الأعراب أعرابي، لأنّه لا واحد له. وليس الأعراب جمع العرب، كما كان الأنباط جمعاً لنبط، وإنّما العرب اسم جنس.

ويعرّفـه الشهيـد الثاني (رض) الأعرابي بقوله: «وهو المنسوب إلـى الأعراب سكّان البادية، لنقصه بذلك عن مكـارم الأخلاق ومحاسن الشيم المستفادة من الحضر. وقد يطلـق الأعرابي على من لا يعرف محاسن الإسلام وتفاصيل الأحكام من سكّان البـوادي المعنـيّ بقولـه تعالـى: ﴿ ٱلۡأَعۡرَابُ أَشَدُّ كُفۡرٗا وَنِفَاقٗا وَأَجۡدَرُ أَلَّا يَعۡلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦۗ ﴾ وعلـى من عرف ذلك منهم ولكـن ترك المهاجرة مع وجوبها»[1].

(1) الفوائد الملية لشرح الرسالة النفلية، الشهيد الثاني، عدم كون الإمام أعرابياً، ص 295.

وقولـه تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلْأَعْـرَابِ ﴾ ومـن منافقي الأعراب «**مَـنْ يَتَّخِذُ**» يعدّ «**ما يُنْفِـقُ**» يصرفه فـي سبيل الله ويتصدّق بـه «**مَغْرَماً**» غرامة وخسرانـاً، ولا يحتسبه عنـد الله تعالـى، ولا يرجو عليه ثوابًـا، وإنّما ينفق رياء أو تقيّة مـن أهل الإسلام، لا لوجـه الله «**ويَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوائـرَ**» دوائر الزمان وحوادث الأيّام وعواقب الأمور من نـوب الشدائـد، لينقلب الأمر عليكم، وتذهـب غلبتكم عليه، فيتخلَّص من الإنفاق. ﴿عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِ ﴾ اعتراض بالدعـاء عليهم بنحـو ما يتربّصـون، من قبيل: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَلُعِنُواْ ﴾. أو بالإخبـار عـن وقـوع مـا يتربّصون عليهـم. والدائـرة فـي الأصل مصدر، أو اسـم فاعل من: دار يـدور. وسمّي به عقبة الزمـان. والسّوء بالفتح مصدر أضيف إليـه للمبالغة، كقولك: رجل صدق. وقرأ ابن كثيـر وأبو عمرو: السّوء، هنـا وفي الفتح بضمّ السين، وهو العذاب. «**وَاللّه سَمِيعٌ**» لما يقولـون عنـد الإنفاق «**عَلِيـمٌ**» بما يضمـرون. قيل: هم أعراب أسـد وغطفان وتميم. ثـمّ بيّن سبحانه مـن الأعـراب المؤمنين المخلصين، فقـال: ﴿ وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ ﴾ سبـب قربـات. وهي ثاني مفعولـي «**يتّخذ**» «**عِنْـدَ الله**» صفتها، أو ظرف لـ «**يتّخـذ**» «**وصَلَـواتِ الرَّسُولِ**» وسبب صلواته، لأنّه كان يدعو للمتصدّقين بالخير والبركة ويستغفر لهم، كقوله ﷺ: اللهمّ صـلّ على آل أبي أوفى، لمّا أتاه أبـو أوفى بصدقته. «**أَلا إِنَّها قُرْبَـةٌ لَهُمْ**» تقرّبهم إلى ثـواب الله. وهـذا شهادة من الله تعالـى بصحّة معتقدهم، وتصديـق لرجائهم على الاستئنـاف، مـع حرف التنبيـه، و «**إنّ**» المحقّقـة للنسبة، والضميـر لنفقتهم. وقرأ ورش: قربـة بضمّ الـراء. ﴿سَيُدۡخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦٓ ﴾ وعد لهـم بإحاطة الرحمة عليهم. والسيـن لتحقيقه. وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ لتقريره. وهذه الآية في عبد الله ذي البجادين ورهطه[1].

(1) زبدة التفاسير، فتح الله الكاشاني، ج3، ص 154- 155.

الصادقون من استوت ظواهرهم وبواطنهم.أي من صدّق قوله فعله وصدّق فعله قوله وصدق اعتقاده فعله في كل الأحوال وعلى حدّ سواء. في المستويات الثلاثة:

مستوى الاعتقاد: هم أصحاب الاعتقاد الكامل واليقين المطلق، لم يشكوا ولم يرتابوا فيما يعتقدوا. ﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾.

مستوى الأعمال: هم من كانت أعمالهم كاملة لا نقص فيها وتابعة لما يعتقدون به. ﴿وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

مستوى الأخلاق: من كانت أخلاقهم نابعة من معتقداتهم الكاملة الحقّة. ﴿ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾.

قيمة العلاقة بالصادقين:

بعد أن بيّنت الآيات القرآنية الشريفة أوصاف الصادقين بشكل لا يقبل اللبس طلبت من المؤمنين والمتقين الكون معهم أي الكون مع الصادقين عندما تتوفّر في الناس مواصفات خاصة تنسجم مع الذين صدقوا، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[1]. والآية تدل على عدّة أمور:

1. المتقون هم طائفة غير طائفة الصادقين لأنّ الله أمر المتقين أن يكونوا مع الصادقين.
2. إنّ استخدام لفظ«مَعَ» يُدلّل على أنّ المتقين لا يمكنهم أن يكونوا من الصادقين وفي عرض واحد معهم بل ينبغي على المتقين الالتحاق بالصادقين.
3. معنى أن يكون المتقي مع الصادقين هي المعية الاقتدائية أي أن يكون تابع لهم في أقوالهم ومعتقداتهم وسلوكياتهم.

(1) سورة التوبة، الآية 119.

4. الطلب من المتقين أن يلتحقوا بالصادقين ويكونوا معهم يعني أنّ الصادقين هم الأصل الذي يجب الالتحاق والاقتداء بهم[1].

تأملات حول الآية الكريمة:

- روي في الأخبار المتواترة أنّ المراد بالصادقين هم الأئمة المعصومون عليهم السلام.
- في الكافي، عَنْ عَجْلَانَ أَبِي صَالِحٍ، قَالَ: قُلْتُ لأَبِي عَبْدِ الله عليه السلام: أَوْقِفْنِي عَلَى حُدُودِ الإيمان، فَقَالَ: «**شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله وأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ الله والإقرار بِمَا جَاءَ بِه مِنْ عِنْدِ الله وصَلَوَاتُ الْخَمْسِ وأَدَاءُ الزَّكَاةِ وصَوْمُ شَهْرِ رَمَضَانَ وحِجُّ الْبَيْتِ ووَلَايَةُ وَلِيِّنَا وعَدَاوَةُ عَدُوِّنَا والدُّخُولُ مَعَ الصَّادِقِينَ**»[2]. ولعلّ المراد بالدخول مع الصادقين متابعة أهل بيت العصمة والطهارة في أقوالهم وأفعالهم وهو ناظر إلى قوله سبحانه ﴿وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾.
- معنى الصادقين ليس المراد بالصادقين الصادقين في الجملة إذ ما من أحد إلاّ وهو صادق في الجملة حتّى الكافر، والله سبحانه لا يأمر بالكون معه بل المراد بهم الصادقون في أيمانهم وعهودهم وقصودهم وأقوالهم وأخبارهم وأعمالهم وشرايعهم في جميع أحوالهم وأزمانهم وهم الأَئمّة المعصومون من العترة الطاهرة لأَنَّ كلَّ من سواهم لا يخلو عن الكذب في الجملة [3].
- إنّ المأمورين باتباع الصادقين هم بعض الأمة بمعنى من توفّرت فيهم صفات الإيمان والتقوى فللتقوى دور مهم وأساس في الكون مع الصادقين يقول الشيخ المفيد قدس سره: «قد ثبت أنّ المنادي به غير المنادي إليه، وأنّ

---

(1) ينظر: في ظلال العقيدة والأخلاق، كمال الحيدري، مناهج بحث الإمامة، ص 171- 184.
(2) الكافي، الكليني، ج2، باب دعائم الإسلام، ح2، ص 18.
(3) شرح أصول الكافي، محمد صالح المازندراني، ج5، ص 263.

المأمـور بالاتّباع غير المدعوّ إلى اتّباعه. فدلّ ذلك على أنّ المأمورين باتّباع الصادقيـن ليسوا هم الأمّـة بأجمعها، وإنّما هم طوائف منهـا، وأنّ المأمور باتّباعـه غير المأمور بالاتّبـاع، ولا بدّ من تمييز الفريقيـن بالنصّ، وإلّا وقع الالتباس وكان فيه تكليف ما لا يطاق. فلمّا بحثنا عن المأمور باتّباعه، وجدنا القـرآن دالاً»[1] ثـم استعرضـ الآيـات التي أشرنـا إليها الدالـة على من هم الصادقون.

اتباع الصادقين وبناء المجتمع الفاضل:

مرّ في الرواية السابقة أنّ من حدود الإيمان «**الدخول مع الصادقين**» حسب تعبير الإمـام الصادق عليه السلام والدخول مع الصادقين يكـون بطاعتهم المطلقة وفي بعض الروايات: «**مُحَمَّدُ بْنُ يَحْيَى عَنْ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدٍ عَنِ ابْنِ أَبِي نَصْرٍ عَنْ أَبِي الْحَسَنِ الرِّضَـا** عليه السلام» قَـالَ: سَأَلْتُه عَنْ قَوْلِ الله عـزّ وجلّ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ قَـالَ: الصَّادِقُونَ هُمُ الأَئِمَّـةُ والصِّدِّيقُونَ بِطَاعَتِهِمْ[2]. أي بطاعة الأَئمّة والصِّديق الّذي يُصدِّق قوله بالعمل، والأَمر بالكون معهم باعتبار أنّهم مع الأَئمّة.

والآيـة اشترطـت بشكل واضح التقـوى كمقدمـة إلزامية للكون مـع الصادقين، فالصِّدِّيقُـونَ لا بـدّ أن تتوفّر فيه صفـات خاصة تجمعها صفة التقـوى، فللتقوى دور أساسـ فـي الكون مـع الصادقين. وقد ثبت من خـلال الآيات والروايـات أنّ المراد بالصادقيـن هـم أهـل البيـت عليهم السلام. وإذا راجعنـا كلّ المقاطـع المتقدّمـة لسورة الحجرات سنصل إلى النتيجة التالية: إنّ الوصول إلى المجتمع الفاضل الذي أرادت سورة الحجرات بناءه، طريقه الوحيد والحصري هو الكون مع الصادقين.

(1) تفسير القرآن المجيد، الشيخ المفيد، ص 157.

(2) الكافي، الكليني، ج1، باب ما فرض الله عزّ وجلّ ورسوله صلى الله عليه وآله من الكون مع الأئمة عليهم السلام، ح2، ص 208.

للمطالعة

نداءات سورة الحجرات للمؤمنين

سـورة الحجرات وجّهت خمس نداءات للمؤمنين وبعد كلّ نداء بيّنت مجموعة من الآداب وبيّنـت أيضاً أنّ الالتزام بهـذه الآداب من شأن المتقين والهدف من الالتزام بهذه الآداب هو الوصول إلى حقيقة الإيمان، ثم بيّنت أنّ الذين جسّدوا حقيقة الإيمان هـم الصادقـون، وإذا ضممنـا هذه النتيجة إلـى الآية مورد البحث والتـي قالت بأنّ المتّقـي لا بدّ أن يكون مـع الصادقين، فالوصول إلى كلّ تلك الأمور المتقدّمة متوقّف علـى التمسُّك بالصادقيـن، فلكي نصل إلـى مجتمع تُحقّق فيـه العدالة الاجتماعية وتحكمـه الأخـلاق الإيمانية ويسـوده الوئام والوفاق بيـن أفراده بـأن يصبح أفراده متوافقون مـع أنفسهم في العقيـدة والقول والعمل ولا يكونـوا كالمنافقين والأعراب الذين لا تتوافق ظواهرهم مع بواطنهم، للوصول إلى كل ذلك لا بدّ من التمسُّك بفكر ونهـج وأخلاق الصادقين وهم من استوت ظواهرهـم وبواطنهم.أي من صدّق قوله فعله وصدّق فعله قوله وصدّق اعتقاده فعله في كل الأحوال وعلى حدّ سواء. ولتوضيح ذلك نبينه من خلال آيات السورة:

النـداء الأول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾.

النـداء الثانـي: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ ... وَلَا تَجۡهَرُواْ ... إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ ...ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ﴾.

النـداء الثـالث: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ ... حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ .﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ ... إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾

النداء الرابـع: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ ..وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ﴾.

النداء الخامس: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ ...وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب ..﴾.

ملاك التفاضل: .. ﴿.إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾.

بيان حقيقة الإيمان: ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴾.

النتيجة: إنّ تحقيق المجتمع الفاضل الذي دعت إليه سورة الحجرات يكون باتباع الصادقين وهذا الاتباع لا يتحقّق الا من خلال التقوى.

13

مظلة الأسوار

علم اللّٰه تعالى

مفاهيم محورية:

- الإيمان أعظم منّة إلهية.
- الله تعالى بصير بعباده.
- اسم الله البصير وعلاقته ببصيرة المؤمن.
- البصير في اللغة والاصطلاح.

النص القرآني

قال الله تعالى: ﴿ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾.

تمهيد

إنّه من العجيب بالفعل أن يمنّ الآخذ على المعطي، والتلميذ على الأستاذ، ويطلب المريض الجزاء من الطبيب الذي طبّبه لمرضه، وشفاه من علّته!! ولكن قاتلَ الله الجهل هكذا يفعل بأهله. والله تعالى في القرآن ذكّرهم بأن عائدة هذا الإيمان وثمراته راجعة إليهم، لأنّهم خرجوا بهذا الإيمان من الضلال إلى الهدى، ومن الظلام إلى النور، ومن البلاء والهلاك والعذاب الأليم في الآخرة، إلى العافية، والسلام، و.. وتلك نعمة أو نعم لا يقدر أن يقوم بشكرها إنسان. وهو قوله تعالى: ﴿... وَٱذْكُرُوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾[1].

﴿قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ﴾ أي: بإسلامكم. فنصب بنزع الخافض، أو تضمين

(1) سورة آل عمران، الآية 103.

الفعل معنى الاعتداد. ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ﴾ بل الله يعتدّ عليكم أن أمدّكم بتوفيقه حيث هداكم للإيمان على ما زعمتم، وادّعيتم أنّكم أرشدتم إليه ووفّقتم له ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ في ادّعاء الإيمان، إلّا أنّكم تزعمون وتدّعون ما الله عليم بخلافه. وجواب الشرط محذوف يدلّ عليه ما قبله، أي: فللّه المنّة عليكم.

شرح مفردات الآية

- **يَعۡلَمُ**: هو الحضور والإحاطة على شيء، والإحاطة يختلف باختلاف القوى والحدود، ففي كلّ بحسبه. وإن كان العلم مقارناً بالتمييز وإدراك الخصوصيّات: فمعرفة. وإذا وصل العلم إلى حدّ الطمأنينة والسكون: فيقين[1].

- **يَمُنُّونَ**: هو ورود النعمة المعيّنة المقطوعة المخصوصة. وبهذه المناسبة تطلق على معنى القطع. قال في الفروق: الفرق بين النعمة والمنّة: أنّ المنّة هي النعمة المقطوعة من جوانبها كأنّها قطعة منها. ثمّ إنّ المنّ له مراتب: الأوّل – منّ فعليّ خارجيّ كما في قولنا – مننت عليه به: أي أنعمت عليه بشيء مخصوص مقطوع بارز. الثاني – إظهار منّ وإبرازه وادّعاء أنّه يمنّ عليه كما في قوله تعالى: ﴿لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ﴾ [2]أي بإبراز المنّ وإظهاره والقول بأنّه منّ عليه أو منعم عليه باعتبار إنعامه السابق. وكما في قوله تعالى ﴿يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ﴾ أي ينعمون عليك بإسلامهم أو يظهرون الإنعام بإسلامهم عليك. وكما في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتۡبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنّٗا وَلَآ أَذٗى﴾[3] أي لا يأتون بعد الإنفاق بمنّ وإظهار إنعام وإعادته قولاً[4].

- **هَدَىٰكُمۡ**: هدى هو بيان طريق الرشد والتمكّن من الوصول إلى الشيء، أي

(1) التحقيق في كلمات القرآن الكريم، حسن المصطفوي، علم، ج8، ص 0209

(2) سورة البقرة، الآية 264.

(3) سورة البقرة، الآية 262.

(4) التحقيق في كلمات القرآن الكريم، حسن المصطفوي، علم، ج11، ص183.

دلالــة إليه. فالهداية يقابلــه الضلالة. والرشاد يقابله الغــيّ وهو الدلالة إلى الشرّ والفساد، كما أنّ الرشاد هو الاهتداء إلى الخير والصلاح[1].

- غَيْــبَ: يدلّ على تستّر الشيء عن العيون، ثمّ يُقاس، من ذلك الغيب: ما غاب ممّا لا يعلمه إلَّا الله. والغيبة: الوقيعة في الناس من هذا، لأنّها لا تقال الَّا في غيبة[2]. والله تعالى: لا غيب عنده فهو ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ﴾[3].
- بَصِيرٌ: بصر هو العلم بنظر العين أو بنظر القلب. وإذا أطلق بصير على الله تعالى معناه أنّه ناظر وعالم لا يخفى عليه شيء[4].

المعنى التفصيلي

- ﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ﴾: إنّ الإنســان إذا عرف مدى سعة علم الله عزّ وجلّ تهيّبه وصار عنده نوع من الرقابة الذاتية والتي هي الأساس في حركة الإنســان تجاه الله تعالى. فالله تعالى هو الخالــق والرازق والعالم الذي يعلم غيب السموات والأرض وهو الذي خلقني ولم أكن شيئاً مذكوراً وهو الذي منّ علــي بنعمة الإمــداد، وبنعمة الهدى، والإيمان، وبكل شــيء فهو يعلم إذا كنت مسلماً أم مؤمنــاً أم محسناً، يعرف مستوى إيماني وإسلامي وإحساني. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

إنّ الإنســان إذا تحقّق هذا العلم في قلبه وشعر بوجود الله وعلمه في كل شيء وأنّ الله بصيــر بــه، سيتحوّل هــذا العلم إلى دافعية للعمــل ويبدأ بقطف ثمار الإيمــان الحقيقي وعند ذلــك سيشعر بعظيم المنّة الإلهيــة والمنحة الربانية ويــزداد شكراً أمام عظمــة المنة الإلهيــة، فالمؤمن كلّمــا ازداد توفيقاً ازداد شكراً لله تعالى لا أنّه يمنّ على الله بعمله، أمّا من لم يصل إلى مرتبة الإيمان

(1) التحقيق في كلمات القرآن الكريم، حسن المصطفوي، هدى، ج11، ص 249.
(2) معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكريا (ابن فارس)، غيب، ج4، ص 403.
(3) سورة الأنعام، الآية 73.
(4) التحقيق في كلمات القرآن الكريم، حسن المصطفوي، بصر، ج1، ص 281.

فإنّه من جهله وغروره سيمنّ على الله كما تُصوّر لنا الآية سواء كانت تستهدف المناقفيــن أم الأعــراب أم المسلمين لا فرق من هذه الجهة لأنّ الكلّ لم يصل إلى مرتبة الإيمان.

وبعــد أن ركّزت الآية علــم الله تعالى وإحاطته بكلّ شــيء والذي وصفته بعض الآيــات بأنّه أقرب إليكم مــن حبل الوريد، ويحول بين المــرء وقلبه، فمع هذه الحــال لا حاجــة لادعائكم، وهو يعــرف الصادقين مــن الكاذبين ومطلع على أعماق أنفسهم حتى درجات إيمانهم المتفاوتة ضعفاً وقوة، وقد تنطلي عليهم أنفسهم، إلا أنّه يعرفها بجلاء، فعلام تصرّون أن تُعلّموا الله بدينكم.

وبصياغة علمية الآية تقول: كيف تعلِّمون الله بدينكم؟ ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ لا يخفــى عليــه خافيــة. وفيه تجهيل لهم، لأنّه العالم بالــذات، فيعلم المعلومات كلّها بنفسه، فلا يحتاج إلى معلِّم يعلِّمه، كما أنّه كان قديماً موجوداً في الأزل بالذات، واستغنى عن موجد أوجده.

ثم يعود القرآن لكلمات الأعراب من أهل البادية الذين يمنّون على النبيّ بأنّهم أسلموا وأنهم أذعنوا لدينه في الوقت الذي حاربته القبائل العربية الأخرى.

- ﴿يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾: المــنّ: هو القطع بإيصال النفع الموجب للحقّ، ومنه قولــه ﴿فَلَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ﴾ أي غير مقطوع، ومنه قولهــم: المنة تُكدّر الصنيعة وقيل: إذا كفرت النعمة حسنت المنة[1].
- ﴿يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ﴾ يعــدّون إسلامهم عليك منّة. وهــي: النعمة الَّتي لا يستثيــب مسديها ممّن يزلُّها إليه. من المنّ بمعنــى القطع، لأنّه إنّما يسديها إليــه ليقطع بها حاجتــه لا غير، من غير أن يعمد لطلــب مثوبة. ثم يقال: منّ عليه صنعه، إذا اعتدّه عليه منّة وإنعاما.

---

(1) التبيان في تفسير القرآن، الشيخ الطوسي، ج9، ص 355.

ويمكن تعريف المنّ باختصار: الإدلال بالإحسان على من أحسن إليه.. وهو مما يذهب بثواب الإحسان، ويفسد مغارسه.. والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ﴾ [1].

- ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾: في سرّكم وعلانيتكم، فكيف يخفى عليه ما في ضمائركم؟ وفي هذه الآية بيان لكونهم غير صادقين في دعواهم. وتوضيح المعنى: أنّه عزّ وجلّ يعلم كلّ مستتر في العالم، ويبصر كلّ عمل تعملونه في سرّكم وعلانيتكم، لا يخفى عليه منه شيء، فكيف يخفى عليه ما في ضمائركم، ولا يظهر على صدقكم وكذبكم؟ وذلك أنّ حاله مع كلّ معلوم واحدة لا تختلف [2].

أي يمنّون عليك بأن أسلموا وقد أخطأوا في منّهم هذا من وجهين، أحدهما: أنّ حقيقة النعمة التي فيها المنّ هو الإيمان الذي هو مفتاح سعادة الدنيا والآخرة دون الإسلام الذي له فوائد صورية من حقن الدماء وجواز المناكح والمواريث، وثانيهما: أن ليس للنبي ﷺ من أمر الدين إلا أنّه رسول مأمور بالتبليغ فلا منّ عليه لأحد ممّن أسلم. فلو كان هناك منٌّ لكان لهم على الله سبحانه لأنّ الدين دينه لكن لا منّ لأحد على الله لأنّ المنتفع بالدين في الدنيا والآخرة هم المؤمنون دون الله الغني على الإطلاق فالمنّ لله عليهم أن هداهم له[3].

- ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾: هو تأكيد يُعلّل

(1) سورة البقرة، الآيتان 262- 263.
(2) زبدة التفاسير، فتح الله الكاشاني، ج6، ص 438.
(3) تفسير الميزان، محمد حسين الطباطبائي، ج18، ص 330.

ويؤكّد به جميع ما تقدّم في السورة من النواهي والأوامر وما بيّن فيها من الحقائق وما أخبر فيها عن إيمان قوم وعدم إيمان آخرين فالآية تُعلّل بمضمونها جميع ذلك[1].

الإيمان أعظم منّة إلهية:

الإيمان نعمة كبرى لا تساويها نعمة، وحين يزكّي الإنسان نفسه ويروّضها بالتقوى، ويسعى لرؤية الحقائق، حينئذ يتجلّى الله لقلبه، فيرى الله بنور الإيمان ويرى بنور الله كلّ شيء. الإيمان هو كبرى المنن التي ينعم بها الله على عبد من عباده في الأرض. إنّه أكبر من منّة الوجود الذي يمنحه الله ابتداء لهذا العبد؛ وسائر ما يتعلّق بالوجود من آلاء الرزق والصحة والحياة والمتاع.

وأوّل ما يصنعه الإيمان في الكائن البشري، حين تستقرّ حقيقته في قلبه، هو سعة تصوّره لهذا الوجود، ولارتباطاته هو به، ولدوره هو فيه؛ وصحة تصوّره للقيم والأشياء والأشخاص والأحداث من حوله؛ وطمأنينته في رحلته على هذا الكوكب الأرضي حتى يلقى الله، وأنسه بكل ما في الوجود حوله، وأنسه بالله خالقه وخالق هذا الوجود؛ وشعوره بقيمته وكرامته؛ وإحساسه بأنه يملك أن يقوم بدور مرموق يرضى عنه الله، ويُحقّق الخير لهذا الوجود كله بكل ما فيه وكل من فيه.

فمن سعة تصوّره أن يخرج من نطاق ذاته المحدودة في الزمان والمكان، الصغيرة الكيان، الضئيلة القوة. إلى محيط هذا الوجود كله، بما فيه من قوى مذخورة، وأسرار مكنونة؛ وانطلاق لا تقف دونه حدود ولا قيود في نهاية المطاف.

فالمؤمن يعرف - بقلب مطمئن، وضمير مستريح، وروح مستبشرة- أنّه يلبس ثوب العمر بقدر الله الذي يصرف الوجود كله تصريف الحكيم الخبير. وأن اليد التي ألبسته إياه أحكم منه وأرحم به، فلا ضرورة لاستشارته لأنّه لم يكن ليشير كما

---

(1) (م.ن)، ص 331.

يشيــر صاحب هــذه اليد العليم البصير. وأنه يلبســه لأداء دور معين في هذا الكون، يتأثّــر بكل ما فيــه، ويؤثّر في كل ما فيه. وأنّ هذا الدور يتناسق مع جميع الأدوار التي يقوم بها كل كائن من الأشياء والأحياء منذ البدء حتى المصير.

ذلك سرّ قوة العقيدة في النفس، وسرّ قوة النفس بالعقيدة. سرّ تلك الخوارق التي صنعتهـا العقيدة فــي الأرض وما تزال في كل يوم تصنعها. الخــوارق التي تُغيّر وجه الحيــاة من يوم إلى يوم، وتدفع بالفــرد وتدفع بالجماعة إلى التضحية بالعمر الفاني المحــدود في سبيل الحيــاة الكبرى التي لا تفنى؛ وتقف بالفــرد القليل الضئيل أمام قــوى السلطان وقــوى المال وقوى الحديد والنار، فإذا هي كلهــا تنهزم أمام العقيدة الدافعة في روح فرد مؤمن.

تلك الخوارق التي تأتي بها العقيدة الدينية في حياة الأفراد وفي حياة الجماعات لا تقــوم على خرافة غامضة، ولا تعتمد علــى التهاويل والرؤى. إنّها تقوم على أسباب مدركــة وعلى قواعد ثابتة. إنّ العقيدة الدينية فكــرة كلية تربط الإنسان بقوى الكون الظاهرة والخفية، وتثبت روحه بالثقة والطمأنينة، وتمنحه القدرة على مواجهة القوى الزائلــة والأوضــاع الباطلة، بقوة اليقين في النصر، وقوة الثقــة في اللّه. وهي تُفسّر للفــرد علاقاته بما حولــه من النـاس والأحداث والأشيــاء، وتوضح له غايته واتجاهه وطريقــه، وتجمع طاقاته وقواه كلّها، وتدفعها في اتجاه واحد. ومن هنا كذلك قوتها. قوة تجميع القوى والطاقات حول محور واحد، وتوجيهها في اتجاه واحد، تمضي إليه مستنيرة الهدف، في قوة، في ثقة، وفي يقين[1].

وهذه القوّة الإيمانية هي التي دفعت زهير بن القين (رض) أن يقول للإمام الحسين عليه السلام فقــال: قد سمعنا – هــداك اللّه يا بن رسول اللّه – مقالتــك، ولو كانت الدنيا لنا باقية، وكنا فيها مخلّدين، لآثرنا النهوض معك على الإقامة فيها. ومثله هلال بن

(1) في ظلال القرآن، ج6، 3353.

نافـع البجلي(رض) ، فقال: والله ما كرهنــا لقاء ربنا ، وإنا على نياتنا وبصائرنا ، نوالي مــن والاك ونعادي من عــاداك. وقال برير بن خضير(رض): والله يا بن رسول الله لقد مــنّ الله بك علينا أن نقاتل بين يديك فيقطع فيك أعضاؤنا ، ثم يكون جدّك شفيعنا يوم القيامة وغيرهما من عظماء واقعة الطف.

بحث حول الآية

الله بصير بعباده:

خُتمت سورة الحجرات بقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ ونحن نختم الأبحاث حول هذه الســورة المباركة باسم الله تعالى البصير وعلاقتــه بسلوكيات المؤمن، وقد قلنــا فيما سبــق أنّ علم الله تعالى هو مظلة أسوار الأمان التــي تحدّثنا عنها في تفسير السورة ولذا كان من المناسب تسليط الضوء على هذا البحث ولو بشكل مختصر.

كثيــرة هي الآيات التي تحدّثت عن علم الله تعالى وإحاطته المطلقة بالموجودات وأنــه لا يخفــى عليه شيء، وإلى غيــر ذلك من التعابير التي سنقــف على بعضها من خــلال الآيــات التاليــة: قــال الله تعالــى: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[1].

وقــال اللــه تعالــى: ﴿ قُلۡ إِن تُخۡفُواْ مَا فِى صُدُورِكُمۡ أَوۡ تُبۡدُوهُ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُ وَيَعۡلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلۡأَرۡضِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىۡءٖ قَدِيرٞ ﴾[2].

الله تبــارك وتعالــى هــو العليم بكـل شيء، الــذي يعلم بكـل شيء فــي السموات والأرض، وفي الدنيا والآخرة، وفي الظاهر والباطن وهوسبحانه العالم بكل شيء في السمــوات والأرض من الأشياء والأشخاص، والنيات والأعمال، والخواطر والحركات وهو سبحانه العليم الخبير، الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، يعلم

---

(1) سورة الحشر، الآية 22.

(2) سورة آل عمران، الآية 29.

مثاقيل الجبال.. ومكاييل البحار.. وعدد قطر الأمطار.. وعدد ذرات الرمال.. وعدد ورق الأشجار.. وما أظلم عليه الليل.. وما أشرق عليه النهار. لا تواري منه سماء سماءً، ولا أرض أرضاً، ولا جبل ما في وعره.. ولا بحر ما في قعره.

وهو سبحانه اللطيف الخبير الذي يعلم القليل والكثير، ويعلم الصغير والكبير، ويعلم القريب والبعيد ﴿ يَـٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾[1].

فسبحان اللطيف الخبير، المطلع على البواطن والأسرار، الذي يعلم خفايا القفار والبحار والجبال والظلام.

واللّه جل جلاله علاّم الغيوب، وعلمه محيط بكل شيء، لا يندّ عنه شيء في الزمان ولا في المكان، في الأرض ولا في السماء، في الليل ولا في النهار.

يعلم ما في البر والبحر، وما في جوف الأرض، وما في طباق الجو، من حي وميت، ورطب ويابس، يعلم ذلك ويراه، في الليل أو النهار، في النور أو الظلام: ﴿ ذَٰلِكَ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[2].

وهو سبحانه الذي يعلم أستار الغيوب المختومة في العالم العلوي وفي العالم السفلي، ويعلم مجاهل البر الواسعة، وغيابات البحر العميقة، ويعلم عدد الأوراق الساقطة من أشجار الأرض، وكل حبة مخبوءة في ظلمات الأرض، وكل رطب ويابس في هذا الكون العظيم، لا يند منه شيء عن علم اللّه المحيط بكلّ شيء.

اسم اللّه البصير وعلاقته ببصيرة المؤمن:

البَصِيرُ كما هو معروف من أسماء اللّه الحسنى وهذه الأسماء المطلوب أولاً معرفة معانيها، وثانياً معرفة كيفية تجلياتها في قلوب المؤمنين الموحّدين المخلصين.

(1) سورة لقمان، الآية 16.

(2) سورة السجدة، الآية 6.

إذا راجعنا آيات القرآن الكريم فنجد أن اسم«**البصير**» ورد في أكثر من خمسين آية، ورد معرّفاً بأل وورد منوّناً، ورد مقترناً باسم السميع والخبير، وورد غير مقترن، فمن الآيات التي ورد فيها اسم «**البصير**» معرّفاً قوله تعالى في مطلع سورة الإسراء: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[1].

وورد هذا الاسم أيضاً منوّناً في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾[2]. وقد ورد في القرآن الكريم آيات كثيرة تصف الله تعالى بأنه ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[3] أو ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾[4] وتصفه أيضاً بقولها ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾[5]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾[6] إلى غيرها من التعابير القرآنية.

البصير في اللغة والاصطلاح:

البصير على وزن فعيل وهو من أبنية وصيغ المبالغة والتي تعني المبالغة في النوع وفي الكم، فإذا قلنا الله تعالى بصير يعني يبصر في كل الاتجاهات، يبصر كل الأشياء، يبصر كل الأنواع، ولا يمكن حد هذه الصفة في حقه تعالى فهو بصير ويبصر كل شيء على الإطلاق هذا من جهة. ومن جهة أخرى قد قلنا فيما سبق أنّ البصر لا يمكنه رؤية الأشياء من دون الاستعانة بوسائل إرشادية أخرى، صحيح أنّنا نرى الأشياء الخارجية بواسطة البصر، ولكن من دون أن يتوسط النور بين البصر والشيء المُبصر لا تُحقّق الرؤية ويستوي في غرفة مظلمة البصير وغير البصير (الكفيف)، اذاً لا بد من نور

(1) سورة الإسراء، الآية1.
(2) سورة الحج، الآية 75.
(3) سورة البقرة، الآيات 110 – 233 – 237 وغيرها.
(4) سورة البقرة، الآية 96.
(5) سورة آل عمران، الآيتان 15 – 20 غيرها.
(6) سورة فاطر، الآية 31.

يتوسّط بين العين وبين المرئيات كنور الكهرباء أو نور الشمس.

ومـا نريد قوله أنّ عقـل الإنسان مهما وصل إلى درجات عالية من الكمال والذكاء والفطنـة وكذلك قلبه الذي يبصر به الموجـودات الباطنية واللامرئية لا يتمكّن من الاهتـداء والوصول إلى الغايـات المنشودة منه إلا بواسطة نـور الوحي، فنور الوحي المتمثّل بنور المعصوم عليه السلام هو الواسطة بينه وبين عقله وقلبه. فالإنسان من دون نور النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم ونور الإمام المعصوم عليه السلام ونور القرآن الكريم هو أعمى ولا يهتدي إلى سواء السبيل فهذه الأنوار هي التي تُحقّق له الهداية والوصول إلى مقصده الـذي خلق مـن أجله فلا بصيرة بلا نور الشريعـة قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ ﴾ [1].

الْبَصِيرُ: هو الذي يعلم بما يُنظر له، أو يبصر ما يُبصر وما لا يُبصر لنا، ويطلق على من يعلم بما يصلحه أو لأشياء معينه أو عامة وما تحتاجه خلقاً وتكاملاً وهدى.

والله تعالى هو البصير: لأنه تعالى محيط بكل الأشياء ما يُبصر وما لا يُرى، وهو الخالـق والممد للكائنات بالشكـل والصورة وما تتحرك به وتنتقـل، سواء لا نبصره بوضـوح لكبره كالكون والمجرّات وما يبعد عنـا، أو لصغره كالذرة وأجزائها ولطيف الخلـق، أو نبصره علماً كصـور خيالنا وأوهامنا ونياتنـا أو مشاهدة حين ينتقل لنا، فهـو بصير بها قبل وحين وبعد وجودها، وبأي صورة وحال وزمان ومكان كانت، ولأي موجـود كان صغر أو كبر شكله، لطف أو عظـم حجمه، ثقل أو خفّ وزنه، وهو بصير بها وبما تستحقه من نور أسمائه الحسنى حسب شأنها عطاء أو منعاً.

ومـن تجلّى عليه البصير بالتجلّي الخاص: يقوى بصره، بل يجعل بصره الفكري والعقلـي حديـد، ويكون على بصيرة من أمـره وأمر دينه وهداه، بـل يجعله معلماً له ودليـلاً عليه، ويـرى الله متجلياً في كل شـيء عظمة وقدرة وعلماً، قـد أتقن صنعه،

(1) سورة الحديد،الآية28.

وأنــه خلقه ليسير لغاية حقّة ونهايــة نورانية منعمة ماجدة، وهو كما خص به الأنبياء وبالخصوص نبينا ﷺ.

وكل من أبصر في دين الله بحق: كان بصيراً بهداه إلى الصراط المستقيم، وهذا المهم في معنى البصير، كما أنّ البصر للأشياء له أهمية للمعرفة العلمية بالأشياء، لكن الجزاء والثواب على البصيرة بالهدى الحق والعمل به وهذا ما خص به أولياءه. عَـنْ عَبْـدِ اللّه بْنِ سِنَانٍ عَـنْ أَبِي عَبْدِ اللّه عليه السلام فِـي قَوْلِه «**لا تُدْرِكُـه الأَبْصارُ» قَالَ «إِحَاطَـةُ الْوَهْمِ أَلا تَرَى إِلَى قَوْلِـه: ﴿قَدۡ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡۖ﴾**[1] **لَيْسَ يَعْنِي بَصَرَ الْعُيُـونِ: ﴿فَمَنۡ أَبۡصَرَ فَلِنَفۡسِهِۦۖ﴾ لَيْسَ يَعْنِي مِنَ الْبَصَرِ بِعَيْنِه: ﴿وَمَنۡ عَمِيَ فَعَلَيۡهَاۚ﴾ لَيْسَ يَعْنِـي عَمَـى الْعُيُونِ إِنَّمَـا عَنَى إِحَاطَـةَ الْوَهْمِ كَمَا يُقَـالُ فُلَانٌ بَصِيـرٌ بِالشِّعْرِ وفُـلَانٌ بَصِيـرٌ بِالْفِقْه وفُلَانٌ بَصِيرٌ بِالدَّرَاهِمِ وفُـلَانٌ بَصِيرٌ بِالثِّيَابِ اللّه أَعْظَمُ مِنْ أَنْ يُرَى بِالْعَيْنِ»**[2].

والبصيــر فهو إن جــاء مفرداً كان لرؤيــة أعمال الخلق ليثيب ويجــازي المحسن والعمــل الصالح وغيره، وإن جــاء مع السميع أو غيره فهو أوســع في بيان عظمة الله تعالى.

والمؤمن: بصيراً ومستبصراً ومذعناً بعظمة الله سبحانه البصير به وبكل شيء، وهــو يقر لــه تسليماً وإيماناً، وتهفــو روحه للتوجّه لعظمة الله حبــاً ويقيناً، ويسكن له قلبــه تسليماً واطمئناناً، وهــو على بصيرة من أمره في دينه ومــا يجب عليه ليتقرّب لنــور رحمــة الله وثوابه الجزيل، ولــذا تراه لا يبصــر إلا للحق ليعمل بــه ويذعن له، ويغضــ بصــره عن الباطل ولا ينظر به إلا لنقضه أو لهدمه إن استوجب ذلك، ويغض بصــره عــن الحرام ولا ينظر نظراً مريباً لامرأة أو مال لا حقّ له به ولا حاسداً ولئيماً

---

(1) سورة الأنعام، الآية 104.

(2) الكافي، الكليني، ج1، باب في إبطال الرؤية، ص 48.

لمؤمن ليخيفه، بل ينظر في كل عبادة تقربه للّه كالنظر في المصحف ولنبينا ولأئمة الحقّ ومعلّمه وللأب وللأم وللابن وللإخوان وللزوجة وللأصدقاء المؤمنين، ولكل ما يوصل للإيمان باللّه تعالى ويقرّب إليه، وينظر للأشياء للعبرة وللاتعاظ بها ولدلالتها على عظمة اللّه، وفي العلم ليكون بصير بدينه عالماً وعاملاً به، وعن يقين وبصيرة وهــدى لا ضلال فيــه، وللعلم المادي ليساعده في الطاعــة وللكسب الحلال الذي هو أهم أجزاء العبادة.

الدروس المستفادة من الآية

1. إنّ الهدايــة إلى الإيمان والإسلام وقبولهما هي نعمة إلهية كبرى وهي منّة من اللّه تعالى على عباده. ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ﴾.

2 .إنّ اللّه تعالى غني مطلق فهو غير محتاج أو منتفع بإسلامكم وإيمانكم. ﴿لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ﴾.

3 .إنّ علامة صدق الإيمان هو الاعتقاد بأنّ اللّه تعالى يمنّ على عباده ويتفضّل عليهم لا أنّهم هم يمنّون عليه. لا تَمُنُّوا... بَلِ اللّهُ يَمُنُ... إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ.

4 .إنّ المنّــة على رسول اللّه هي فــي الحقيقة منّة على اللّه تعالى. يَمُنُّونَ عَلَيْكَ... بَلِ اللّهُ يَمُنُ...

5.إنّ المقصــد الأســاس لتكامــل الإنســان هــو وصولــه إلــى حقيقــة الإيمــان. ﴿هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾.

6 .إنّ كــل الأشياء في السموات والأرض حاضرة ومنكشفــة انكشافاً مطلقاً لدى اللّه تعالى. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

۞ للمطالعة:

البصير والبصيرة

1 . على المؤمن أن يستحضر دائماً أنّ الله تعالى بصير بعباده أي أنّ الله تعالى يراه ومطّلع على باطن أعماله، وعليه أن يقوم بتربية نفسه وأبنائه على مراقبة الله له، وهذا يستدعي منه مراقبته ومحاسبته لنفسه.

2 . على المؤمن أن يطلب من الله البصير في دعائه أن يُبَصّره عيوب نفسه ليعمد إلى إصلاحها لكي لا تكون حاجباً وحاجزاً بينه وبين الله تعالى وأن يُبصّره أمور دينه كما ورد في الدعاء عقب صلاة المغرب عنْ أَبِي عَبْدِ اللّه عليه السلام قَالَ: «**كُنْتُ كَثِيراً مَا أَشْتَكِي عَيْنِي فَشَكَوْتُ ذَلِكَ إِلَى أَبِي عَبْدِ الله** عليه السلام **فَقَالَ: أَلا أُعَلِّمُكَ دُعَاءً لِدُنْيَاكَ وآخِرَتِكَ وبَلَاغاً لِوَجَعِ عَيْنَيْكَ قُلْتُ: بَلَى قَالَ: تَقُولُ فِي دُبُرِ الْفَجْرِ ودُبُرِ الْمَغْرِبِ - اللهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِحَقِّ مُحَمَّدٍ وآلِ مُحَمَّدٍ عَلَيْكَ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وآلِ مُحَمَّدٍ واجْعَلِ النُّورَ فِي بَصَرِي والْبَصِيرَةَ فِي دِينِي والْيَقِينَ فِي قَلْبِي والإِخْلَاصَ فِي عَمَلِي والسَّلَامَةَ فِي نَفْسِي والسَّعَةَ فِي رِزْقِي والشُّكْرَ لَكَ أَبَداً مَا أَبْقَيْتَنِي**»(1). ومعنى الدعاء الشريف: «**كنت كثيراً ما أشتكي عيني**» كان الاشتكاء من الشكوى وهي المرض.

3. أن يتفقه في دين الله تعالى لأن الفقه مفتاح البصيرة.

4. أن يحسن ويقوي علاقته بالقرآن والمعصوم وهم الصادقون كما تقدم فأهل القرآن العاملون المتدبرون وأهل الولاية المتمسّكون بالصادقين المعصومين يرزقهم الله البصيرة.

---

(1) مصباح المتهجد، الشيخ الطوسي، صلاة الصبح، ص 215. الكافي، الكليني، ج2، بَابُ الدُّعَاءِ فِي أَدْبَارِ الصَّلَوَاتِ، ح11، ص 550.

5 . إنّ الدوافع الخفية في نفس الإنسان هي أعقد بدرجات من غيب السموات والأرض ولعله لهذا استخدمت الآية مفردة «**يعلم**» للسموات والأرض ومفردة «**بصير**» للأعمال التي يقوم بها البشر.

6 . إذا اعتقد الإنسان حقيقة بأن اللّه عليم بصير سينعكس ذلك على أعماله وسلوكياته.



جمعية المعارف الإسلامية الثقافية
AL - MAAREF ISLAMIC CULTURAL ASSOCIATION
بيروت ـ لبنان ـ المعمورة ـ الشارع العام
تلفون: 01/471070 فاكس: 01/476142
www.almaaref.org
Email:info@almaaref.org



